
قصص بسيطة
رواية من الريف الألماني الشرقي
تأليف: إنجو شولتسه
ترجمة: سمير جريس
المشروع القومي للترجمة
المجلس الأعلى للثقافة
732

إهـــــــداء ٢٠٠٦
المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

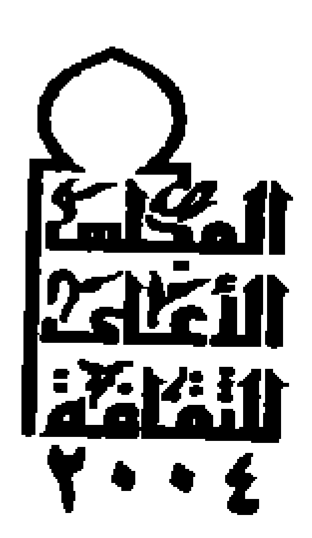
المشروع القومى للترجمة

قصص بسيطة

رواية من الريف الألمانى الشرقى

تـأليـف : إنجو شولتسه

ترجمـة : سمير جريس



المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٣٢
- قصص بسيطة (رواية من الريف الألمانى الشرقى)
- إنجو شولتسه
- سمير جريس
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة كاملة لكتاب :
Simple Stories
by Ingo Schulze



"قام معهد جوته بتقديم
الدعم المادى لنشر هذا العمل"
"Die Herausgabe dieses Werkes Wurde aus Mitteln des Goethe - Instituts gefördert"

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

كـل الشخصيـات الـواردة في الروايـة من خيـال الكـاتب ، وأى تشابه مع أحياء أو أموات هو محض مصادفة غير مقصودة .

الفصل الأول

زيوس

رِناتا مـويرر تحكى مـا حـدث أثناء رحلتـهـا بالأوتوبيس فى فبراير ٩٠ . السيد مويرر وزوجته لأول مرة فى الغرب فى عيد زواجهما العشرين. لأول مـرة فى إيطاليـا . عطل فى الأوتوبيس قـبل أسيزى يدفع رفيقهم فى الرحلة ديـتر شـوبرت إلى القيام بفعل يائس. تبادل الذكريات والمئونة.

ببساطة لم يكن الوقت ملائمًا لذلك. خمسة أيام بالأوتوبيس: فينسيا وفلورنسا وأسيزى. كان وقع أسماء هذه المدن على أذنى مثل كلمات من لغة الهنولولو. سألت مارتن وبِت كيف خطرت هذه الفكرة على بالهما، ومن أين أتيا بالمال؟ كيف تخيلا أن نقوم برحلة مخالفة للقوانين فى عيد زواجنا العشرين؟

كنت واثقة من أن إرنست لن يقبل ذلك. الأشهر الماضية كانت جحيمًا بالنسبة إليه. أشياء أخرى تمامًا كانت تشغل بالنا غير إيطاليا،

لكنه صمتَ. فى منتصف يناير سألنى هل هناك ما ينبغى التحضير له ؟ سنبدأ الرحلة يوم ١٦ فبراير، وهو يوم جمعة يقع فى إجازات المدارس . كما سألنى كيف سنعبر الحدود الإيطالية والنمسوية بأوراقنا الألمانية الشرقية؟ حكيت له ما أعرفه من الأولاد، إننا سنحصل من مكتب سياحة فى ميونيخ على بطاقات هوية ألمانية غربية، مزورة ربما. عندئذٍ قلت لنفسى : هذه هى نهاية الموضوع، ليس إرنست موير مَن يفعل ذلك، إلا أنه لم يسأل سوى عن الصورتين، هل كانتا لهذا الغرض؟ فأجبته: "نعم، صورتان لجواز السفر، تاريخ الميلاد، الطول، لون العينين – لا يحتاجون إلى أكثر من ذلك".

وسارت الأمور كما تسير دائمًا. فى الحقيبة الخضراء الداكنة وضعنا أمتعتنا، وفى الشنطة المخططة بالأحمر والأسود وضعت الشوك والسكاكين والأطباق ومئونة الطريق : معلبات بها سجق وسمك محفوظ، خبز وبيض وزبدة وجبنة، ملح وفلفل، شرائح خبز مجفف، تفاح وبرتقال، ولكل واحد ترموس به شاى وآخر به قهوة. أوصلنا بيتر بسيارته إلى بايرويت فى ألمانيا الغربية. على الحدود سألونا إلى أين نريد الذهاب، فقال بيتر للتسوق.

كان القطار يقف أمام كل كوخ. غير الثلوج والشوارع المضاءة والسيارات ومحطات السكك الحديدية لم أرَ كثيراً. جلسنا وسط رجال كانوا فى طريقهم إلى العمل. لم أفكر فى إيطاليا إلا عندما بدأ إرنست يقشر برتقالة.

لابد أن إرنست تعـرف عليـه فى مـحطـة ميــونيخ. لـم ألحظ ذلك. ومن أين لى أن أعرف كيف يبدو؟ بل إننى لم أعرف حتى اسمه الحقيقى.

ابتـداء من فـينسـيـا أتذكـره جـيـداً. رجـل مـتـوسـط القـامـة يتـحـرك "بلهوجة"، له عين زجاجية سيئة التركيب، وبدون رموش. كان يحمل مـعه كتـاباً ضـخـمـاً، ويضـع إصبـعه بين الصـفـحـات كى يسـتطيـع أن يسـتـعرض دومـاً مـعلومـاته عندمـا تقـوم جـابرييـلا، مرشـدتنـا السـيـاحـيـة الإيطاليـة، بشـرح شىء. نموذج مـتـجـسـد "لأبى العـريف". كل فـتـرة يمر بيـده على شعره الأسود الذى غزاه الشـيب، ويزيحه إلى الخلف. لكن شعره لا يلبث فى اللحظة التالية أن يسقط على جبهته وحدقتيه.

قصـر النبـلاء فى فـينسـيـا، الأعـمـدة والسبـاع التى كنت رأيتـهـا فى التليـفزيون. نسـاء فينسـيـا – حـتـى اللاتى فى عـمـرى – يرتدين جيـبـات قصيرة وقبعات جميلة عتيقة الطراز. كنا نرتدى ملابس أدفأ من اللازم. حتـى نتمتـع بالاستقـلالية كنـا نـأخذ معنا فى شنطة المئونة بعض المعلبات وخبزاً وتفاحاً لاستهلاكنا أثناء النهار. أما فى المساء فكنا نتناول طعامنا فى الغـرفـة. لم نتـحـادث كـثـيراً، إرنسـت وأنا، ولكن أكـثـر من الشـهـور المـاضـيـة على كل حـال. Una gondola, per favore[*]، هتف زوجى ذات صباح وهو يغتسل. كان الانطبـاع الذى يتركه إرنست على وجه العموم هو الإعجاب بإيطاليا، بل لقد مد يده مرةً إلى يدى وأمسك بها.

(*) الجملة الإيطالية وترجمتها : "نريد جندولاً من فضلك" . والمقصود تلك القوارب الصغيرة التى تقل الناس فى فينسيا . (المترجم)

لم يأتِ على ذكره بكلمة واحدة إلى أن وصلنا فلورنسا. هناك كنا ننتظر نزول المجموعة كلها من البرج ذى الأجراس. ساعتئذٍ سأل إرنست: "أين إذن متسلق الجبال؟" لم أنتبه لذلك، أو اعتقدت أنهما تبادلا بعض الكلمات ؛ إذ إن إرنست كان يذهب قبلى لتناول الفطور. قال شيئًا عن تمارين شد الجذع التى يمارسها مستخدمًا عارضة إطار الباب. قبلها، فى بادوا، أصر متسلق الجبال على أن نتوقف حتى نزور كنيسة صغيرة،.أو حلبة مصارعة. وكلها أشياء لم يتضمنها برنامج الرحلة. أدرت رأسى ناحيته . كان يجلس فى آخر الأوتوبيس. لم يكن هناك ما يمكن أن يشتت نظراته المسددة نحو زجاج السيارة الأمامى، وكأننا كلنا موجودون فقط حتى يصل سيادته إلى هدفه. ربما أظلمه، وربما لم أكن سأحتفظ به فى الذاكرة بدون الجلبة التى كان يحدثها، وربما أخلط تعاقب الأمور، لكننى بالتأكيد لا أخترع شيئًا.

حاولوا أن تتخيلوا هذا: فجأة يجد الإنسان نفسه فى إيطاليا وفى جيبه جواز سفر ألمانى غربى. أعطونى اسم أُرزولا، وإرنست أصبح بودو. محل الإقامة: شتراوبينج. أما اسم العائلة فقد نسيته. إننا فى الجزء الآخر من العالم، ومع ذلك يتعجب المرء من أنه يشرب ويأكل ويضع قدمًا أمام الأخرى كما فى وطنه، وكأن كل ذلك بديهى. عندما أنظر لنفسى فى المرآة أثناء تنظيف الأسنان، لم أكن أصدق أننا فعلاً فى إيطاليا.

قبل أن نغادر فلورنسا فى اتجاه أسيزى – اليوم الأخير فى الرحلة – توقف الأوتوبيس فى موقف للسيارات حيث استطعنا أن نلقى نظرة

على المدينة. السماء ملبدة بالغيوم. اشترى إرنست طبقًا عليه إحدى رسومات دانتى وأهدانى إياه - بمناسبة عيد زواجنا.

انطلقنا وسط الأمطار، وشيئًا فشيئًا ابتلع الضباب الطريق حتى إننى لم أر سوى الحواجز المعدنية على حافة الطريق، إلى أن غلبنى النعاس.

عندما أيقظنى إرنست كانت المجموعة تغادر الأوتوبيس. كنا نقف عند محطة وقود. عطبٌ ما أصاب المحرك أو ماسورة العادم. هبط الثلج على المظلات، وأضاءت السيارات كشافاتها. جو ملائم تمامًا لتعطل السيارة. شرع سائقنا يبحث عن تليفون. أتذكر كيف كان يحرك ساعديه، بالتقاطع، يمينًا ويسارًا. أعلنت جابرييلا أنه لابد من انتظار عمال خدمة تصليح السيارات. اقترَحت أن نذهب للتفرج على مدينة بروجيا ومعالمها السياحية.

أحضرنا معاطفنا وسرنا بمشية الإوزة تجاه المدينة القديمة، وعلى رأس المجموعة جابرييلا ومعها متسلق الجبال الذى هاج وماج وأصر على مواصلة السفر إلى أسيزى، مدعيًا أن بيننا وبين المدينة "فركة كعب"، حتى إنه يمكن رؤيتها إذا كان الجو صحوًا. لم يمل تكرار كلمة: "فركة كعب". مع أن حظنا كان تحت أقدامنا كما يقولون. ماذا لو كانت العربة تعطلت فى منتصف الطريق السريع، أو أننا تُهنا على الطريق الزراعى مثلاً؟

الثلج الآن متراكم فوق الرصيف. أبواب المتاحف والكنائس مغلقة، استراحة الظهيرة. قادتنا جابرييلا إلى نافورة "ماجيورة"، وتحدثت قليلاً

عن دار البلدية والكاتدرائية التى بدت ضخمة؛ لأن أسوارها اختفت فى الضباب. مضت ٥٠٠ عام وما زالت الواجهة دون أحجار تكسوها. على الإثر قالت امرأة من مدينة بلاون: مقارنةً بذلك لم تكن ألمانيا الشرقية سيئة إلى هذا الحد. هكذا ظلت المرأة تسخر وتتهكم. لم يبدُ على إرنست أى رد فعل. ببساطة تجاهل الأمر برمته.

فى ميدان السوق توزعت المجموعة على المقاهى والمطاعم هناك. مطعمنا كان اسمه "فيكتوريا". حتى الآن لم ننفق شيئًا، باستثناء طبق دانتى وعدة فناجين قهوة؛ لذلك قررنا أن نطلب شيئًا. كان الجرسون يتلوى كالثعبان بمئزرته الطويلة البيضاء بين الموائد القليلة التى امتلأت على حين غرة. أحيانًا كان يتخشب فى منتصف الحركة، مادًّا جذعه فى اتجاه شخص ينادى عليه. فقط أمام شاشة التليفزيون - حيث ترقبَ وصول متزحلق على الجليد إلى الهدف - كان الصمم يصيبه فجأة. جلس إلى مائدتنا أيضًا رجلان من دريسدن، طبيب أطفال ومصمم مناظر مسرحية. كانا يستطيعان التحدث ببعض الكلمات الإيطالية؛ لذا شرحا لنا قائمة الطعام. حاول إرنست أن يشير للجرسون، بينما ركزتُ اهتمامى على إصبع إرنست حتى لا ينحرف عن السطر المكتوب عليه Pizza con funghi(*).

فجأة نهض طبيب الأطفال؛ ولأنه أخذ يحملق فى النافذة فقد استدرت. من الناحية الأخرى تدافعوا كلهم ناحية الميدان ، كأطفال فى

(*) أى بيتزا مع عيش الغراب . (المترجم)

طريقهم إلى معركة بكُرات الثلج: جابرييلا بقبضتين مضمومتين، الآخرون فى إثرها كسربٍ صاخب إسفينى الشكل. الكراسى حولنا تُدفع إلى الوراء. وعندما تزاحم الجميع - مروراً بالجرسون - فى اتجاه المدخل، كان وقع الأقدام كوقع حوافر الخيل. تبعناهم إلى الكاتدرائية حيث التأمت دائرة صغيرة من الناس على السلم أمام المدخل الجانبي.

على ارتفاع أربعة أو خمسة أمتار كان متسلق الجبال يقف على إفريز يمتد أفقيًا على طول السور، فارداً يديه على الجانبين، ملتصقًا بكتفيه على الجدار. ساد هدوء غريب، وكأن هذا «المتشعلق» من السائرين أثناء النوم، لذلك خشى الناس أن يستيقظ لأدنى صوت ويسقط. الجليد الباهر جعل جابرييلا ترمش بعينيها. آخرون ظللوا بكفوفهم فوق أعينهم ليروا أفضل. حذاؤه النصف رقبة كان ملُقىً أسفله تمامًا. مد رأسه إلى الأمام، وكطائر ألقى نظرةً علينا فى الأسفل بعينٍ واحدة. كلا الجوربين كان عالقًا بأطراف أصابع قدميه. بدا التسلق سهلاً لَمن تدرب عليه ولو قليلاً. ربما وصل إلى المنبر الصغير عن طريق تسلق أحجار المدخل، ثم وقف على الإفريز إلى أن وجدت قدماه مكانًا على الأحجار البارزة وعلى السقالات.

"لا تنظر إلى أسفل"، هتف أحد الرجال. على إثر ذلك مد متسلق الجبال ساعده الأيسر، ثم استدار بخطوات متخشبة، وعلى الفور التصق ثانيةً بالسور، وتشبثت أصابعه بالنتوء التالى. تحسست ساقاه الجدار. كضفدعة أخذ يحرك ساقيه متسلقًا إلى أعلى، ثم استند على الحافة البارزة أعلى النافذة.

جذبنى إرنست من كوعى. "هيا بنا من هنا!"، همس فى أذنى. كان السيد زونيبِرجِر – العملاق ذو الشعر الأحمر – أول من شرع يلتقط الصور. هتفت جابرييلا لاعنةً: "لو قفز هذا الرجل إلى أسفل!". أخذت تروح وتجىء وسط المجموعة، وبيدٍ طوت ياقة جاكتتها المنتصبة، ثم أسرعت تنزل الدرج فى اتجاه شرطية كانت تضع على رأسها خوذة بيضاء بدت بها وكأنها فى كرنفال. من الخلف لم ير المرء من رأس جابرييلا سوى ضفيرتها الصغيرة البارزة. تحدثت الشرطية فى جهاز لاسلكى.

قالت السيدة التى تسكن مدينة بلاون إن الموضوع الآن دخل فى الجد، ثم صاحت: "هربرت، هيا يا هربرت، انزل، هيا ..." قاطعها زونيبِرجِر لأنه رأى أنه من غير اللائق أن نناديه بهربرت. هربرت هو الاسم المكتوب فى هوية شتراوبنجر. بعدها ران الصمت، ولم يتحدث الناس إلا همساً.

ضايقتنى معاملة إرنست لى، شده وجذبه. أردت أن أبعد عنه عدة خطوات، إلا أنه أمسك بذراعى. "لن يحدث له شىء!" فحّ فى أذنى، وأضاف: "إنه زيوس، هيا!"

"لا!"، نطقتها دون وعى. هذا الاسم سمعته آخر مرة قبل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً. "زيوس؟"

أدارت جابرييلا رأسها. "هل يُدعى هكذا؟ زيوس؟"

وفجأة أخذنا نتبادل النظرات جميعاً.

"هل يُدعى زيوس؟"

"هذا الرجل لن يسقط"، قال إرنست.

"زيوس؟"، تساءل شخص بصوت عالٍ. وعلى الفور صاحوا كلهم: "زيوس، زيوس"، وكأنهم عثروا أخيراً على الكلمة التى انتظروها على أحر من الجمر كى يكسروا جدار صمتهم، وبشعور يشبه التحرر هتفوا جميعًا حولنا: "زيوس، زيوس!"

لم يصمتوا إلا عندما ابتلعته سحب الضباب. البعض مد ذراعيه ليشير للآخرين أين رصد زيوس آخر مرة. تناقلت الأيادى آلات التصوير المزودة بالزوم والتى استُعملت كمنظار مُقرِّب. من سحابة الضباب سقط جورب فى منتصف الدائرة التى كونّاها حول حذائه. أعقبه بعد قليل سقوط الآخر. أصابتنى رعدة فى كلتا المرتين.

وفجأة ظهر زيوس كالشبح من جديد. انحنى إلى أسفل انحناءة دفعت البعض إلى الصراخ والرجوع القهقرى. كان من الممكن أن ينتشر الذعر. أمر لا يُصدق، كيف وجد شيئًا يرتكز عليه على هذا العلو! سال لعابه بين شفتيه، وتحرك كعنكبوت معلق بخيط، إلى أن تحرر وهبط بهدوء وسط الثلج. بجسد مقوس، وبفم معوجٍ ذكرنى بالأشكال التى تقذف الماء من فمها فى نافورات ناومبورج أو براغ، شرع يلقى خطاباً.

لم يعرف أحد بالطبع مَن المقصود عندما تحدث عن "مويرر الشيوعى الأحمر"، وبديهى أن الإيطاليين لم يفقهوا حرفًا مما نطق به. وصف إرنست بالرجل "ذى البدلة الخضراء المُستغِّل لمنصبه"، مشيراً

بذراعه المدوة ناحيتنا. لم يفهم أحد قصده. تعجبت كثيراً لقدرته على الصراخ، من أين أتى بها؟ القصة تعود سنوات طويلة إلى الوراء، كما أن إرنست لم يكن مسروراً عندما فعل ما فعل، أعلم ذلك. كان فى البيت يطلق عليه "زيوس"، وهو اسم الشهرة الذى كان الآخرون يستخدمونه أيضاً. اسمه الحقيقى شوبرت، ديتر شوبرت.

إذا لم يدقق المرء النظر فإنه لم يكن يسمع سوى الصراخ السخيف. اعتقدت أن زيوس قد يسقط فى أى لحظة، وتشج رأسه أمامنا. تخيلت كيف سيتزاحم الجمع إلى الأمام حتى يروه. لن تواتى أحد الشجاعة كى يلمسه. سيبدو جسده سليماً دون خدش، كما تبدو جيفة الحيوانات أحياناً على حافة الطريق، فقط الدم المنبجس منها والمتجمع تحتها يجعل الإنسان يحدس ما حدث. أخذت جابرييلا تتحدث إلى نفسها برأس منكسة.

مرّ وقت طويل إلى أن صمت زيوس، وكأن الثلج قد أحكم قبضته عليه وخنقه. عندئذٍ شرع يتزحزح سنتيمترات معدودة ناحية الشمال فى اتجاه المزراب. أضحت حركاته أكثر حذراً وتردداً، وكأن السائر أثناء النوم قد استيقظ الآن.

"خلاص، انتهى الموضوع"، قلت لإرنست، وشبكت ذراعى فى ذراعه. كنت أقصد الصراخ بالطبع. ظل إرنست يضع يديه فى جيبه محملقاً فى ضفيرة جابرييلا البارزة.

تعلق زيوس بمانعة الصواعق وهبط. استقبله أفراد من الشرطة الإيطالية وأحاطوا به، بينما أخذ يلبس جوربه وحذاءه الذى غطاه الثلج.

اقتربت عربة مطافئ بأنوارها الزرقاء. رسمت جابرييلا الصليب على صدرها، ثم أخبرتنا بموعد التجمع عند الأوتوبيس وانصرفت مع زيوس والشرطة. انقسمت مجموعتنا من جديد. الجرسون نو المئزرة الطويلة أسرع خطاه وسبقنا إلى "فيكتوريا".

لبرهة ظللت واقفة مع إرنست. من كُمَّي جاكتته الجديدة الطويلة لم تبرز إلا أنامله. بدأت أشعر بالبرد، وتوجهنا إلى الأتوبيس.

فجأة سأل إرنست: "هل تشمين؟"

"نعم". أجبته معتقدةً أنه يقصد البنزين، فرائحة كل شيء هنا مختلفة.

"فراولة"، هتف. "تفوح في الجو رائحة فراولة."

لم نزرع شيئًا في حديقتنا إلا الفراولة. كنا نميز بين السنوات بعدد التورتات التي أصنعها بالفراولة. أضحى شرب القهوة مع الضيوف شيئًا احتفاليًا بحق عندما أقول: هذه آخر تورتة. فراولة لآخر مرة في هذا العام. ورأيتُ أمام عيوني حديقتنا والكوخ الذي أسميناه "إلى جحر الثعلب". عندئذٍ قلت: "كئوس البيرة الفارغة. هل تشم رائحة كئوس البيرة الكثيرة الفارغة على المائدة تحت أشعة الشمس؟"

أنا متأكدة أننا لبرهة رأينا الأشياء نفسها أمام أعيننا: الصينية القديمة، والكئوس ذات النقطة الحمراء في القاع، وثمار الفراولة في حديقتنا.

فتح السائق الباب. دعوته أن يشاركنا الطعام. كُمًّا قميصه مشمران لأعلى. مسح يديه المتسختين فى منشفة، وانهمك فى حشو فمه بالطعام. ما زالت لدينا كميات كبيرة من المأكولات، وحتى من التفاح، رغم أننا كنا نتناول طعامنا دائمًا من شنطة المئونة، باستثناء وجبة الفطور الشحيحة فى الفندق. كنا نشعر نحن أيضًا بالجوع. ظللنا نأكل حتى عندما رجع السائق إلى مقعده واتكأ على ظهره واسترخى ليغفو قليلاً قبل رحلة العودة. فى تلك الأثناء كان الثلج قد ذاب.

لماذا أحكي هذه القصة؟ لأن الإنسان جُبل على النسيان بسرعة، رغم أنه لم يمضِ وقت طويل بعْدُ على تلك اللحظة التى فكرنا فيها - إرنست وأنا - فى الشىء نفسه، ولا على تلك الأيام التى كنا نحمل فيها شنطة مخططة بالأحمر والأسود مليئة بالأطعمة المحفوظة، ونتنقل بها من مكان إلى آخر.

الفصل الثانى

نقود جديدة

كونى شوبرت تحكى حكاية قديمة: شاب يأتى إلى المدينة، يعقد صفقات، ويوقع فتاة فى غرامه، ثم يختفى. السذاجة والحيطة.

وصل هارى نلسون إلى ألتنوبورج قادمًا من فرانكفورت فى شهر مايو ١٩٩٠، بعد مرور أسبوع على عيد ميلادى التاسع عشر. كان يبحث عن منازل، ويبحث أكثر عن أراضٍ مخصصة للبناء على الطرق المؤدية للمدينة. كان يريد إنشاء محطات وقود. هارى متوسط القامة، داكن الشعر، ولا يدخن. نزل فى فندق المدينة اليتيم، "فنتسل"، فى الطابق الأول. فى كل مكان يظهر فيه – حتى على الفطور أو العشاء – كان يحمل دومًا حقيبة جلدية مزودة بقفلين يعملان بالأرقام.

منذ سبتمبر ٨٩ أعمل نادلة فى "فنتسل". هذا أفضل عمل وجدته فى محيط سكنى، وإلا توجب على السفر إلى لايبتسج أو إلى جيرا أو مدينة كارل ماركس. رئيستى فى العمل – إريكا بانرت التى أعرفها

منذ فترة تأهيلى المهنى - قالت لى ذات مرة إنها كانت فى السابق مثلى تماماً، تماماً مثلى، رشيقة وجميلة. أعرف طبعًا أن فمى أصغر قليلاً من اللازم، وعندما أمشى مسرعةً تهتز وجنتاى لدى كل خطوة اهتزازًا خفيفًا للغاية.

أحببت هارى، وخصوصًا طريقته فى المشى عندما يدخل إلى الغرفة ثم يحيينا بإيماءة رأس، وبعدها يجلس واضعًا ساقًا فوق ساق، ويسحب بنطلونه عند الركبة إلى أعلى قليلاً، طريقته فى تذوق النبيذ، وفرد منديل السفرة. أحببت عطره، ووجهه فى المساء الذى يبدو غير حليق، وأنه كان يخلط بين أوراقنا النقدية، وأنه كان يعرف أسماءنا دون أن يضطر إلى الحملقة فى اللافتات الصغيرة التى نعلقها على صدورنا، وأكثر ما أحببته فيه هو تفاحة آدم. كنت أتفرج على هارى وهو يشرب. بطريقة آلية كنت أفعل ذلك، ضد رغبتى، وفى طريق عودتى إلى المنزل كنت أحاول أن أتذكر ملامحه بكل دقة ممكنة.

كل غرف "فنتسل" كانت مشغولة؛ لذلك فضل النزلاء الذين يسافرون فى عطلة نهاية الأسبوع أن يدفعوا ثمن المبيت بدلاً من أن يخلوا الغرفة. فى المساء كانت هناك مائدة لستة أشخاص محجوزة لهارى. كان لديه دائمًا ضيوف. إريكا كانت تهمس فى أذنى بأسمائهم، وتلوح لبعضهم بيدها وكأن النار قد مست أصابعها، وتقول: "لم ينسوا أبداً ما كانوا يملكونه."

لم يكن هارى يوجه إلا الأسئلة، فإذا بدأ الناس يحكون يكون الوقت قد تأخر. لم يضايقنى العمل طويلاً، بالإضافة إلى ذلك كنت

ولا زلت أعتقد أن العمل نادلة فى مطعم أسهل من الخروج صباحًا من المنزل بحقيبة الملفات لإبرام عقود.

عدا هارى لم يبقَ سوى نزلاء قلائل فى نهاية الأسبوع. أتذكر رجلاً بدينًا يدعى تشيسلا من مدينة كولونيا. كانت تعمل لديه مجموعة من الشباب الذين يعرضون للبيع كاسيتات وأسطوانات ويتنقلون بها من سوق إلى آخر. فى "فنتسل" كان يقابل هؤلاء البائعين، شباب من المنطقة يفهمون بعض الشىء فى الموسيقى. فى الأغلب كانوا يأكلون ويشربون هنا، إذ إن تشيسلا كان يتركهم ينتظرون حتى يتأكد من صحة الحسابات. إريكا كانت تهتم بأمر بيتر شموك الذى يعمل فى "الكوميرتس بنك". شاب نحيل ذو كفين ضخمتين وضحكة بلا صوت. كان يظل جالساً حتى يتوفر لها الوقت للإصغاء إليه. كان هناك أيضًا رجل من شركة تأمين "أليانتس"، كنا ندعوه مستر ويلا، وواحد آخر كنا نسميه شوشاين. نادراً ما كانوا يتبادلون الأحاديث فيما بينهم خلال الأسبوع. فقط فى أيام الآحاد، عندما كان المرء يرى من غرفة الفطور طوابير البشر التى تقف فى الناحية المقابلة أمام المحطة فى انتظار وصول صحيفة "بيلد"(*) – كان الناس يشترون فى أغلب الأحيان على الفور أكثر من نسخة – فقط فى تلك الأيام كانوا يتبادلون النكات حول ذلك، ويتجمعون كلهم على مائدة واحدة.

(*) صحيفة "بيلد" الشعبية هى أكثر الصحف الألمانية [الغربية] توزيعًا. (المترجم)

فى منتصف يونيو نشرت صحيفتان - "فولكس تسايتونج" و "فوخن بلات" - صوراً لهارى وهو يصافح عمدة المدينة الجديد. كان من المنتظر أن يتم بناء محطة وقود خلال عام ١٩٩٠، أعتقد تابعة لسلسلة BP.

وفجأة تردد أن السيد نيلسون سيسافر، ثم سمعت أنه وجد شقة وسينتقل إليها، كما قالوا إن هارى نيلسون سيسافر لمدة أسبوع، ويعود. كنت أود أن أعد له علبة بها زاد للطريق، إلا أننى خفت أن يلاحظ الآخرون ذلك، أو أن يشعر أننى أفرض خدماتى عليه.

أخذت إجازة لمدة أسبوع، شبعت خلاله نوماً. فى البيت كان والداى يكثران التحدث عن النقود الجديدة التى ستُطرح للتداول بدءاً من الاثنين القادم. أبى - الذى انضم بعد رحلته الفاشلة إلى أسيزى لحزب DSU اليمينى المتطرف - قال إن ما أفعله هو عين العقل. اليابانيون يكتفون أيضًا بخمسة أيام فقط إجازة فى السنة. لابد أن يبذل المرء الآن قصارى جهده. حتى أمى قالت إنه لابد من فصل الغث عن السمين الآن، فنحن فى وسط المعمعة. ذات مرة تخيلت وأنا فى البانيو أننى أُقبِّل هارى على تفاحة آدم.

فى يوم الاثنين، ٢ يوليو، بدأت ورديتى فى الظهيرة. المطعم خالٍ من الزبائن. سيستمر الأمر على الأقل ثلاثة أسابيع أو أربعة، قالت إريكا، حتى يكون الناس عندنا أيضًا على استعداد لدفع نقود غربية مقابل قطعة ستيك.

حوالى الواحدة ظهراً دخل اثنـان بشـرتهما داكنـة، "باكستان" كما أسمتهما إريكا، يتاجران فى السجاد. عند تحصيل النقود خامرنى نفس الشعور كما فى بداية فترة تدريبى عندما قدمنا الطعام لبعضنا البعض على سبيل التمرين، ودفعنا الحساب بنقود لعبة.

ظهر هارى فى المساء. عندما دخل المطعم حاملاً حقيبة الملفات قال: "مسـاء الخيييير!"، وجلس عند النافذة، فى المكان المحجوز له دائمًا. أخيراً رأيت أذنيه الصغيرتين مرة أخرى، وأظفار أصابعه العريضة، وتفاحة آدم. كـان هارى يرتدى قميصًا قصير الكمين، وبنطلونًا من الكتان، وصندلاً بدون جوارب. قالت إريكا إن هارى قدم استقالته، لكنه يريد البقـاء هنا. "واحـد مـثله"، همَسَت فى أذنى، "يحـتـاج دائمًـا إلى الجديد، دائمًا يتحرك إلى الأمام، إلى الأمام، إلى الأمام".

بعد أن أفـرغ البـاكسـتـانيـان حـمـولة باص الفـولكس فـاجن من السجاد، وحمـلاه إلى غرفتهمـا فى الطـابق الثانى، طلبا شـوربة. كان هارى يقلب فى صحف الأسبوع الماضى وهو يتناول طعامه، أما أنا فكنت أحضر له كأس نبيذ بعد الآخر.

تشيسلا – الذى كان قد أخلى غرفته – جاء لإحضار بعض الأشياء، ثم جلس فيما بعد معه. "فى صحة مشـروعك الخـاص." ورد هارى: "فى صحة المحل، وأن يسير كل شىء على ما يرام." فأجابه تشيسلا: "فى صحتنا!" هذا الحوار احتفظت به فى الذاكرة على الرغم من تفاهته. ولأن بار الفندق كان مغلقًا يوم الاثنين، فقد انطلقا معًا حوالى العاشرة. رأيت الرجلين يمران بجوار الشباك فى اتجاه مركز المدينة.

لف تشيسلا ذراعًا حول كتف هارى، وبالثانى أخذ يلوح ويشير، مسدداً نظراته نحو الأرض. بقيت بمفردى مع الباكستانيين. تحدثت المرأة بصوت خافت مع الرجل الذى كان يحسب شيئًا على الآلة الحاسبة، ثم أدار الآلة ليريها الناتج. قلت لهما إننى لابد أن أحاسب الآن لأن المطعم سيغلق. دفعا واختفيا.

أخذت أفرش الموائد فى الجزء الخلفى من المطعم استعداداً لوجبة الفطور. بعد أن انتهيت، جلست إلى المائدة بجوار الباب وأخذت أطبق المناديل. العاملون فى المطبخ انصرفوا إلى بيوتهم. فيما عدا صوت الراديو فى الاستقبال ساد الهدوء فى الفندق.

عندما سمعت صليل الشبكة المعدنية عند بوابة الدخول بعد الحادية عشرة والنصف بقليل، عرفت أن هارى عاد. لم أكن بحاجة حتى إلى النظر إليه. بقى خلف مقعدى واقفًا، ثم انحنى ببطء على كتفى. أدرت رأسى ولمست أثناء ذلك وجنته. "كونّى"، همس فى اللحظة التى شعرت فيها بكفه. لمس أولاً لافتة الاسم، ثم تحسس طريقه إلى صدرى.

"لا"، صحتُ. ضغط هارى صدرى ناحية ظهر المقعد. أخذ يقبل عنقى، فوجنتى، ثم – عندما رجعت برأسى للوراء – شفتى. مد ذراعيه وأصابعه إلى ركبتى. استدرت تحت ذراعيه بسرعة إلى الجانب، ونهضت.

كان أطول منى كثيراً. اكتسى وجهه الآن لونٌ أحمر قانٍ، بينما كان شعره أشعث. نظراته مسددة إلى أسفل، إلى حذائى القماش

الأبيض نصف الرقبة. تطلعت إلى خصلات شعره الواقفة على رأسه. اكتسبت ملامح هارى الآن جرأة لم ألحظها فيه من قبل.

"تعالى. فلنتمشَّ قليلاً".

استولى علىّ الخوف من أن أخطئ. أحضرت الجاكيتة التريكو، وأقفلت باب المطعم، وسلمت المفتاح عند الاستقبال. فى الخارج لف هارى ذراعه حول خصرى. وددت لو اختفيت عن الأنظار، إلا أننا كنا نقف كل عدة خطوات، لنتبادل القبل. لقد عثر كل منا إذن على الآخر، هكذا ببساطة، بلا كلمات كبيرة. هكذا فكرت.

عند التقاطع جذبنى على قطعة الأرض المعشوشبة. "هارى"، همستُ آملةً أن يكون فى هذه الكلمة الكفاية. انحدرت يداه من خصرى إلى أردافى، ثم إلى أسفل، إلى الساقين، ومن تحت الجيبة ارتفعت ثانية. "هارى"، رجوته. قبلت جبهته، فى حين امتدت يداه إلى الكيلوت، ثم سحبه إلى أسفل. أحكم هارى الإمساك بى، واندست إحدى يديه إلى ما بين فخذى، وشعرت بأصابعه، إصبع واحد فى البداية، ثم أصابع عديدة.

بدا هارى سعيداً. ضحك قائلاً: "لِمَ لا؟ قولى لى، لِمَ لا؟" رأيت شعره وقفاه. واصلَ التحدث. لم أفهم كل ما قاله؛ لأنه كان يضحك كثيراً. لا هو أصغى إلى ولا يداه. أعقب ذلك ألم، بدأ من الكتف وسرى إلى الظهر. "ارفعى ذراعك"، صاح صوت، "ارفعى ذراعك!" للحظة لم أدر أين أنا، ولا ما الشىء الذى جثم علىّ. شُدت البلوزة إلى أعلى. وكرر الصوت جُملته عدة مرات، مشدداً على كل مقطع: "ارفعى ذرا-عك!"

لم يعد صوت هارى يشى بالسعادة. استند لحظة على معصمى، وبعدها لم أعد أرى شيئًا . ظللت أسمعه فحسب، ثم أحسست به يلحس ويعض. حاولت أن أتنفس بانتظام. ركزت فكرى على ذلك. سيان ما يحدث ، المهم أن أتنفس. هذا هو ما أتذكره.

ظل هارى راقداً فوقى. استطعت أن أخلص ذراعًا من البلوزة، وحاولت أن أستدير وأبعده عنى. كانت السماء سوداء، والمصابيح كزهرة رمادية كبيرة. تدحرج هارى على ظهره، فاغراً فمه. قميصه مشدود لأعلى. البطن الأبيض مثلث، الصرة قمته. ارتخى عضوه جانبًا، فوق فتحة الكلسون مباشرة.

"هارى"، نطقت. "لا يمكن أن تظل راقداً هنا." ابتلع ريقه. كنت أريد التحدث. تحدثت طوال الوقت الذى كنت أبحث فيه عن الكيلوت. تصرفت مثلما يسلك الناس الذين تعرضوا إلى حادثة فى فيلم. حاولت أن أشد الجاكتة من تحته، لكننى فشلت، ومشيت مبتعدة.

خطر على بالى الفكرة التى تجيئنى كثيراً فى الفترة الأخيرة وأنا فى طريقى إلى المنزل: ليس علىّ سوى النوم، وفى الغد سوف أراه ثانية، زوجى القادم، أب أطفالى الكثيرين الذى لا يقارن برجل آخر فى الدنيا، الرجل الذى سيفرجنى على الدنيا، والذى يفهم كل شىء، الرجل الذى سيحمينى ، ويثأر لى.

ما حدث بعد ذلك عرفته من الجوابات والتليفونات. ظلت وظيفتى شاغرة، وفى الخريف أغلق "فنتسل" أبوابه. وجدت إريكا عملاً لدى إيطالى جرّب حظه بافتتاح مطعم بيتزا في شارع المصنع. فى أبريل ٩١

وجد نفسه مرغمًا على إغلاق المطعم. وجدت إريكا عملاً فى مطاعم أخرى، ولكن ما تكاد تمر عدة أشهر على الافتتاح، حتى يغلق المطعم. حدث لها ذلك أربع مرات، وهو ما جلب لها فى نهاية الأمر سمعة سيئة؛ أنها تجلب النحس. لم تلتصق السمعة بها طويلاً، فقد لاحظ الجميع سوء الأوضاع.

فى تلك الأثناء كان هارى نلسون قد غادر بحقيبة ملفاته المدينة من جديد. يقولون إنه ما زال يملك عدداً من المنازل، ولكن لم يره أحد بعد ذلك.

لم أعثر على عمل إلا فى الغرب، فى مدينة لوبيك، وبعد سنتين عملت على سفينة سياحية إنجليزية. والداى يحكيان ذلك بسرور. كثيراً ما أتصل بهما تليفونيًّا، أو أرسل لهما كارتا سياحيًّا.

رغم أننى كنت ساذجة للغاية وبلهاء، فإنهما يقولان إننى أدركت مبكراً - عندما كان الآخرون لا يزالون يتمسكون بأهداب الوهم - ما ستؤول إليه الأمور هنا، ولديهما بعض الحق فى ذلك.

الفصل الثالث

قصة جيدة فعلاً

دانّى تحكى عن عيون التماسيح. إنها تكتب أقل مما ينتظره زبائن الإعلانات، وأكثر من اللازم عن المشاجرات. رئيسها - كريستيان باير - ساخط. حكاية بيتر برترام. فى النهاية لابد أن تفكر دانى فى حجة مناسبة.

فبراير ٩١ . أعمل فى صحيفة أسبوعية. فى كل مكان ينتظرون الانتعاش الاقتصادى. يبنون سوبر ماركت ومحطات وقود، ويفتتحون مطاعم، ويقومون بإصلاح وتحديث أول مجموعة من المنازل. عدا ذلك ليس إلا بطالة واسعة ومشاجرات بين الفاشيين ومجموعات الشبيبة المسماة بالبانكس، بين حليقى الرءوس (السكينهد) وذوى الرءوس الحمراء، بين البانكس والسكينهد. فى عطلة نهاية الأسبوع يأتيهم المدد من المدن المجاورة، من جيرا وهاله ولايبتسج-كونيفتس. المتفوقون عدداً يطردون الآخرين. الأمر يدور دائمًا حول الثأر. المسئولون فى المدينة

وفى المجلس المركزى يطالبون الشرطة والقضاء باتخاذ خطوات أكثر حزماً.

مطلع يناير كتبت صفحة كاملة عما يحدث كل يوم جمعة فى محطة السكك الحديدية. أمدنى باتريك بالصور. بعد ذلك بأسبوع أثارت مقالة أخرى لى عاصفة من الجدل. استناداً على أقوال شهود عيان كتبت أن مجهولين فتحوا عنوةً فى الليل باب إحدى الشقق فى شمال مدينة ألتنبورج، وانهالوا ضرباً على مايك ب من جماعة البانكس حتى كاد يموت. استفاق من الغيبوبة بعد يومين. كان أخوه يرقد فى القسم نفسه من المستشفى مصاباً بارتجاج فى المخ. الأب خدروه بغاز مهيج، أما الأم فكانت فى إحدى الدورات التدريبية.

منعنى باير، رئيسنا فى العمل، من أن أكتب اسمى على التحقيق الصحفى. أيضاً لم يسمح لى بكتابة اسم باتريك. أصر على هذا لأن صديقته كانت تنوى الانتقال للسكن معه. فكر باير جدياً فى شراء كلب شيفر لحراسة قسم التحرير، إذ إن "لا أحد يؤمن الإنسان ضد التخريب والنهب"، كما يقول.

كنت أشعر بالخوف أكثر من المُسن الذى يسكن فى الطابق الأعلى لغرف التحرير. فى البداية وجدت أوراقًا تحت مسّاحة السيارة تطالبنى بصفة نهائية بإرجاع نقوده، ثم مزق الإطارات الأمامية لسيارتى القديمة من طراز بليموت التى لم يرضَ أحد أن يؤمن لى عليها. فعل العجوز ذلك

مرتين. في المساء كان ينتظر ساعات على الدرج المظلم أمام مدخل الجريدة. لم أكن ألحظ وجوده إلا عندما يزأر: "فلوسي، عايز فلوسي". حاولت أن أتحدث معه، وقرعت جرس شقته. قبل أربعة أسابيع كنا نتبادل الحديث بصورة طبيعية للغاية، بل لقد حملت ذات مرة دلو الفحم بدلاً عنه، وصعدت به إلى شقته.

أنا مجهدة من فرط العمل وأعيش – منذ انفصل إدجار عني – عفيفة كالراهبات. أتفهم موقف إدجار. أنا ليس لدي حتى وقت لشراء هدية لابن أختي بمناسبة عيد ميلاده الثالث.

مرة أخرى يذكرون اسمي في غرفة رئيسنا باير، لأنني لم أنته بعد من كتابة المقال عن عقارات نيلسون. هاري نيلسون من زبائن الإعلانات في الجريدة. أسبوعيًّا ينشر إعلانًا، على ثلاثة أعمدة، مائة مليمتر. بالرغم من الخصم الذي يبلغ ٢٠ في المائة فإنه يدفع ٣٣٦ ماركًا، زائد ضريبة المبيعات، أي في العام ١٧٤٧٢ ماركًا، زائد ضريبة المبيعات. "أن أملك، أو لا أملك" يقول باير. السيدة شولتسه، التي تدخل ممسكة بفنجانين من القهوة، تصب لي حليبًا. في العادة لا تفعل ذلك إلا لباير.

أقول إن نشر صورة مع إمضاء أفضل من مقالة، وإنني أستطيع كتابة أربع مقالات للتعريف بتلك الشركات على صفحة واحدة، لكنني لا أعرف متى، وإننا لابد أن نتعلم أخيراً أن نقول في بعض الأحيان "لا". باير يتحدث من جديد عن الـ ١٧٤٧٢ ماركًا، وينتهي بالقول: "ربما يتوجب علينا أن نتحدث عن راتبك، يا داني".

أتطلع إلى الكسوة الخشبية لمكتبه المخابراتى - وهو من أثاث مكاتب الشتازى(*) فى المدينة الذى وُهِبَ إلى جمعية "الغوث" الخيرية المسجلة التى قامت بدورها ببيع ما لا تحتاجه بأسعار زهيدة. الأشكال المتموجة على سطح الخشب ذكرتنى مرة أخرى بسؤال باير أثناء المقابلة الشخصية، إذا كنت حاملاً أو "أخطط لمولد طفل". واصل أسئلته فى هذه الموضوعات، وكان يبدو على استعداد لتبرير سؤاله. فى البداية حملقت فيه، ثم فى المكتب، وأجبت "لا".

فى كل مرة أنوى أن أتحدث مع الآخرين عن هذه التموجات الأميبية الشكل. كلنا مجبرون على تسديد النظر إلى هذه الخطوط والدوائر التى تشبه فى أقصى الشمال عين التمساح، ولكن لا أحد يتكلم عن ذلك، وأنا أنساها دوماً وكأنها حلم كريه.

أشرح لباير - الذى يضع فى المواقف المحرجة إبهامه تحت السبابة أو الوسطى - أنه ليس من الجيد أن تنحنى صحيفة أمام عملائها. على العكس، لابد أن نهتم أكثر بالمحتوى، بالتصميم والتنظيم الداخلى. لابد أن نتبنى الموقف التالى: من المسموح أن يكون المرء زبوناً عندنا. العكس معناه أن نصير كالحِذاء!

أجابنى قائلاً: "مهلاً، مهلاً، يا دانّى!"

باير يكاد لا يكبرنى فى العمر. عندما ينادينى باسم العائلة فإن وقع اسمى يكون غريباً، لكن من السخافة أيضاً أن ينادينى بـ "دانّى".

(١) شتازى : اختصار يشير إلى جهاز مخابرات أمن الدولة فى [ألمانيا الشرقية] . (المترجم)

يريد أن يكون زميلاً، وعادلاً، لذا يتيح لنا دائمًا الوقت لنتحدث. ولكن متى سمع كلامنا؟ إنه حتى لا يفكر فى مقترحاتنا. إنه لا يفقه شيئًا فى العمل، ويظن أنه إذا دبر النقود فستسير الأمور على ما يرام. قال لى إنه يجب أن أحضر المقالة عن هارى نيلسون المزودة بصورتين - إذ إن نيلسون قام بتجديد منزلين- كما رجانى باير أن "أدع حروب العصابات على جنب" - على حد تعبيره - خلال الأعداد القادمة، وأن أهتم بمتابعة الموضوعات الأخرى. مثلاً مقالة عن البحيرة فى روزيتس أو عن الممتلكات اليهودية السابقة فى ميدان "ماركت بلاتس"، مناقشة نقدية حول المبدأ القائل: الإرجاع بدلاً من التعويض.

اتفقنا ألا نرفض أحداً يتصل بنا أو يأتى إلينا فى الجريدة، وأن علينا أن نستمع إلى كثيرين حتى نستطيع الحصول على قصة جيدة، فالمرء لا يعرف أبداً إذا كان بالمعلومات شىء من الصحة، وإذا كان بها، فما هو هذا الشىء؟ لا يريد شكاوى بعد الآن، أو على الأقل لا يريد شكاوى كثيرة، وعلى أى حال لا يمكن أن يسمح إطلاقًا بفقد عميل - نيلسون - ينشر مائة مليمتر على ثلاثة أعمدة. صافحنى باير مودعًا: "إلى اللقاء. الساعة السابعة مساء فى نادى السيارات. بعدها ممكن أن نشرب معًا كأس بيرة."

أتساءل متى سأرى الأميبيا وعين التمساح مرة أخرى، وهل ستكون حياتى قد تغيرت عندئذٍ.

عندما مررت بالسيدة شولتسه، مدت إلىّ سجل التنقلات، وعليه مفتاح السيارة الرينو وورقة: برترام، الساعة الخامسة مساء ، ثم العنوان والتليفون وعلامتا تعجب.

قالت: "إنه يعلم أنك ستتأخرين، وهو ينتظر".

تذكرت اتصاله التليفوني. تحدث بصوت خافت مضطرب، إلا أنه ليس بالصوت اليائس مثل تلك الأصوات التي تصل إلى غرفة نومها من العائلة التي تسكن بجوارها أو من العاملين في الجراج. قال إن صحيفتنا هي الوحيدة التي يثق بها.

يسكن برترام في شمال المدينة، شارع شومان، أمام مساكن الروس. أمام باب منزله تماما أجد مكاناً شاغراً أستطيع أن أركن فيه السيارة. عليّ الصعود إلى الطابق الرابع.

فتح بسرعة وصافحني. قلت له: ليس لدي إلا ساعة. رد قائلاً: على الأقل يمكننا البدء، ثم صب من الترموس قهوة. على طبقي وطبقه قطعتان من الجاتوه. وضع برترام منفضة سجائر ثانية على الطاولة الصغيرة أمام الكنبة، ثم أشعل شمعة حمراء. "أم تفضلين الشاي؟"، تساءل وهو يجلس أمامي على الفوتيه. خلفه أرى حوض سمك بدون نباتات خضراء. أيضاً لا أرى أسماكاً.

أعداد من صحيفتنا مرتبة في عدة كومات على الكنبة. أقرأ المانشيت: "من جنوب أفريقيا عبر أستراليا إلى كندا: مطالب بممتلكات في ألتنبورج"، الخميس ٢٥ أكتوبر ١٩٩٠ . قبل معارك السكينهد والبانكس هبطت أرقام توزيع صحيفتنا إلى أقل من ١٢ ألف نسخة.

"أحسدك على مقالاتك"، بدأ بالحديث. "عندما يكتب المرء فإنه يرى العالم بعيون أكثر انتباهاً، ولكن لازم تكوني أكثر شجاعة..." بدلاً من أن

يواصل الحديث أخذ قطعة من الجاتوه المسمى "لدغة النحل"، وقال لى: "تفضلى". عندما قضم انحرفت شفتاه وندت عن عينيه نظرة مرعوبة، وازدادت التجاعيد بين حاجبيه عمقًا. بفم ممتلئ راح يمضغ بعناية فائقة مبالغ بها. فوق الكنبة كانت لوحة فان جوخ "مقهى ليلى" معلقة على حائط مكسو بورق أبيض به نقش فضى اللون.

أخرجت جهاز التسجيل، وفتحت دفتر الملاحظات، ونزعت غطاء قلم الحبر، ثم كتبت "برترام" وتحت الاسم جررت خطًا.

"حتى أكون صادقًا معك"، قال، "لم أحكِ ما حدث لإنسان". أسرع فى مضغه ثم بلع. "أريد فى البداية أن أسألك إذا كنت تريدين أن أخبرك بذلك. إن ما حدث فظيع إلى حد ما. أنت أول إنسان أحكى له." نفض راحة يديه فوق الطبق من فتات الجاتوه، ثم اتكأ إلى الوراء.

سألته إذا كان يسمح بأن أبدأ التسجيل.

فقال برترام: "آه طبعًا، بديهى." تدلى ساعده الأيمن من فوق الفوتيه. "حدث ذلك يوم الخميس، من أسبوعين. كل خميس تذهب زوجتى لزيارة إحدى زميلاتها فى العمل. كل واحدة تعتنى بشعر الأخرى، وكذلك بأظفار القدمين. لا يكلف هذا شيئًا، ويتبقى لهن أيضاً وقت كافٍ حتى تحكى كل واحدة للأخرى عما لا تحكيه النساء إلا لبعضهن البعض. فى تلك الأمور يظل الرجال فى الخارج، شئنا أم أبينا. "كم تدفع دانيلا مقابل الحصول على شعرك!"

تعاقبت عدة خبطات. لم ألحظ على الفور أن برترام هو الذى كان ينقر على الفوتيه.

"مثل كل يوم خميس خرجت دانيلا من شقتنا نحو السابعة والنصف مساء." واصل برترام، "كنت قد سمحت لابننا إريك – هو فى الثانية عشرة من عمره، وإن كان يبدو أكبر من ذلك – أن يتفرج على التليفزيون، أو يلعب على الكمبيوتر حتى التاسعة. استمتعت بالهدوء، وعملت هنا فى غرفة المعيشة – ربما أحكي لك عن ذلك فى مرة قادمة، لا أريد أن أضيع وقتك. إلى هنا وكل شىء تمام. عندما دقت التاسعة ناديت على إريك وقلت له إن عليه أن يودع صديقه ويذهب إلى السرير. وصاح إريك من غرفته: حاضر يا بابا، حاضر. واصلت العمل وسمعت بعد عشر دقائق باب الشقة ينغلق. أسعدنى أن إريك سمع الكلام من أول مرة. كنت بصدد وضع اللمسات الأخيرة على جزء شائك".

"لمسات أخيرة على ماذا؟"

"أنا أكتب"، رد برترام. "وعندما أكتب لا أطيق أقل إزعاج أو أخف الأصوات. وهنا – وأنت خير العارفين – يسمع المرء بكاء امرأة عبر ثلاثة طوابق، ومع ذلك كان لابد – راغبًا أو كارهًا – أن أنتظر حتى يجىء إريك ليتمنى لى ليلة طيبة. سمعت صوت السيفون، وكذلك تحركاته فى الحمام، وعندما خيم الهدوء على الشقة اعتقدت أن إريك ذهب إلى الفراش دون أن يأتى إلىّ. فى الفترة الأخيرة كان يقوم بأفعال غريبة من هذا القبيل – مراهقة. أخذت أفكر هل سأزعجه إذا ذهبت إليه لأقول له تصبح على خير؟ ثم قررت الذهاب إليه، وهناك ... فتحت الباب ..." وصمت برترام. عندما رفعت رأسى تلاقت نظراتنا. بقيت التجاعيد على جبهته رغم أنه كان يبدو منبسط الأسارير.

"تخيلي: ثلاثة فتيان كانوا يجلسون هناك." ندت عن يده اليمنى إشارة وكأنه ينتزع شيئًا من الهواء. "تخيلي ذلك. ثلاثة فتيان، كلهم في عمر إريك، ثلاثة عشر عامًا على الأكثر، أو أربعة عشر عامًا على أقصى تقدير. جلسوا هناك يتهامسون دون أن يلاحظوا وجودي. لم أعرف بالطبع حول أي شيء يتهامسون. كل ما أعرفه أن ثلاثة فتيان غرباء يجلسون في شقتي في التاسعة والنصف مساء. نهضوا وصافحوني الواحد بعد الآخر متمتمين بأسمائهم الأولى والعائلية، ثم جلسوا. سألتهم 'أين *إريك*؟'، ولأنهم *لم يجيبوا*، كررت *السؤال*، وفجأة لمحت أن *إريك* يرقد تحت غطاءه المفرود تمامًا، كأنه جثة – لايظهر منه سوى جزء من الشعر فقط. 'إريك'، ناديت عليه. 'إريك، ما معنى هذا؟' عندئذٍ وضع الفتيان الثلاثة إصبعًا فوق الشفاه محذرين، وقالوا بصوت كالفحيح: هس!"

راح برترام يمثل ذلك، ويكرر: "هس، هس." انهمكت في رسم حلقات مستطيلة على طول الصفحة، من اليسار *إلى اليمين*. احمرّ رأس برترام من الانفعال.

"'لا توقظه'، صاح أطولهم، 'لابد أن ينام'. رافعًا موسَى حلاقة سحب الغطاء حتى ظهر *رأس إريك*. '*أذن* صغيرة جميلة'، قال، ثم أضاف محركًا الموسى يمينًا ويسارًا حتى أراه جيدًا، وكأنه ساحر يظهر شيئًا أمام الجمهور: 'أنف صغير جميل'. صاح آخر: '*ليس أمامك أي فرصة*. لذلك دعك من الحماقات، وإلا سيفقد إريك الصغير ليس فقط أذنه.' سألتُهم: 'من أنتم؟' فأجابوا: 'لا تحمل همنا.' أمروني بأن أجلس، وقيدوني على كرسي مكتب إريك. لبرهة استيقظت داخلي الرغبة في

المقاومة: ستتمكن منهم، أنت أقوى من هؤلاء الأطفال، قلت لنفسى وهم يقيدوننى. إلا أنهم مسلحون بالأمواس، وإلى أن أصل إلى إريك سيكونون قد أصابوه بعاهة أو قتلوه. يبدو من تصرفاتهم أنهم لا يفعلون ذلك للمرة الأولى. تمرنوا على ذلك. إنهم محترفون".

ما زلت أرسم خطوطًا ثعبانية حول اسم برترام. لم يعد يتحدث. آخذُ قضمة من قطعة الجاتوه، ثم أضعُ الطبق مرة أخرى. برترام يرسل نظراته ناحيتى. "هذه القطرة يمكن أن تنقذ حوض أسماكك"، أقرأ فى إحدى الإعلانات فى الصحيفة الموضوعة أعلى الكومة، وتلقائيًا أحسب الثمن: عمودان، طول الواحد ٦٠ مليمترًا، زائد ٥٠٪ للنشر على الصفحة الأخيرة.

"يرن الجرس لحظة"، يقول برترام ويتنحنح. صرخت يأسًا، كمجنون صرخت طالبًا الغوث، إلى أن ضغط أحدهم براحة يده القذرة الرطبة على فمى، ثم دخل اثنان، كان كل همهما أن يبصقا علىّ. راح الخمسة يبصقون على، كل منهم ثلاث مرات على الأقل، ثم كمموني بمنشفة دانييلا. الحمد لله أننى تقريبًا لا أصاب بزكام. لم يهمهم إذا كنت أختنق أو أفطس، ثم سمعت صوت المفتاح فى باب الشقة، وفجأة خيّم عليهم الصمت التام. صاح أحدهم فى اتجاه الممر: 'مساء الخير، يا مدام برترام. إريك الصغير ليس على ما يرام، تفضلى، بسرعة، هيا ادخلى!' كدت أجن عندما فكرت فى الصدمة التى لابد ستصيب دانييلا، صدمة لن تتغلب عليها طول عمرها، إلا أننى مقيد، ولا أستطيع مساعدتها. لم أعد أستطيع أن أفعل أى شىء. أغلقوا الباب على الفور خلف دانييلا،

ثم قـال الولد الذى يجلس على سـرير إريك: "اخلعى مـعطفك يا مـدام برترام، الجو هنا حار"، وعلى الفور قهقه الخمسة".

صـوت برترام يغدو خافـتًـا ورتيبًـا. يتـحدث بلهوجـة وكـأن الوقت ينساب من بين يديه. الفتيان يفـتـحون البنطلونات، ويحـدث ما يجب أن يحـدث. لا يتـرك برترام أى تفـاصيل، وإن كان قـد نسى منذ وقت طويل الكمامة التى تسد فمه.

"حكايتك أصبحت غير منطقية"، قلت له وأنا أغلق جهاز التسجيل. وأضفت أننى أود أن أستفيد من الدقائق الخمس المتبقية لأحكى له قصة عشـتـها بنفسـى، لكنها – على عكس قصـتـه – حـقيقـيـة، حقيقـيـة بكل تفاصيلها.

أحكى له أننى فى الشـهر الماضى كنت من الحمق بحيث دخلت شقة رجل عجوز مجنون يسكن فوق صالة التحرير فى الجريدة. عندما وقفت فى شـقـتـه البـاردة – لأننـى كنت أعـتـقـد أن بإمكانـى أن أطرد الأوهام المعشـشة فى رأسه – قـادنى إلى غرفة النوم وزأر فى وجهى مُدعيًا أننى لصـة مـحـتـرفة، زعيـمة عصـابة لا تقف فى طريقـها ولا حـتى الأقفـال المصنوعـة فى الغرب. ادعى أننى سـرقت منه مـعـاش شـهـرين، وأيضًـا بنطلونه الجديد وصندله البنى. ليس هذا فـحسب، بل إننى ألقيت ببقـايا الشـمع فى عـدة حـلاقـتـه، وأخفـيت البلطة خلف دولاب الملابس. وإثبـاتًا لصحة كلامه يخرج البلطة من خلف الدولاب، ويأمرنى أن أتبعه، لأن هذا لم يكن كل شىء، لا. جر ساقيه مـارًّا بى، ثم أطفأ النور، وساد الظلام التام. لم يكن هنـاك ضوء فى أى غرفـة داخل البيت، ولا حـتى فى الممر.

أقف هناك متخشبةً أصغى إلى حفيف خطـواته. ضربة واحدة تكفى، وأنا ... ثم يُشعل ضوء أحد المصابيح. أدرك أخيراً أننى أقف فى غرفة نوم رجل عـجـوز مـخـبـول. وقف مـعطيًـا ظهره لى، واضـعًـا البلطة بين ركبتيه، ثم فتح أحد الأبواب، مغمغمًا بشىء عن اللصة المحترفة. حمدتُ الله على أن المفتاح كان فى الباب. أديره، لكن اللسان عصلج ... أشد الباب عنوة فينفتح، يتشبث العجوز بذراعى، ويصرخ، وتسقط البلطة على الأرض، الباب الآن مفتوح وعلى أعتابه تقف السيدة شولتس، شولتس البدينة، فتدفعه إلى الخلف. تدفعه بكلا كفيها إلى الخلف.

"هذه قصة جيدة بالفعل"، أقول له وأغلق سوستة شنطة يدى. "ومقارنة مع قصتك فهى قصة بارعة!"

بضجر ينظر برترام أمامه. أقول له إننى غارقة حتى أنفى فى مثل هذا الهراء الذى حكاه لى لتوه، وأضع يدى أمام أنفى. "حتى أنفى!"، أصرخ فى وجهه وأضيف أننى لا أفهم أبداً لماذا أسمع كل يوم هذا الرغى الذى يحكيه لى أناس غرباء. تدهشنى هذه الحقيقة وأجد نفسى مرغمة على الضحك.

"بطريقتك هذه لن تتقدمى كثيراً"، قال برترام الذى شرع وهو جالس يجمع الأطباق. تناول طبقى وعليه قطعة الجاتوه "لدغة النحل"، والقطعة الأخرى المقضومة، ثم أمسك فنجانى نصف الملىء، ووضع كل شىء على طبقه، ونفخ فى الشمعة حتى انطفأت.

أقول له إنه ربما على صواب، وأحملق فى تموجات كسوة الخشب التى أراها الآن أمامى بدلاً من الطبق والفنجان، وها هى ثانية –

عين التمساح التى ترمقنى من وراء جفون ثقيلة، عيون تتراءى لى من الموائد وورق الحائط والدواليب والألواح الخشبية فى الممرات، تتراءى لى من كل مكان - العالم ملىء بعيون التماسيح.

أنصح برترام - عندما تختمر مثل هذه الحكايات فى رأسه - أن يشترى مسدسًا بغاز مهيج، أو سبراى يمكن وضعه فى حقيبة اليد، أو أن يلجأ لعاهرة، أو ينشر إعلانًا يبحث فيه عن امرأة. أثناء التحدث أركز نظراتى على تجعيدة جبينه التى خلِتُها لوهلة ندبة. وأنا أوزع نصائحى فكرت فى العيون والأميبيا والتماسيح التى أراها حولى فى كل مكان، وأحدس أن هذه هى البداية فقط، التى ستتبعها أشياء أخرى ستطاردنى أيضًا، وأننى فى القريب العاجل لن تخطر على بالى فكرة واحدة دون أن أجدها مسمومة، أو تذكرنى بشىء وضيع، أو تثير قرفى.

أغلقَ برترام الباب خلفى. أتحسس مفتاح النور فى الممر، ثم أسمع التكة وبعدها يضىء النور فى طابق برترام.

إطارات الرينو على ما يرام، ولكن شخصًا ركن سيارة أوبل ملاصقة لسيارتى، حتى إننى وجدت نفسى مرغمة على الصعود إلى السيارة من الباب الأيمن.

ما زال لدى وقت حتى السابعة. كانت المحلات التجارية قد أغلقت أبوابها. لا أعرف ماذا أفعل كل هذا الوقت. فى البداية عقدت عزمى على قيادة السيارة إلى الخلف، ثم الاستدارة، حتى أخرج سالمة من بين السيارات المتلاصقة على كلا الجانبين بجوار حاويات القمامة.

يخطر على بالى كم سيثير اختفاء سيارتى فرحة، العثور الآن على ثغرة لركن السيارة، وربما أمام باب البيت! أرى نفسى فى المرآة أضحك. أفكر أنه ليس جيداً أن يعيش الإنسان بمفرده. ليس فقط لأن كل شيء يمسى أكثر صعوبة، إنه أيضًا أمر شاذ، ومع ذلك لن أخرج مع باير، ولا حتى لشرب كأس من البيرة. سأقول له ذلك بعد قليل. دائمًا أجد حجة مناسبة.

الفصل الرابع

هلع

مارتين مويرر يحكى عن حياته المهنية، وعن رحلة بلا سيارة. زوجته تتنقل بالدراجة. ما عايشه مع سائحة وسائق تاكسى فى هالبرشتات.

عندما لم يجددوا لى عقدى كأستاذ مساعد فى جامعة لايبتسج، غدوت بين عشية وضحاها بلا دخل. كانت أندريا قد التحقت بدورة إعادة تأهيل مهنى تعلمت فيها مبادئ المحاسبة، كما أخذت قبل الظهر – أثناء وجود تينو فى الحضانة – دروساً فى الفرنسية والآلة الكاتبة. قدمنا طلباً للحصول على معونة سكن، وعقدنا العزم على الإقلال من التدخين، وألغينا الدورة التدريبية التى كانت أندريا تريد أن تشارك بها فى مدرسة تعليم قيادة السيارات. استغنيت عن غرفتى فى لايبتسج، وقدمت طلباً للحصول على منحة دراسية، أو للحصول على عمل كمرشد سياحى، أو فى أحد المشاريع، أو فى شركة إعلانات، وأخيراً فى شركة VTLT المساهمة التى تعمل فى مجال الحفاظ على الأحجار الطبيعية والتى كان

بها وظيفة شاغرة كمندوب مبيعات براتب شهرى مضمون يبلغ ١٨٠٠ بعد خصم كل المستقطعات.

قبل أن أستقر فى المقعد قالوا لى إنهم يبحثون عن كيميائى أو جيولوجى أو فيزيائى أو ما أشبه، لكنهم لا يحتاجون بأى حال من الأحوال إلى مؤرخ فى الفن. رجعت إلى الوراء على الكرسى الحديدى حتى لامست مسند الظهر، وشرعت أتحدث عن عمارة العصور الوسطى وعوامل التعرية وترميم المدن. قلت هذا دون أن أحول بصرى عن عينى ذلك الرجل، هارتمان، الشبيهتين بعينى البوم؛ وهو أمر لم أنجح فيه إلا عندما كنت أتحدث دون أن أُمعن فى التفكير.

بعد أسبوع جاءتنى فى مظروفين منفصلين دعوة لحضور دورة دراسية تستغرق عشرة أيام، مع الموافقة على العمل لديهم لمدة نصف عام على سبيل التدريب، لكننى لن أقضى فترة التدريب فى ولاية ساكسونيا أو تورينجن، بل فى ولايتى ساكسونيا - أنهالت وبراندنبورج حيث يتركز نشاط الشركة.

سارت الأمور سيراً لا هو بالحسن ولا هو بالسيئ. بعد ثلاثة أشهر لم أحقق الحد الأدنى المطلوب منى فى الشركة. كنا نتدبر أمورنا بالكاد. والدا أندريا كانا يرسلان بين الحين والآخر مائتى مارك لمصاريف تينو. ووالدتى أهدتنا حاجات أطفال، وعندما كان إرنست - حمى - يأتى إلينا ليهتم بالطفل فى غيابنا، كان يذهب معه للتسوق ويتكفل بثمن كل شىء. كما كانت لدينا دانّى، أخت أندريا.

قبل أن نبدأ الحملة التسويقية الكبيرة لـ "أونيل ٢٩٠" طلبت السماح لي بأسبوع إجازة فى يونيو. سافرنا بسيارتنا الأوبل كاديت إلى آلبيك على بحر البلطيق. عندما أتذكر اليوم هذه الرحلة أعتقد أن تلك الأيام كانت آخر أيامي السعيدة. كنا نبحث عن المحار وأحجار الكهرمان، ونبنى القلاع الرملية، نطفو ثلاثتنا فوق المرتبة الهوائية على سطح المياه ونجدف بالأيدى والأقدام حتى نصل إلى العوامة. ولأندريا اشتريت بسعر مخفض مركبًا داخل زجاجة. فى المساء، بعد أن ينام تينو، كنا نذهب إلى بار الفندق، ونحتسى كأسًا، ندخن أو نرقص عندما يعزفون موسيقى ذات إيقاع بطيء.

فى نهاية الأسبوع ابتلعت ماكينة البنك الشخصى بطاقة الائتمان الخاصة بى. فى اليوم نفسه سافرنا عائدين. سألتنى أندريا: هل نحتفظ باشتراكنا الشهرى فى أوراق اليانصيب؟

يوم الأربعاء التالى، وبعد أن عدت لتناول العشاء، نادتنى أندريا إلى غرفة النوم، وهناك سلمتنى رسالة مطوية. ابتسمتُ معتقداً أنها حصلت على موعد لمقابلة شخصية.

علىّ أن أدفع ٤٣٣,٥٠ ماركًا غرامة، وأن أرسل رخصة القيادة بالبريد المسجل إلى مركز الغرامات الذى سيحتفظ بها لمدة شهر، وذلك لأننى قدت السيارة بسرعة ١٤٦ كم فى الساعة بدلاً من ٨٠ ، بالإضافة إلى ذلك فقد حصلت على أربع نقاط، وفقًا للنظام المطبق على أصحاب السوابق. لاحظتُ أن أندريا همت بالبكاء وهى تبتسم، ثم ألقت بنفسها على الفراش وضغطت بيدها اليسرى على المخدة التى وضعتها أمام

وجهها. جذبت ركبتها، وظللت أحملق طوال الوقت فى نعل حذائها المنزلى النظيف، بلا شائبة واحدة. فى ذلك المساء أحسسنا لأول مرة بالهلع.

فى الصباح كنا قد تجاوزنا أسوأ الأمور. أرسلت رخصة السواقة، وخططت أن أسافر بالقطار لإنجاز مقابلاتى التالية. لا أعرف السبب، ولكن هذا القرار جعل مزاجى معتدلاً. فى أسوأ الأحوال سيتوجب علينا الاقتراض من دانى أو من والدينا. لن تلحظ الشركة من الأمر شيئًا، وبذلك أحصل على الوظيفة. "أنت قدها وقدود"، قالت لى أندريا.

أعددت لى الحقائب، فوضعت فى أسفل الشنطتين الكتالوجات مع مشروع قلعة آبنبرغ فى فرانكيا الوسطى، التى سنثبت فيها الحجر الرملى بمادة OH ومادة UNIL 290، ثم غلفت عينة الزجاجات (٢٠٠ مليمتر) أولاً فى ورق جرائد، ثم بين ملابسى الداخلية وجواربى وقمصانى. كانت قد خيطت قطعة جلد كبطانة على حزام الشنطة الذى يعلق على الكتف.

قضيت اليوم فى مصلحة العناية بالآثار فى ولاية ماجدبورج، ثم زرت شركتى ماكيولان وشوستر دون أن أتمكن من الاتصال بالمدير هناك أو مساعديه، فتركت كتالوجاتنا، واتفقت على عرض منتجاتنا عندهم بعد ظهر الخميس وصباح الجمعة لمدة نصف ساعة فى كل مرة. فى المساء سافرت إلى هالبرشتات حيث كان لدى فى اليوم التالى خمسة مواعيد.

عند وصولى كان ضوء المساء ما زال يقاوم الليل، حتى أننى تعرفت من نافذة القطار على أبراج الكاتدرائية وكنيسة القديس مارتين والسيدة العذراء.

كانت كشافات سيارات الأجرة مضاءة. سرت فى ساحة المحطة متجهًا ناحية كابينتى تليفون، ووضعت شنطتى بجانب الكابينة اليمنى ذات التليفون الذى يعمل بالكارت. وسماعة التليفون فى يدى دفعت بخصرى باب الكابينة وقربت أمتعتى من الكابينة. رأيت رصيدى على شاشة التليفون ٤٥, ٣ .

عندما قالت أندريا "آلو؟" تحول رقم ٤٥ بعد الفاصلة إلى ٢٦ . أندريا تساءلت ثانية "آلو؟"

حكيتُ لها أن الدكتور زيدليوس، الجيولوجى فى مصلحة العناية بالآثار، استمع إلى كل ما قلته، وفى النهاية صافحنى متمنيًا لى حظًا طيبًا.

انطلق تاكسى وراء الآخر، وعندما لم تبقَ سيارة أجرة واحدة قلت لها إن جميع السيارات قد ذهبت.

"بالتأكيد سيأتى تاكسى قريبًا"، أجابت، ثم حكت لى أن أمام مدخل منزلنا مباشرة – نحن نسكن فى شارع بروكهاوس عند جبل ليرشن– قد وقعت حادثة، لكنها لن تجعلها تحيد عن قرارها بالذهاب بالدراجة إلى صالة التسوق "تيب" فى شارع شتاينفيج. ما زالت تستخدم كلمة "صالة تسوق". كلهم يقولون الآن "سوبر ماركت." قالت

أندريا إنها لم تعد تواجه صعوبة فى قيادة الدراجة، وإنها تنوى من الآن التنقل بها دومًا. هذا هو أيضًا أفضل تدريب على الأسبوع القادم، حيث تنوى القيام بنزهة بالدراجة مع تينو ودانى التى اشترت لنفسها خصيصًا دراجة مزودة بمقعد للأطفال. هذا ما قرروه بعد ظهر اليوم.

الرقم على شاشة التليفون يتناقص من ٢,٨٨ إلى ٢,٥٠ ، ثم إلى ٢,٥٠ . جاءت سيارة أجرة ووقفت، ثم انطفأت أنوار كشافاتها. صالة التسوق تعرض حاملاً عريضًا للدراجة، قالت أندريا، وعليه دعاية، عليّ أن أخمن لأى شىء. لم تنتظر ردى وانفجرت قائلة: "برنس دنمارك - سجائرى المفضلة."

قلت لها: "قبل أسبوع لم تكونى تجرئين على التفكير فى ذلك".

"نعم! ولكن إذا كانوا يبنون فى كل مكان طرقًا للدراجات"، أجابتنى أندريا، ثم نطقت بضع كلمات فرنسية لم أفهمها. ضحكت وقلت لها: "تمنَّى لى حظًّا طيبًا للغد، حتى أتخلص من البضاعة."

"لا تقل دائمًا "بضاعة" يا مارتين. إن عملك مهم جدًّا!" صاحت فى السماعة. "كل تاريخ الفن سيصبح عديم الجدوى إذا بدأت أحجار كل هذه المبانى الجميلة تتفتت. كل هذه القذارة فى الهواء يا مارتين، إنها تفتت كل شىء!" جاء تاكسى آخر، وفى هذه المرة قلت لها ذلك.

"هيا، ضع السماعة بسرعة!"

"على مهلك"، أجبتها مذعوراً، ثم استدرت إلى الجانب. ما زالت الحقائب هناك فى مكانها. "أحبك"، ثم أضفت أننى لا أقول ذلك لأننى هنا بمفردى بدون سيارة. "جميل"، ردت أندريا.

فكرتُ أولاً أننى سأُنهى المكالمة عند ١,١٧ ، لكن المبلغ سرعان ما أصبح ٠,٩٨ ، ثم ٠,٧٩ ، وبعد أن قالت "مع السلامة" تناقص إلى ٦٠ فنكًا. صحتُ: "حبيبتى"، لكنها كانت قد وضعت السماعة. علقت سماعتى وسحبت كارت التليفون. ثلاث سيارات أجرة تقف الآن هناك. سائق السيارة الأولى يتكئ على الباب المفتوح بذراعين مشبوكين. أمامه وقفت امرأة ترتدى أفرول أحمر بأكمام قصيرة. هز رأسه نافيًا بينما كانت هى ترفع ورقة. استدارت ناحيتى : يابانية بعيون واسعة ووجه أبيض وشعر متموج. التفتت مرة أخرى نحو السائق، لكننى سألتها : What do you want? أعطتنى الورقة: To Magdeburg . بينما كنت أضع حقيبة على قدمى، وأسلم الأخرى للسائق، أعطتنى ورقة ثانية: "To Frankfurt" . لا تضعها فى شنطة السيارة!"، صحت ورفعت الحقيبة الثانية، ووضعتها على المقعد الخلفى. لم أحتفظ إلا بشنطة الملفات، ثم عُدت مع اليابانية – التى كانت طويلة نسبيًا مقارنةً بالآسيويات – عبر الباب المتأرجح إلى المحطة.

لم يعد هناك قطار إلى ماجدبورج، ولا إلى فرانكفورت، فقط إلى جوتنجن، بعد عشر دقائق. قلت لها إن المسافة من جوتنجن إلى فرانكفورت ليست بعيدة. أومأت برأسها، لكن الخوف ظل يطل من عينيها، كما ظلت تقطب جبينها. لم أتذكر كلمة "رصيف" بالإنجليزية. عندما قلت From number three ، توقفت عن الإيماء. لذلك سرت معها إلى النفق، وأشرت إلى السلم الثانى، وقلت مكرراً: number three . إلا أننى رأيت على إحدى اللافتات رقم "٤" ، وعلى الأخرى "٥" ،

وفى الرصيف الآخر "١" و "٢". فرافقتها إلى الرصيف حيث كانت قاطرة ديزل ووراءها عربتان تدخلان المحطة. على الرصيف كان جدول السفر معلقًا، ولكن لم تكن هناك قطارات إلى جوتنجن، ولا إلى ماجدبورج. سألتنى اليابانية: ماذا نفعل إذن؟ ونظرت إلىّ نظرة قانطة وألصقت شنطة يدها بجسدها. عدوت خلف المُحصِّلة التى هبطت من القطار الواصل لتوه. وضَعَت الملف الأسود الذى كانت تمسك به على إحدى الدكك، ثم راحت تقلب فيه. فى البداية سمعت دقات كعب اليابانية، ثم شعرت براحتها على ذراعى. عبر أزرار الأفرول سددت بصرى على جدول السفر المطبوع بخط صغير. انهمكت المحصلة فى تقليب صفحاته إلى الأمام وإلى الخلف. أخذت تهز رأسها. ارتفع نهدا اليابانية وانخفضا، كما برزت بطنها واضحة خلف القماش. إذا كان سائق التاكسى قد شغَّل العداد، فالغبى هو أنا.

"تسافر معى"، قالت المحصلة، "الساعة ١٠ و ١٧ دقيقة إلى أوشرزليبن، ومن هناك تأخذ سيارة أجرة بستين ماركًا، وفى الحادية عشرة والنصف تكون فى ماجدبورج." ترجمتُ.

And to Frankfurt?

أغمضت المحصلة عينيها لحظات، ثم أغلقت الملف الأسود، ورجعت إلى العربة، ووضعت إحدى قدميها على أول درجة من السلم الحديدى الشبكى.

"والآن؟" كان بنطلونها مشدوداً على فخذها المدملج. سألت اليابانية هل تسافر معها. مقابل ستين ماركًا قد تجد هنا أيضًا غرفة فى أحد الفنادق.

تومئ موافقـة. أشكـر المحصلة التى تمسـك بالمقبض بجـانب الباب، ثم ترفع قـدمها اليسرى وتصعـد بجذع منحنٍ. بدت أردافها أكبر فى بنطلون الزى الرسمى.

مشيت وراء اليابانية إلى دَرَج النفق، وسألتها من أين هى.

From Korea

"جوسـلار"، نطقـت بدون وعى عندمـا مـررنا بجـدول السـفر فى ساحة محطة هالبرشتات The Timetable of Goslar! .

ردت: Thank you very much .

قلتُ مـحـاولاً البدء فى حـوار مـعها: wonderful أنها تسـافر هكذا بمفـردها. أومـأت. حكيت لهـا أننى مـؤرخ فن، وأننى أكـتب رسـالة الدكتوراة عن التماثيل غير المألوفة لآدم وحواء فى كاتدرائية هالبرشتات. أسألها إذا كانت سمعت يوماً عن دريسدن.

Of course, Dresden

شفـتاها المدهونتان بـالأحمر بقيتـا مفـتوحـتين قليـلاً. نظرت إلىّ وأومأت، فأمسكت لها ضلفة الباب المتأرجحة.

عندمـا سألت سائق التاكسـى: "هل تريد أن توصل المدام إلى الفندق، أم تأخـذنى إلى بنسـيـون شنـايدر؟"، رفـع أنفـه إلى أعلى، وجلس خلف عجلة القـيادة. يقع البنسيون فى الناحيـة الأخرى من المدينة، خـارجـها قليلاً، أما الفندق فيبعد بضع مئات من الأمتار فى قلب المدينة. ذهبت مع اليابانية إلى التـاكسـى التالى. السائق - صـغير السن نسـبيًّا، قد لوّحته الشمس، يرتدى شـورتًا - ظل واقـفًا شـابكًا ذراعيه خلف البـاب، مثلما

فعل زميله من قبل. لم يقل إلا أن غرف الفنادق شحيحة وسيئة، وأقل من ١٠٠ مارك لن يجد المرء شيئًا، ولكن بمئة مارك يصل المرء بعيداً، مثلاً إلى ماجدبورج. ترجمتُ. يصيح سائق التاكسى الآخر أن وقته ليس هدية مجانية.

تقول اليابانية: To Magdeburg

عندئذٍ يختفي السائق داخل السيارة، ومن الداخل يفتح الباب الآخر. استدارت اليابانية مرة أخرى وقالت Thank you very much ، ثم ركبت السيارة.

صرخ سائقى: "إلى ماجدبورج!" كان قد قفز خارج سيارته. "إلى ماجدبورج!" تناثر رذاذ لعابه وكأنه ممثل. "لابد أننى أحلم!" ومن جديد بدأ الرذاذ يتساقط تحت ضوء مصباح الطريق.

فتحتُ الباب الخلفى للتاكسى لامساً كرش السائق، وحشرت نفسى بجانب حقائبى بعد أن وضعت شنطة الملفات على حِجرى. انغلق البابان فى اللحظة نفسها.

"يومين"، زأر فى اتجاه الزجاج الأمامى. ارتد الصوت إلىّ. شغل السيارة، وقبض على الفرو الذى يغطى عجلة القيادة. "هو ١٠٠، وأنا ١٥" !

أردت أن أعتذر، لكننى لم أقوَ حتى على فتح فمى؛ إذ فجأة دوّى صوت الراديو. اهتزت المروحة الصغيرة فى مقدمة السيارة، وفى اللحظة التالية لاحظت أننا لا نسلك الطريق إلى بنسيون شنايدر، فقد كنت على معرفة جيدة بالشوارع.

زادت سرعة السيارة. الإطارات تصدر ضجيجًا لمرورها فوق الشارع المكسو بالأحجار. فجأة انحرفَ بالسيارة إلى اليمين، فاصطدمت رأسي بالشباك. لم يعد هناك مصابيح تضيء الشوارع. انزلقت في كرسيَّ أكثر، وانفرجت ساقاي. ضغطتُ بركبتي على ظهر كرسيه. بعد ذلك سلكت السيارة طريقًا صاعدًا، ثم مرة أخرى طريقًا بين الحقول.

خطر على بالي أنه كان عليَّ أن أرسل اليابانية إلى جوسلار أو براونشفايج. كان ذلك سيكون أرخص من الرحلة إلى ماجدبورج، ومن هناك كانت ستجد توصيلة أفضل. كان من الممكن أيضًا الاتصال بالبنسيون والسؤال إذا كان لديهم غرفة مناسبة السعر لفتاة يابانية. عمومًا: كنت غبيًّا. ضيّعت على السائق مكسب يومين، ولم أعترض عند الشرطة، بل حتى لم أحاول وسلمت ببساطة رخصة القيادة. وها أنذا أجرُّ حقائب السفر من مدينة إلى أخرى في طول البلاد وعرضها، وأبيع مياهًا سحرية، بينما تتمرن زوجتي على قيادة الدراجة حتى تستطيع التسوق، وتستعير من المكتبة العامة كتبًا لتعليم الفرنسية عفا عليها الزمن، وبالنقود التي منحها والدها لطفلنا تينو ندفع ثمن اشتراكنا الشهري في أوراق اليانصيب. مع أنني على استعداد لخيانة أندريا في كل وقت مع يابانية. مَن يعرف ما الذي سأرتكبه خلال الساعات والأيام والسنين القادمة.

أظن أنني أعرف ماذا ينوي السائق، لكني لم أرد الدفاع عن نفسي. إنه على حق! إنه على حق ألف مرة إذا ألقى بي والزجاجات في

الحفرة التالية. فجأة توقفنا. قرأت في ضوء الكشافات: "بنسيون شنايدر". خرست الموسيقى، وفوق رأسى أضاء مصباح.

قال: "٢٠, ١٢". قلت له: "تفضل ١٣".

قرب من الضوء محفظة النقود المستطيلة التى يستخدمها الجرسونات، حيث توضع الأوراق المالية دون أن تُثنى. أمسك باليمنى ورقة المائة التى أعطيتها له.

"هل مصابيح الشارع خربة"، سألته. الظلام دامس فى الخارج. ناولنى فى الخلف عدة أوراق نقدية، ثم أحصى فى كفى سبع قطع نقدية. "شكراً"، قلت له، ودسست كل شىء فى جيب الصدر. راح يراقبنى فى المرآة العاكسة. أشرت إلى الصورة الملونة المعلقة أمام المروحة: "هل هذه زوجتك التى ترتدى البكينى؟" كان الإطار الخشبى مصنوعًا بمنشار اليد الصغير.

"اسمع: أنت دفعت. تفضل الآن وانزل." أخرجت الشنطتين، وبركبتى أغلقت باب السيارة. سرت ببطء أمام السيارة فى اتجاه البناية، ثم انتحيت جانبًا – فبسبب ظلى لم أرَ الجرس – ووضعت الشنط بحرص. انزلق ضوء الكشافات على باب المنزل، وتوقف على العتبة، ثم استدار منيرًا عمق الشارع. لوهلة سمعت صوت الراديو مرة أخرى.

تحسست أصابعى الجرس، وتعثرتُ أثناء ذلك فى الشنط. انبعثت ضوضاء فظيعة، إلا أننى لم أقع. استقام عودى، بهدوء، وبقى جذعى منحنيًا قليلاً إلى الأمام. سمعت حفيفًا بجانبى يتكرر على فترات قصيرة منتظمة.

ربما فــأر، أو طائر. ابتلع الظلام بنســيـون شنايدر. لم أرَ له حـدوداً خارجية، ولا حتى إذا نظر المرء تجاه السماء. كلما تحركت اصطَدَمت زجاجات الأونيل ٢٩٠ بعضها ببعض. كان يكفي أن يلامس إصبع قدمي الأرض، أو أن أرفع كـعبي قليـلاً عن الأرض، كـان يكفي أن أنقل مـركـز ثقلي من قدم إلى أخرى، أو أن أثني ركبة، حتى أسمع قعقعة الزجاجات مرة أخرى.

الفصل الخامس

الطير المهاجر

ليديا تحكى عن الدكتـورة باربارا هولتشيـك التى تدّعى أنها دهسـت غُريرًا. حديث مطـول عن الحيـوانات. مكان الحادث. نهاية غامضة بدون غُرير.

اليوم هو الاثنين، فى الأصل عطلة أسبوعية. فى العاشرة والنصف ينبغى على أقوم بإرشاد فصل مدرسى من الفرقة السابعة فى صالات المتحف. تلاميذ المدارس هم أسوأ الزوار. أنا متعبة. تدخل هَنّى، رئيستى فى العمل، ولا تغلق الباب. تقول: "الدكتورة هولتشيك دهست بسيارتها غُرَيراً"(*).

(*) الغُرَير حسب المعجم الوسيط هو حيوان من آكلات اللحوم ، هيئته بين الكلب والسنور ، أسود القوائم قصيرها ، أبيض الوجه ، وعلى جانبى وجهه جُدَّتان سوداوان . (المترجم)

تظهر امرأة قصيرة في مطلع الثلاثينات، ذات شعر طويل، ترتدي جيبة زرقاء غامقة وبلوفراً رمادياً برقبة. تظل واقفة في إطار الباب ناقرةً عليه بأحد أصابعها.

"هولتشيك"، قالت معرفةً بنفسها دون أن تنظر إليّ. "دهست غريراً بسيارتي".

قالت هَنّي مشيرة إلي: "ليديا شوماخر. أخصائية التحنيط عندنا."
رَدت: "أهلاً." أنهضُ. يداها باردتان. "هل أحضرته معك؟"

الدكتورة هولتشيك تهز رأسه نفياً، ثم تنتشل منديلاً ورقيًّا من علبته، وتتمخط بعد أن تستدير جانباً.

"كلا، ليس معي".

"حيوان كبير؟"

"نعم"، تجيب وهي تومئ برأسها. "فاحت رائحة نفاذة، رائحة حيوان متوحش. حوافره الأمامية كانت هكذا." وضغطت بظهر يديها على وجنتيها، بينما راحت أصابعها تتحرك، وكأنها تزيح شيئاً إلى الجانب.

أتساءل: "وهذا غُرَير؟" زاغ بصر هَنّي التي كانت تجلس على مكتبي نصف جلسة، وبأصبع مقوس راحت تمسح على رأس الدُخَّل(*) .

قالت الدكتورة هولتشيك: "كان يرتجف".

(*) طائر مغرد يسقط على رءوس الشجر والنخل فيدخل بينها [المعجم الوسيط] . (المترجم)

صاحت هَنّى: "نحن بحاجة إلى غرير، أليس كذلك؟"

"طبعاً"، أجيب. "نحتاج إلى غرير".

"وأمام مدينة بورنا يرقد واحد. الدكتورة هولتشيك فى عجلة من أمرها. ربما تذهبين وتتفرجين عليه، ثم تأخذينه إذا كان على ما يرام؟"

"والجولة مع التلاميذ؟"

"لن تبقى خيارات كثيرة"، قالت هَنّى موجهة إلى مرة أخرى نظرتها المحملة بالمعانى، ثم واصلت مداعبة طائرى المغرد. تتمخط الدكتورة هولتشيك ثانية، وتحاول أن تبتسم. ثم تقول: "عندئذٍ لن يكون ما حدث كله بدون فائدة"، وتلقى بشعرها خلف أكتافها.

فى سيارتها – جولف زرقاء غامقة بثلاثة أبواب – تصطدم إحدى ركبتى بدُرج السيارة الأمامى. استندت على الدرج أبحث عن الذراع تحت المقعد، فلمست كاحلى. "ادفعى"، قالت آمرة. على المرآة العاكسة عُلقت شجيرة ورقية مُعطِّرة حمراء اللون. أدارت مفتاح التشغيل بصعوبة ما.

"هَنّى حكت لى عن الغرير الأخير. كيف يمكن لإنسان أن ينتزع ببساطة فيشة الثلاجة! مَن يفعل شيئًا كهذا؟ لا يمكن أن يكون هناك إنسان بمثل هذا القدر من الغباء!"

"ربما احتاجوا البريزة لتشغيل المكنسة."

"وكيف كان منظر الغرير؟" وكيف أخرجتموه؟"

"أنا وصلّت الثلاجة مرة أخرى بالكهرباء، وهويّت الغرفة، ثم فتحتها بعد أسبوع. كنت أنتظر أسوأ مما حدث".

"لو كان جرى لى أنا ذلك"!

ننعطف إلى الشارع، ونتحدث عن الذين يعملون فى شركات التنظيف والحراسة. تبدو سيارتها جديدة، لا أوساخ ولا تراب فى أى مكان. أسألها فى أى تخصص حصلت على الدكتوراة.

"أنا أعمل فى دوزن. كنت فى طريقى إلى هناك – حيث ظهر لى ..."

لا أفهم ماذا تقصد.

"المصحة النفسية هناك"، تقول لى. "أنا فى الأصل طبيبة أعصاب. لستِ من هنا؟"

أحكى لها أننى انتقلت للعيش فى ألتنبورج منذ عامين فقط. بعد وفاة دكتور جورنه أصبحت وظيفة "المُحنِّط" شاغرة، كنت أريد وظيفة ثابتة، سيان أين.

"هناك ناس لا يستطيعون الحياة إلا فى المدن، وهناك ناس كعصافير الأرياف، كما أن هناك من يفضل المدن الصغيرة."

"أعتقد أننى من ناس المدن." ثم أضفت: "أو من عصافير الأرياف".

عند إشارة المرور أمام مصنع ورق اللعب توقف الدكتورة هولتشيك السيارة بفرملة مفاجئة. بعدها طرنا فى شارع لايبتسج. "هل كنت دائماً تعملين فى هذا المجال؟ أنا أيضاً كنت أريد أن أعمل مع الحيوانات".

"وبعدين؟"

"والداى كان لديهما سيارة سكودا. المقاعد كانت مغطاة بفراء بيج، من الألياف الصناعية طبعًا. مرة وقع صندوق الإسعاف عليه، وعبر زجاج السيارة كانت أشعة الشمس الحارقة تلهب سطح الفراء. أصبح البلاستيك لينًا، وعندما ركبنا انتزعت أمى الصندوق من على المقعد الخلفى. عندما أريد أن يقشعر بدنى، لا أحتاج سوى تذكر ذلك المنظر، ذلك الشىء المنبعج الذى التصقت به أجزاء من الفراء المتهرئ. كنت فى الرابعة عشرة، ولم أستطع أن أتمالك أعصابى أو أن أستعيد هدوئى. أمى اعتقدت أننى أمثل هذا الفيلم فقط حتى يُسمح لى بالجلوس فى الأمام بجانب أبى. قالت لى: لا تقولى بعد ذلك أبدًا إنك تريدين أن تعملى فى شىء له علاقة بالحيوانات".

أثناء التحدث كانت تنظر جانبًا، إلىّ، بدلاً من النظر إلى الأمام.

قلت: "لا أفهم".

"من يشمئز سريعًا هكذا ... كما أننى أخاف من الكلاب. الطيور أحبها. كريمسون روزيلا أو كوكابورا أو الورين. هل تعرفينها؟"

"كلها أسترالية".

تومئ برأسها. "هل لديك حيوانات منزلية؟"

"كلا". أحكى لها عن أمى التى تتورط دائمًا فى قبول قطط لديها تموت بعد عامين على أكثر تقدير. "إما سم فئران، أو فشل كلوى، أو يُدهسون بالسيارات. عندئذٍ تتصل بى يوميًا ولمدة أسبوع، وتعدنى أنها

ستظل قاسية هذه المرة بالفعل، ولن تستضيف قططًا مرة أخرى. وعندما تقول لى إن أحداً لم يسأل القطط إذا كانت تريد المجىء إلى هذا العالم، أعرف أن أى كلام أقوله لن يأتى بنتيجة".

"جارنا عثر مرة على نورس كسير الجناح، فأحضره إلى الطبيب البيطرى"، تقول الدكتورة هولتشيك. "الدكتور أجرى عل الفور عملية بتر، دون أن يسأل. ماذا يفعل طائر بجناح واحد؟ حديقة الحيوانات فى الجزيرة لا تقبل حيوانات مشوهة. والآن ينط النورس فى حديقة بيته، ويحفر فى الطين، ويلتهم كل شىء – كالخنزير. عندما يفرد جناحه، وفى الناحية الأخرى لا شىء – فى كل مرة أعتقد أنه سيقع. يلتهم كل شىء! الأبراص العملاقة لا تلتهم كل شىء فحسب، إنها تهضم أيضًا كل شىء، حتى حوافر الحيوانات. فقط الكلس يبقى، لا شىء إلا الكلس الخالص. شىء يجنن! ليست لديكم أبراص عملاقة"؟

"كلا".

"على المرء ألا يحبس الحيوانات. إذا كانت الدلافين تبدأ فى العض ... كله بسبب الضغط العصبى. إنها مثل البشر، الحيوانات، أعنى لابد من معاملتها كالبشر. الحيوانات تُصاب أيضًا بخيبة الأمل. فيما بينها تسلك هى أيضا سلوكًا أنانيًّا ولامباليًا بالآخرين. هل قرأتِ عن قرود المعبد؟ ماذا يحدث هناك؟ الإناث يلدن مبكراً لأن الباشا، رأس القطيع، يعض القرود الوليدة حتى الموت، إذا لم تكن من صلبه. يريد أن يفرض جيناته. هذا هو كل شىء. أنانية".

سألتها: "هل يدهشك هذا"؟

"على الأقل كتبت مجلة "دير شبيجل" عن ذلك".

ارتعشت يداها على الفتيس. كنا ننتظر عند إشارة ضوئية تنظم مرور السيارات فى منطقة إصلاحات أمام مدينة تريبن. الرياح تصفر. الضوء كأننا قبل الغروب. الدكتورة هولتشيك تعطس. "معذرة"، تقول وتواصل العطس. يعلق على الزجاج الأمامى بعض الرذاذ، أو أن الرذاذ من الخارج، من ضربات الحصى، أو من الحشرات. تتحسس بأصابعها باحثةً عن شنطة يدها على المقعد الخلفى. السيارة أمامنا تنطلق. تحتاج منديلاً.

"هذا الطائر الصغير على المائدة فى مكتبك، أى طائر هو؟"

"دُخَّل"، أقول لها ناظرةً إلى ساعتى. الآن يتزاحم التلاميذ لدخول المتحف.

"دُخَّل؟" كانت د. هولتشيك قد أسرعت جدًّا، والآن تفرمل. "هل هذا هو الطائر الذى يلتهم أمعاءه أثناء الطيران؟ معجزة غير مرئية. إنه يفترس ما يعادل ٨٠٪ من وزن جسمه، ثم يفقد كل ذلك فيما بعد. دُخَّل، أعتقد أن هذا هو اسمه." سيارتنا هى الأولى فى طابور طويل يقف خلف شاحنة لنقل الماشية. "ما أود معرفته، ماذا تعنى : أنظمة استشعار متداخلة؟ كيف تهتدى الطيور إلى شجيرة المرة السابقة؟ سنونو السواحل يقطع سنويًّا أربعة آلاف كيلو مترًا، أما طائر "صفارة المطر الذهبى" فيحتاج إلى ٤٨ ساعة لا غير من آلاسكا إلى هاواى، فقط يومين!"

بعد ذلك تتحدث د. هولتشيك عن الاحتباس الحرارى، وارتفاع منسوب مياه البحر، والتصحر، عن تناقص علف الحيوانات، وعن عدم انتظام فصول العام.

"فصول الخريف المعتدلة عطلت الساعة الداخلية للطيور. إنها تتأخر من ١٠ أيام إلى ١٤ يومًا فى الطيران إلى المشاتى، يعنى عندما تصل إلى المشتى يكون كل شىء قد تم التهامه، ولكن الأمر يستغرق لدى بعض الطيور ..."، وتمد يدها مرة أخرى ناحية شنطتها، "فقط عدة أجيال حتى تجد أوكار جديدة وحتى يتم حفظ خريطة الطيران فى الجينات الوراثية، بل إن بعضها بدأ يقضى الشتاء فى جنوب إنجلترا بدلا من البرتغال أو إسبانيا. معظم الشحارير مثلاً لم تعد تعانى إطلاقًا من القلق الذى كان يصيبها قبل الهجرة." د. هولتشيك هى الوحيدة التى يمكنها أن تجتاز الشاحنة أمامنا المكتوب عليها: LONG VEHICLE .

أما السيئ فى الأمر فعلاً"، أكملت حديثها، "فهو أنه عندما تعود البلابل والعنادل إلى أوكارها فإنها تُفاجأ بطيور غريبة قد احتلتها. تلك الطيور أكثر عدوانية وقوة من الطير المهاجر الحقيقى".

الشاحنة التى تسير أمامنا تتوقف قبل زربيتس. تشرع د. هولتشيك فى التحدث عن تقاطع طرق الطير المهاجر مع الطير المقيم. أفتح الشباك. السيارات خلفنا توقف المحرك واحدة بعد الأخرى. ينساب المرور من الاتجاه المعاكس مارًا بنا. عندما تنفذ أشعة الشمس من خلف الغيوم فإنها تبهر العين. عندما نتحرك مرة أخرى أرى سيارة بضوء أزرق فى حارتنا. يشير إلينا رجال الشرطة وهم يمرون بنا.

أقــول: "حــادث جــديد." ولكن سيارة إسعــاف هى التى مرت بنا، لا سيارة حوادث.

قال د. هولتشيك: "مع أن ٧٠٪ من الطيور المحلية الحاضنة هى من الحيوانات المهددة بالانقراض".

بدون أن تعطى إشارة ضوئية أو تقلل من سرعتها تنحرف يساراً إلى طريق بين الحقول، وتقف. الآن يدور الحديث حول أسراب الفراش التى لا تُرى إلا مرة واحدة كل جيل. أقـاطعـهـا وأسـألها عن الغرير. تتمخط الدكتورة هولتشيك، وتفك حزام الأمان وتنزع المفتاح، ثم تنزل من السيارة وتبدأ فى المشي. أتبعها فى اتجاه سيارة الشرطة والكيس البلاستيكى الأزرق مطوى فى جيب الجاكتة. أثناء السير أرتدى القفاز المطاطى. د. هولتشيك تستدير جانبًا عند كل هبة هواء منكسةً رأسها وكـأن أحـداً يشـدها من شـعـرهـا. تقطع الشـارع وتتلوى بين سـيـارتين عـابرتين، ثم تكمـل سـيرها على النـاحيـة الأخـرى. أتـردد طــويلاً، والآن أحاول على الأقل أن ألحق بها.

يقبل شرطى ناحيتها. يفرد ذراعيه. قبل الاصطدام بقليل يتوقفا. هذا معناه أن الدكتـورة هولتشـيك حـاولت أن تتفـاداه. يتحدثان فى آن واحد.

ببطء تمر بنا عربة نقل عليها حاوية. أجمع الحروف الزرقاء المكتوبة على الخلفية البيضاء "تمر"، وتحتها "توفير مع رفاهية". أقف وسط صهد

العادم. تشبك د. هولتشيك ذراعيها. يتطلع الشرطي إلى نهديها. يتبادلان الحديث، ثم ينظران فجأة تجاهي.

مرة أخرى تمر حاوية بمقطورة.

يقف الشرطي وحيداً هناك ويعض على شفته السفلى. يراقبني وأنا أخلع قفازي، ثم يتهادى عائداً إلى السيارة ذات الأنوار الزرقاء دون أن يستدير مرة أخرى.

سبقتني د. هولتشيك مرة أخرى. الريح تهب الآن في الظهر. تمسك بكوعيها. أنادي. لا ترد، ثم تختفي خلف أوتوبيس.

عندما عادت كانت تعرُج. ركبتها اليمنى مجروحة. تظل واقفة أمامي، واضعةً يديها على عينيها وجبهتها، ثم تزيح خصلات شعرها إلى الوراء.

"يدعي أن لا شيء هنا. قلت له أن يسمح لي بالمرور، لكنه قال إنهم بحثوا في كل الحفر والتلال. لو كان هناك غرير لوجدوه. لقد نفق، أتفهمين، ارتجف ثم احتضر".

أسألها عن ركبتها.

"كان قد نفق. لا يسمحون لأحد بالمرور. وإذا وجدوا شيئًا، فسيتصلون بالمتحف. بالتأكيد سيتصلون. إذا لم يفعلوا، لابد أن نعود إلى هنا في المساء أو في العصر، عندما ينتهي كل شيء هنا، عندما يزيلون ... هذه الحاجات".

أسألها: "أى حاجات؟"

"إنهم لا يقولون شيئًا، لا يقولون أى شيء".

"اسمحى لى الآن بأن أتولى السواقة"، قلت ومددت لها ساعدى الأيسر الذى ثنيته بزاوية قائمة حتى تمسك بى. نسمع كلاكس مرتين. لا نلتفت إلى مصدر النفير.

"تراهنين أنهم سيكونون قد اتصلوا عندما نصل إلى المتحف؟"

علاّقة المفاتيح تبدو وكأنها لافتة مرورية(*): Koalas next 15 km.
أفتح لها الباب المقابل لباب السائق. "سيتصلون فى الدقائق القادمة، أراهن على ذلك مقابل أى شىء، وستتعجب منّى، وتتساءل ماذا نفعل إذن؟ ستعتقد أننا ذهبنا إلى مقهى أو مطعم، واستمتهنا بوقتنا بدلاً من البحث عن الغُرير. سترين، ستواجهين صعوبات معها. سأشرح لها الأمر. شىء لا يُعقل، إنهم يصرفون المرء بكل بساطة. هم هم، لا يتغيرون!"

تعطس الدكتورة هوليتشك، ثم تمسح بظهر يدها تحت أنفها عدة مرات. "فقط لأن دماغه جامدة، ستواجهين المصاعب. إنهم يفرحون عندما يستطيعون إثبات شىء على المرء، عندما يتيح المرء لهم فرصة".

أحرك مسند الظهر إلى الوراء، ثم أشغل المحرك. تمسك الدكتورة هوليتشك بالذراع تحت مقعدها، وتتخشب فى جلستها. ركبتها ما زالت تنزف.

(*) "دببة صغيرة خلال الـ ١٥ كم القادمة". (المترجم)

"الإسورة"، تقول، "شَبَكَت، هل تسمحين؟" لا تحرك ساكنًا. تقبع هناك منحنية إلى الأمام وإحدى يديها تحت المقعد. بأصابعى ألمس كلوة يدها. أحس بنبضها. بظهر يدى أصطدم بسمانة قدمها. لا أعرف إطلاقًا كيف أصل إلى يدها أو ساعدها حتى أحررها. أتحسس عما شبك بإسورتها. تستسلم تمامًا لما أفعله. أدير ذراعها. جواربها يمكن إلقاؤها فى القمامة على أية حال. أنحنى أكثر، تكاد رأسى تكون على فخذها. من أسفل أرسل النظر عبر التابلو إلى الزجاج الأمامى. تختفى السيارات تحت أفقى. لا أرى إلا سقف الشاحنات، وفوقها السماء الملبدة بالغيوم.

فجأة تتحرر يدها. أجلس على مقعدى. تمر بنا سيارة إسعاف تسير ببطء، بدون الضوء الأزرق.

أثناء رحلة العودة أحاول قدر جهدى ألا أقترب من الخطوط المرسومة على حافة الطريق، ولا من الخطوط فى المنتصف أيضًا. تمسك يداى بعجلة القيادة كما تعلمنا فى المدرسة: "اثنين إلا عشرة"، أى يسارًا ويمينًا أعلى قليلاً من المنتصف."

أمام إشارة التقاطع أتوقف لأنها لا ترد علىّ. لا أعرف إلى أين ينبغى أن أذهب. بتردد تذكر لى أخيرًا اسم شارع ورقم بيت.

أسألها: "على القناة؟"

أستطيع أن أركن السيارة أمام مدخل البيت. "وصلنا!"، أقول لها وأوقف المحرك. أعبث بيدى باحثة عن الذراع، ثم أنزلق بالمقعد إلى الأمام، وأعيد تعديل المرآة العاكسة، ثم أنزع المفتاح. أسألها إذا كانت

تشعر بغثيان. أرى صبيين فى المرآة العاكسة يحملان الحقيبة المدرسية، وأسمع خطواتهما على الأسفلت. يمر الأول على يمين السيارة، والآخر على يسارها. عندما يتحاذان مرة أخرى يلتفتان إلينا دون أن يقفا. أبقى جالسة لبرهة، ثم أقول لها إننى لابد أن أنصرف الآن. أنزل من السيارة، أنتظر لحظة، ثم أغلق الباب.

أمام المتحف ينشر الفصل السابع ضجيجه. يتبادل المدرس الحديث مع هَنّى أمام شباك التذاكر. "أتعرفان بعضكما؟"، تسأل هَنّى وتنظر إلى وإليه. قال معرفًا بنفسه: "برترام". نتصافح بسرعة. أرى ورق الشجر الذى التصق بأحذية الأطفال متناثرًا حتى فى صالات العرض. أمام فترينة "ملك الفئران" تفاحة مقضومة. على الدَرَج أسمع رنين التليفون فى غرفتى. عندما يتوقف الرنين، أسحب الفيشة، وأجلس إلى مائدة التحنيط أمام طائر النُحَّل. تدخل هَنّى وتظل واقفة وراء ظهرى. إنها الوحيدة التى لا تدق على الباب. تنزع جاكتتى من على الأكتاف، وتشرع فى تدليك رقبتى. تنتظر أن أتوجه إليها بالشكر لأنها تولت عنى القيام بالشرح للمجموعة.

"ما زلتِ تشعرين بصداع؟" سألتنى هَنّى. إبهاماها يتزحلقان لأسفل على العمود الفقرى، ثم يتجولان ثانية إلى أعلى ناحية الأكتاف. أثناء ذلك ألمح منبت سبابتها اليمنى الملتهبة.

أسألها: "ألا تقدرين على دفع أجرة مانكير؟" غريب أن امرأة مثل هَنّى تتلف أظفارها بانتظام.

تتنهد بعمق لتظهر لى مقدار العذاب الذى أسببه لها، وكم يصعب عليها أن تقرر طردى من العمل – هذا العام، أو العام القادم، أو خلال عامين. إنها ليست فقط الرئيسة، إنها هنا منذ مدة طويلة، ولديها طفل، ابنة.

"أين الغرير؟" سألتنى. اسمع دقات كعبها على البلاط.

"لم أكن أعلم أنكما تعرفان بعضكما".

"ظننت أننى أعمل لك معروفًا. هل تقربت منك؟" تحركت يدها فى جيب المعطف. العظام التى تحصى بواسطتها أيام الشهر برزت الآن تحت القماش. صرخات التلاميذ تبتعد وتخفُت. "هنا يعرف كل واحد الآخر. هذا هو الوضع هنا. كما أن صديقك باتريك يتصل بك باستمرار." تخطو عدة خطوات فى اتجاه الباب. "أنت لم تنامى طيلة عطلة نهاية الأسبوع؟"

بادرتها بالسؤال: "هل تحنين أنت أيضًا فى بعض الأحيان إلى أيام زمان؟"

"ما معنى هذا السؤال الآن؟ لم يكن لك أية علاقة بذلك كله!"، قالت بنبرة هادئة نسبيًا. "يا إلهى! ماذا بك يا ليديا؟" تصرخ غاضبة عندما هممت بالرد، ثم تضيف: "لم يعد أحد يطلب منك شيئًا إلا تحنيط بضعة حيوانات. أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو أن تصحبى التلاميذ فى جولة عبر صالات المتحف، أو أن ينقطع التيار الكهربائى، أو أن يشد أحدهم فيشة الثلاجة. ليس عليك أن تعتنى حتى بطفل، ولا حتى طفل!" تضع

هَنّى – وظهرها لى – سيجارة بين شفتيها، وتنفخ الدخان فى اتجاه السقف. "ماذا حدث للغرير؟"

أتحسس مفتاح السيارة فى جيب جاكتتى. "نسيته"، أقول لها رافعةً المفتاح المعلق فى العلاّقة الصفراء، وكأننى بذلك أستطيع إثبات شىء ما.

لا تنظر هَنّى ناحيتى، بل ولا تستدير. تخرج من الغرفة وتنزل الدرج. عند كل خطوة تخبط بكفها على الدرابزين الخشبى وهى تسب وتلعن. لا أفهم ما تقوله، بالرغم من أنها تركت الباب مفتوحًا. أسحب الجاكتة مرة أخرى فوق أكتافى، وأضع مفتاح السيارة على المائدة جانب الدخل الذى أقترب منه، ثم أواصل عملى.

الفصل السادس

ليلة طويلة ، طويلة

باتريك يحكى عن صعوبة العثور على منزل فى الظلام. الاحتفال بعيد الميلاد فى الأرياف. مطاردة فى رحلة العودة، وحفلة فى محطة الوقود.

الثلاثاء، السابع من أبريل. توم يحتفل بعيد ميلاده الخامس والثلاثين. قبل عامين ورث إرثًا كبيراً، وبعدها مباشرة ورثت بيلى – زوجته – إرثًا أكبر. يسكنون الآن فى عزبة فسيحة عند لايزينج. تهتم بيلى بأمور الطفلين التوأم، وتعتنى بالحديقة، وتعطى دروسًا فى الناى. توم ما زال يعمل فى تماثيله الخشبية – رءوس عملاقة بأنوف عملاقة – التى لم يعد بحاجة الآن إلى بيعها. ليديا تعرف الاثنين من برلين عندما كانت طالبة فى كلية التربية. أتقابل مع توم وبيلى بانتظام عندما أسافر إلى لايبتسج أو كمنيتس من أجل تصوير حفلات افتتاح المعارض الفنية. فى كل مرة تقول لى بيلى: "لابد أن تأتوا وتتفرجوا على العزبة".

لما اتصلت قبل الثامنة بقليل حتى أسأل عن أقصر طريق، كانت بيلى على التليفون. قالت إنها كانت تنتظر قدومنا قبل ذلك، قبل ذلك بكثير، وإنها لا تأخذ بالها أبداً من الطريق لأنها لا تسوق. يبدو من صوتها أنها تحيي ضيوفًا دخلوا أثناء حديثها، أو أنها تعطى إشارات تحدد أماكن الجلوس. وفى نهاية حديثها تقول بيلى: "توم الآن فى الأتيليه الخاص به. إنه يركِّب طاولة بينج بونج".

ليديا صبغت شعرها بلون جديد، وترتدى لأول مرة السِّوار الفضى الذى أهديته لها بمناسبة عيد ميلادها. على حجرها تمسك بأطلس نادى السيارات لعام ٩٠ . كان الغلاف الخلفى للأطلس قد انفصل عن الكتاب، لذلك نستخدمه كعلامة بين الصفحات. ليديا وأنا نتحدث عما سوف نفعله لو ورثنا مليونًا مثلاً. لا يخطر على بالنا شيء سوى رحلة حول العالم، وحتى هذه الفكرة ليست جيدة، لأننا بعدها سنكون فقدنا وظيفتنا، أى أننا نحتاج إلى نقود أكثر بكثير.

تسألنى ليديا إذا كنت أعرف شخصًا، مثلنا، لا يرث. "أعتقد هذا"، لكن سؤالها يجعلنى أتردد، ثم يتضح بعد وقت أن حماى وحماتى يملكان عشة على البحر، أو أن هناك عقاراً للجدة مساحته ٥ هكتار، وبالصدفة بين برلين وبوتسدام. ليديا تعرف امرأة تعيش وحدها، نزل على دماغها – كما يقولون – مليونان تعويضًا عن قطعة أرض كانت تزرع فيها بطاطس، ثم التهمها أحد مداخل الطريق السريع عند شمولن. لا نستطيع كلانا أن نفهم لماذا لا يشعر بالسعادة أولئك الذين يربحون الملايين من أوراق اليانصيب. تقول ليديا: ربما كانوا من

أصحاب الملايين قبلها أيضاً. أمد لها راحة يدى، فتمسك بها وتضغط عليها لبرهة. فى روخليتس أخذ المخرج الخطأ، وبعد عدة كيلومترات يتوجب علىّ الاستدارة. أتردد مرة أخرى عند التقاطع. ليديا ترى أن علينا أن نتبع اللافتة المكتوب عليها: "كل الاتجاهات الأخرى". أشعر أننا نعود إلى حيث أتينا بعد أن قطعنا نصف دائرة كبيرة.

قالت ليديا إنها تشعر بالحرج لأننا سنصل متأخرين. كان قد مضى علينا ساعة فى الطريق منذ انطلقنا. تريد أن نستدير عائدين لأننا لم ننتبه إلى لافتة. انطلاقى بأقصى سرعة لم يعد يفيد الآن شيئاً.

"أخيراً!" أتنهد قائلاً عندما نصل إلى التفريعة. علينا الآن التوجه يميناً. ليديا تغلق الأطلس، وتمشط شعرها. أبطئ من سرعتى، وأضيء كشاف النور البعيد. بعد فترة طويلة نصل إلى القرية التالية. "يميناً بعد التفريعة!"، هذا هو كل ما أعرفه. بعد عشر دقائق نعود إلى التفريعة، بجانب اللافتات تماماً. أستدير، "لابد أنه هناك"، أقول لها وأشعل الضوء وأطفيه. "هناك بالضبط!" تزفر ليديا: "ماذا تفعل؟" أطفئ الكشافات. أعتقد بالفعل أننى لمحت ضوءاً على الجانب. لكن العزبة لابد أن تكون على الجهة اليسرى. مع ذلك نواصل البحث عن الطريق.

بين الأخاديد العميقة نسير إلى الأمام. على جانبى الطريق تنمو أعشاب.

تسألنى: "بيلى وتوم لديهما سيارة جيب؟"

أومئ بنعم.

"لا غنى عنها فى مثل هذه الطرق".

لا يمر وقت طويل حتى نتعرف على ظلال بيت صغير مضاء بعدة مصابيح متناثرة، محطة محولات كهربائية أو ما شابه، محاطة بسياج من الأسلاك. يستطيع المرء قراءة اللافتة: "خطر الموت".

"فى وسط الحقول"! تتعجب ليديا.

أفرمل فجأة، لا أستطيع السير للوراء بسبب ماسورة العادم. ليديا تصمت. لابد أن تهبط وتعطينى إشارات حتى أستطيع الخروج من الحقول، ولكن من العبث أن تفعل ذلك بمثل هذا الحذاء الذى ترتديه. بما يشبه المعجزة أتمكن من الدوران. لبرهة تستولى علىّ مشاعر الفرح وكأننا وصلنا.

تقول: "ربما تقف وتدق الجرس، وتسأل عن الطريق؟"

"أين؟" أسألها. "كما أن الفلاحين يغطون الآن فى نوم عميق!" أسير الآن فى التفريعة الأخرى. تقول ليديا: "لكن هذا الطريق غلط".

أتفادى قطة ميتة ممددة على الطريق. بعدها بقليل أرى غراباً ملتصقًا بالأسفلت. فى الحارة اليسرى. فقط جناح ينهض عمودياً ويرفرف فى الريح.

أسألها: "هل عاودك الصداع؟"

"كنت أعتقد أنك سألت عن الطريق؟"

"عند التفريعة يمين"، أقول لها. "سأدق الجرس. عندما أرى ضوءاً سأنزل وأدق الجرس".

"لقد رسم توم لنا رسمًا تخطيطيًا." ثم تضيف: "اسمع كلامي وارجع!"

أخذت تقلب في محتويات الدرج الأمامي. نمر ثانية على الغراب والقطة. في غمرة البحث والتقليب تتوقف ليديا فجأة، وتتكئ إلى الوراء. لأول مرة أنتبه إلى وجود المصباح الصغير في الدرج الأمامي. بسبب ضلفة الدرج المفتوحة تمزق جوربها في عيد الميلاد. أقول لها إنه لم يعد ينفع أي شيء، وإننا بحاجة إلى تليفون. أسألها هل تتذكر أين رأت تليفونًا لآخر مرة؟ لم تند عن ليديا أية حركة، ولا حتى هزة رأس.

بعد بضعة كيلو مترات نتوقف أمام إشارة تنظم المرور في منطقة إصلاحات في الطريق. أمامنا سيارة فورد بيضاء. أوقف المحرك وأقرأ الملصق عليها: "أنت قريب من سيارتي – ولكن ربنا أقرب". "كلام فارغ!" أقول. "ما هذه السخافة!"

"دائمًا نخطئ." قالت ليديا بعد برهة. "كل ما نفعله غلط." ترسل بصرها إلى الأمام. ظهر إحدى يديها على حافة المقعد، والراحة نصف مغلقة. يمكن للمرء أن يضع شيئًا داخلها.

"أخضر"، تصرخ ليديا، "أخضر!" ثم تغلق الرف بخبطة عنيفة على الضلفة.

الفناء مكتظ بسيارات لا أعرفها، من بينها سيارتان عليهما لوحات مدينة فيسبادن. بيلي وليديا يتعانقان طويلاً، ويتأرجحان يمينًا ويسارًا. أمسك الهدايا: للتوأم علبتان صغيرتان بهما مكعبات ليجو. ظلت العلبتان

عدة أيام فى مدخل بيتنا، فى الجزء المخصص لتعليق الملابس. أما هدية توم فهى كتاب مصور: "تماثيل عصر النهضة - الفنان دوناتيلو وعالمه".

تقول بيلى إن توم تشاجر معها. ثم تعانق ليديا بيلى مرة أخرى. "آه، يا ليديا"، تتنهد بيلى. أمام الباب تحكى أن إنريكو هنا أيضًا، إنريكو فريدريش، من المسرح. "لقد حضر بالأوتوبيس، ثم سار لمسافة طويلة، والآن ينام فى سريرى، متكورًا كجنين." أقول لها إنه يستطيع العودة معنا فى السيارة.

"لن نتحدث الآن عن العودة!"، تقول بيلى وتمسك بمعصم ليديا، ثم تسبقها إلى المطبخ.

النساء يجلسن بمفردهن - ليست بينهن واحدة نعرفها. نلف حول المائدة ونصافح كلاً منهن. بعدها نجد طبقين فى انتظارنا عليهما سلطة بطاطس وقرص لحم مفروم ساخن، وخيار مخلل. تكرر بيلى أكثر من مرة دعوتها لنا بأن نأكل فى هدوء. النساء الأخريات يتكئن على مقاعدهن ويتفرجن علينا.

عندئذٍ ظهر الرجال. نقف ونهنئ توم الذى يرتدى ثياب النجارين. يقول إنه اتصل تليفونيًا ولكن لم يرد عليه أحد، ثم يضيف أن علينا الآن - هو وأنا - أن نلعب مباراة. بعض الأزواج ينصرفون.

من الأتيليه نسمع هدير السيارات وهى تنطلق. لابد أن أتعود أولاً على لوح الطاولة الألومنيوم، ولهذا أخسر كل كرة تقريبًا. يسأل توم إذا كنت أنوى الزواج قريبًا من ليديا، وماذا نفكر بالنسبة للإنجاب،

ومتى سأقيم معرضاً لأعمالى. بين الحين والآخر يمتدح كرة أرسلتها. يقــول إنه على استعـداد لـدفــع نقــود للاعـب على مستـواه. أسـأله عن إنـريكو.

توم يضحك ضحكة صفراء: "إنه يقول لكل من يقابله إنه مريض بسرطان المعدة، وإنه سيسافر خلال أسبوعين إلى البرازيل ليعمل فى مجال المعونات الإنمائية – بما معناه: هذه آخـر مرة نرى فيها بعضنا. لا تصدق حرفاً مما يقول! وعلى فكرة، هو لم يكن مدعواً على الإطلاق".

بيلى تصعد الدرج، وتقول لتوم إن عليه أن يودع شـخصاً. أنتظر لبرهة فى الأتيليه بين الرءوس الخشبية، ثم أعود إلى المطبخ. ليديا تتحدث بصوت عالٍ وبانفعال مع الضيوف القادمين من فيسبادن.

سيبيتون هنا. إنريكو ما زال نائماً، أما الآخرون فقد انصرفوا. تقول بيلى إننا لابد أن نبقى حتى نعطى الهدايا للتوأم بنفسنا. تبدو ليديا أنيقة للغاية، وكأنها طيف أو خيال فى هذا المطبخ.

أحد الفيسبادنيين يعمل تاجر نبيذ بالجملة. يومئ باتجاه السيدتين اللتين تملأ لهما بيلى الكأس من جديد، ويقول إنهما شقيقتان. منذ فترة طويلة وهو معجب بأعمال توم. فى البداية لم يستسغ التماثيل الملونة، أما الآن فإنه لا يستطيع أن يتخيلها على أى نحو آخر. بعد ذلك نتحدث كلنا عن تطور توم الفنى. تقول بيلى إن اللون يكتسب أهمية متزايدة فى أعماله. تمر فترة صمت. يكرر تاجر النبيذ ملاحظته السابقة، ثم يضيف أن هذا هو ما قاله من قبل. نهز رأسنا. تسأل ليديا ألا يصح أن نوقظ إنريكو؟

"لست جليسة أطفال"، يزفر توم، ثم يملأ طبقه عن آخره بسلطة البطاطس. نجلس جميعًا إلى المائدة. انطلقت ليديا تتحدث بحماس عن الماضى، عما أصبحت تسميه "حياتها البرلينية". أخذ توم يحكى بين المضغ والبلع ما حدث عند افتتاح أحد المعارض الفنية. فى البداية انقطع التيار الكهربائى، وبعد ذلك كان صدى الكلام يتردد من السقف. تنفجر بيلى وليديا ضحكًا. ويشرح توم أن السقف كان به جهاز تنصت لم يعمل على الوجه الصحيح، يعنى بالعكس، كمقوى للصوت. الآن يضحك الأصدقاء من فيسبادن أيضًا.

تجلس بيلى بجانبى وتسأل، وفمها على أذنى، إذا كانت دانى – نحن نعمل فى الصحيفة نفسها – قد أخذت ابن أختها مؤقتًا أو دائمًا. "أم الصبى، أخت دانى، لقت مصرعها فى حادث دراجة، أليس كذلك؟"

"لم أكن أعرف أنك تعرفين دانى"، أرد عليها. تتذكر بيلى حالات أخرى هرب فيها السائق، وتتحدث عن الصدمة التى تسببها حادثة كهذه، وأن من المفروض أن يحصل السائق على حكم مخفف. أعترض على ذلك، لأنه عندئذٍ سيتحجج كل حيوان بهذه الحجة. "عندك حق"، تقول بيلى. "ولكن فى بعض الحالات لابد من مراعاة أثر الصدمة."

"عن أى شيء تتحدثون؟"، يصيح توم. يدعو ليديا ويدعونى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع كاملة، فى مايو أو يونيو، أو عندما تقيم بيلى حفلاً موسيقيًا لتلاميذها. "أصبحتم تعرفون الطريق الآن"، تقول بيلى. ما زالت هديتنا مغلفة بورق الهدايا على الكرسى المنخفض.

عند الوداع تعانقني أنا أيضًا. يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى تجلس ليديا في السيارة. نلوح لهما من السيارة ونبتسم، مع أن لا أحد يرانا.

"الواحدة والنصف"، تقول ليديا. تفتح شنطتها وتتناول الكروت واحداً بعد الآخر. "نحن مدعوون للسفر إلى بحر الشمال، وإلى تسيتاو، وإلى فيسبادن." تفرد ساقيها وتضع قدماً فوق الأخرى. أقترح عليها أن ترجع مسند الظهر إلى الوراء لتنام.

تسألني: "هل تحدثت أكثر من اللازم؟"

"أبداً، على الإطلاق."

لما توقفت عند إشارة منطقة إصلاح الطريق، كانت ليديا قد استغرقت في النوم. الحارة المستقيمة المسفلتة حديثًا والمضاءة إضاءة كاشفة تقودنا عبر البلدة الميتة. أواصل السير عند الضوء الأحمر. فجأة تظهر سيارة خلفنا. بعد منطقة التصليحات أبطئ من سرعتي. يتبعون سيارتنا. ما زالوا يعطون إشارات ضوئية. أفحص ضوء الكشافات والفرامل اليدوية والحرارة والبنزين والضوء الوامض. لو كانت مصابيح الإشارات الخلفية عندي عطلانة، كان توم نبهنا.

أدير المرآة العاكسة إلى أعلى، وأعطي إشارة إلى اليمين. لا يريدون أن يتجاوزونا. إكسدام سيارتهم يكاد يتلامس مع سيارتنا.

مع البيت الأخير تنتهي مصابيح إنارة الطريق، على كلا الجانبين حقول مفتوحة، وفوقها الهلال. أدوس على البنزين، أستخدم الكشافات،

وأظل فى منتصف الطريق، خطوط الطريق بين العجلات. بسرعة مائة وعشرين نطير فى اتجاه إحدى الغابات. لا يتوقفون عن مطاردتنا، هؤلاء الرومانيون أو الروس أو البولنديون، أو الجن الأزرق ... ربما تتمدد شجرة بعرض الطريق. أسأل نفسى لماذا لم نأخذ إنريكو معنا؟

لابد أن أحافظ على هدوئى، وألا أسمح لهم بأن تكون تصرفاتى مجرد ردود أفعال. تانك البنزين ملىء حتى ربعه. هذا يجعل السيارة خفيفة. نحن فى بلد مزدحم السكان، ولسنا فى سيبيريا. ترتعش ركبتاى، لكننى لا أشعر بأى شىء فى القدمين. عندما استقام الطريق من جديد، اتكأت جانبًا، وحاولت أن أضغط لأسفل على الزر فى باب ليديا، إلا أننى عجزت عن الوصول إليه. أتحسس الزر فى بابى.

إذا اصطدموا بنا، فستطير سيارتنا من الشارع. ليس لدينا كوابح آلية، ولا وسائد هوائية، ولا حتى فى ناحيتى. حزام الأمان مربوط. أفكر فى الواقى الجانبى من الصدمات – ربما يكون لدينا.

حقول من جديد، لا منازل. منطقة تصليحات يضيق فيها الطريق. فى المرآة الخارجية أرى كشافاتهم تنطفئ.

عند مزلقان السكة الحديد قبل جايتهاين تومض إشارة التحذير، الحواجز المعدنية قد هبطت. أمد يدى فوق ليديا وأضغط على زر الأمان فى بابها. الكشافات وراءنا تومض مرة أخرى.

"جايتهاين"، أقول لليديا التى تفتح عينيها.

"ياه، يدك باردة كالثلج".

"وراءنا مجانين".

"مَن؟"، تتساءل وتستدير.

يقتربون منا لدرجة لم يعد يبهر معها الضوء. أتعرف على ملامح وجه طفولي مسطح.

أقول: "مجنون." يجلس منحنيًا إلى الأمام، وكأنه سائق بلدوزر، ذقنه على عجلة القيادة. يشرئب بعنقه. جبهته تصطدم بالزجاج الأمامي. نشعر برجة.

"ماذا يريد؟" تنزل ليديا حاجب الضوء أمامها.

"إنه .. الإكسدام .."، أبلع ريقي وأقول: "أعطى قبلة للإكسدام".

"ماذا يريد ...؟"

القطار يمر. القضبان تمتص ثقل العربات المحملة بالحبوب. أفرد ساقي تمامًا، وتتزحلق قدمي على دواسة الفرامل إلى أن تثبت في المنتصف.

الهزة التالية تجعل السيارة تتأرجح. أتشبث بعجلة القيادة. لا يخترق الصمت إلا القطار. أركز انتباهي على المسافة الفاصلة بين غطاء الموتور والحافة السفلى من الحاجز. السكة الحديد ليس بها أثر للمطر. قطار لا ينتهي.

عندئذٍ أنتظر حتى ترتفع الحواجز إلى أعلى، وحتى تتوقف الإشارات التحذيرية عن الوميض.

"السيارة لا تسحب كما ينبغى"، أقول وأخبط بكفى على عجلة القيادة.

تشرئب ليديا إلى أعلى قليلاً، واضعة رأسها على المسند. مرة أخرى أجعل خطوط الطريق بين عجلات السيارة. حتى بعد المنحنيات يظل ملتصقًا بنا.

أقول: "لن يتبعنا إلى الأبد."

فجأة تقول ليديا: "طبق فضائى." لا تنم نبرات صوتها عن أى انفعال. يبرق ضوء خلف أحد التلال، فى وسط الحقول.

أقول: "ميامى." ينعطف الشارع فى اتجاه الضوء الذى يزرق، أزرق ساطع. محطة تموين وقود. أعطى إشارة ضوئية.

"أبطئ"، تصرخ، "أبطئ." يمرق المجنون بيننا كالسهم. أفرمل فى منتصف المحطة.

"إنهم يحتفلون هنا"، تقول ليديا. أنزل من السيارة، وأفتح غطاء تانك البنزين. مجموعة من النساء والرجال يرفعون من داخل المبنى كئوسهم ناحيتنا. يتكئون على مائدتين مستديرتين متلاصقتين أمام رفوف الثلاجة. رجل ذو شعر كالقنفذ يمسك بذراع جارته ويومئ لنا بأن ندخل. يشير إلىّ وإلى ليديا التى تهبط وتقف جانبى.

"Surprise, surprise"، يصرخون جميعًا عندما دخلنا. تصيح امرأة حمراء الشعر: "أو – فه، أو – فه"؛ فيجيبها الجميع بصوت واحد: "Surprise, surprise". كلهم أكبر منا عمراً.

يفتح صاحب البنزينة كرتونة بيرة "بكس" بها ست زجاجات. يمسك بكل يد ثلاثًا، ويضعهم على المائدة. يصرخون ثانية: "أو – فه، أو – فه". يرحبون واحدًا وراء الآخر بليديا.

"ينتظرون مجيء التاكسي"، يقول صاحب البنزينة عندما دفعت له ثمن الوقود. "ليس من المعقول أن أدعهم ينتظرون في الخارج. هل تريد شيئًا آخر؟"

أشترى زجاجتي مياه غازية بطعم الزنجبيل، لليديا ولي. ما زالت يداي باردتين؛ لذلك لا أريد أن أصافح أحدًا. تقول ليديا إن أمامنا ستة محاسبين يريدون جميعًا أن يصبحوا مستشارين في الضرائب. يومئون بجدية: عندئذٍ يهتف الرجل الواقف جانبي: "Surprise, surprise"، وقد شَرِق من الضحك. تتناقل الأيدي زجاجة ويسكي "جيم بيم" كبيرة.

يهمس أحدهم بشيء في أذن المرأة الواقفة جواري، فتصيح "لأ!"، ثم تتفحصني، وتكرر "لأ!". بعدها يعانقها أحدهم. ليديا تتناول الزجاجة وتحتسي. يضرب شخص على ظهري بكفه: "وبعدين، يا زميل ... هل ترى هنا تاكسي؟" لا أعرف ماذا يقصد. يبدأون في الصياح والزئير. ليديا تمسح فمها. صاحب البنزينة يلصق الأسعار بالماكينة على علب اللبن الزبادي. برشفة واحدة أفرغ زجاجة الزنجبيل الثانية أيضًا، ولكنني أظل ممسكًا بالزجاجة.

"أو – فه، أو – فه، عايزين تاني!"

تشير ليديا إلى البقرة المنفوخة المعلقة فوق الخزينة، بقرة على شكل طوق سباحة. "هذه لى"، تصيح وتحصد تصفيقًا لأنها آخر قطعة فى المحل، ولذلك لابد من فكها من على السقف. كما تطلب كارتًا لتشغيل ماكينة غسيل السيارات آليًا.

"لن تعمل الماكينة قبل السادسة"، يقول صاحب البنزينة. تصر ليديا على طلبها. "الجو لطيف هنا"، ثم تضيف: "وأنا متأكدة أننا سنعود مرة أخرى." تبدأ فى التسوق. تفعل ذلك كالسيدات الراقيات: تعلق ذراع السلة البلاستيكية الزرقاء فوق المرفق. تدرس المكتوب على كل علبة. تأخذ كيسين حليب، وكرتونة بها ست بيضات من بيض الفلاحين، وجبنة موتساريلا، وشرائح خبز خشن. وعليهم تضع بطاريات "فيرتا ألكالاين" الطويلة العمر. تقول لى: "فقط "الموزلى"(*) ليس عندهم."

بينما كنت أضع طوق النجاة - البقرة - على المقعد الخلفى، أخذت ليديا تودع الآخرين. كل اثنين يركبان معًا. ليديا تجمع كروت شخصية مرة أخرى، أيضًا من النساء.

عندما لوحوا لى، أكتفيت برفع إصبع من على عجلة القيادة. أعرف منذ دخلت أنهم يعتبروننى منغلقًا ولا أقبل الهزار والمرح. أتخيل أن ليديا تسافر معهم. يأتى صاحب البنزينة ويقول: "لقد نسيت زوجتك هذا". يعطينى كارت الغسيل المستطيل الأحمر، ومناشف فى عبوتها

(*) حبوب وفواكه مجففة ، تؤكل عادة فى الإفطار مع حليب أو زبادى . (المترجم)

البلاستيكية. يرفع يده ويلوح للتاكسى. ترفع ليديا زجاجة الجيم بيم فوق رأسها كأنها كأس بطولة.

"أنت لم تهتم بأمرى على الإطلاق عندما احتك بنا." تقول ليديا التى لم تغلق بابها جيداً، وكأنها على وشك النزول مرة أخرى. يداها تحيطان الآن بالزجاجة على حجرها. "على الأقل كان ينبغى أن تعطينى يدك، أو تقول لى لا تخافى وأنك ستحمينى، أو شىء من هذا القبيل".

"لم أكن أريد أن أكبر الموضوع"، أقول لها فى النهاية. "إنه مجرد صبى غبى".

"أنت لا تفهم. كل واحد كان جالسًا وحده، أنت هناك، أنا هنا. شىء فظيع!"

"غير صحيح."

"طبعًا صحيح." تفتح غطاء زجاجة الجيم بيم. "لكنك لا تريد أن ترى الأمور على حقيقتها، كالعادة تصوِّر الأشياء كما تريدها أنت." تحيط بإحدى يديها عنق الزجاجة وتشرب.

أشعر بغثيان. أرغب أن تتوقف ليديا عن الشراب، وأن تربط الحزام، وتغلق بابها جيداً.

أنزل من السيارة وأذهب إلى حيث المكنسة الكهربائية. وراءها أبول. الهواء البارد ينعشنى. يتصاعد البخار من بولى. أظل برهة واقفاً وبنطلونى مفتوحًا. ثم أركل الوعاء الموضوع فوقه جهاز قياس ضغط الهواء. يتأرجح يميناً ويساراً ويصدر صريراً.

يدفع صاحب البنزينة رفًا بعجلات أمام الباب، عليه ولاعات وحيوانات من القماش وقطع شيكولاتة.

ليديا تتزوق. الرائحة فى السيارة أليفة ومحبوبة بالنسبة لى، وكأنها تصحبنى منذ سنوات طويلة، مع أننا لم نشترِ السيارة (الفييستا) إلا فى الخريف الماضى.

"الواحدة ليست لديها حتى مفك للدفاع عن نفسها"، تقول ليديا. تمسك باليمنى قلم أحمر الشفاه، وفى اليسرى غطاه. "ولكن المعجزة"، تضيف، "أن الإنسان لا يتعرض بصورة مستمرة لهجمات الآخرين".

بابها الآن مقفول. أشغل المحرك وأتقدم ناحية الشارع. أعدل من وضع المرآة العاكسة.

"إذا عملت بوليصة تأمين على الحياة، هل أكتب اسمك؟" تسألنى ليديا. فجأة تتكئ علىّ وتحيطنى بذراعيها، وتهم بتقبيل أذنى اليمنى. اليسرى تداعبها بقلم أحمر الشفاه. تتجول شفتاها على عنقى. أشعر بكارت الغسيل فى جيب الصدر، حيث يضغط كوعها، بينما كانت تضع خلف كتفى الأيسر الغطاء على القلم.

أحيط ليديا بذراعى. أرى بين قدميها الجيم بيم، وفى المرآة العاكسة البقرة المنفوخة. انحسر ثوب ليديا عن فخذيها. أرسل بصرى إلى المرآة الخارجية، وعندما أتأكد من خلو الشارع، أنطلق.

الفصل السابع

صيف منعش

رِناتا وإرنست مويرر يعيدان الحياة إلى بيت ريفى مهجور. اللوح المكسور. مويرر يعود بمفرده متنزهًا سيرًا على الأقدام. فى الليل يُسمع غناء.

"لا أحد يجرؤ على الادعاء بأن الحظ لم يكن حليفنا! ولكن بيتًا كهذا يتطلب عملاً هائلاً." مسح مويرر شفتيه بمنديله، ثم وضع طبقه على اللوح الخشبى، ووضع اللوح على الصينية، ومشى خلف امرأته التى كانت تحمل زجاجات شراب الشعير الفارغة والكئوس. "كما أنه لم يقل لك شيئًا عن اللوح!"

اجتازته قائلة: "هل تتوقف عن هذه الشكوى الدائمة؟ كيف له أن يعرف ذلك؟" ظل مويرر واقفًا. من المطبخ سمع الطقطقة التى تعلن توقف موتور الثلاجة عن العمل. على الفور اهتزت الزجاجات.

"هذه هدية، يتقبلها المرء شاكراً بدون نقد"، ألقت رِناتا بهذه الكلمات فى جوف الصمت.

"هه، قال هدية قال!" أخذ مويرر نفساً عميقًا، لكنه لم يضف شيئًا.

"لقد عرضه عليكَ، وليس عليّ. طبعًا لابد من إجراء بعض التصليحات. أتعتقد لو كان المنزل بحالة أخرى، كان ... أنت تعرف نويجباور!" أمسكت بالصينية عاليًا، وكأنها تريد أن تناولها له. "على كل حال أنت الرجل!"، قالت ذلك وانصرفت.

فى المطبخ أخذ مويرر يضع الكئوس والزجاجات على حافة حوض غسيل المواعين. نفّض منشفة المواعين، ثم أمسك بسكين الخبز وراح يطعن الهواء، قائلاً: "فليأت الرومانيون ..."(*).

"الأوغاد!"، ردت عليه. بفرشاة خشبية طويلة راحت تحك أسنان الشوكة من الناحيتين.

سحب مويرر الدرج ووضع السكين بجانب صندوق أدوات المائدة. "على الأقل لم يفعلوا لهم شيئًا"، قال ذلك متناولاً منها كأساً.

"أما أنت عندك أفكار! أود أن أراك عندما يقومون بـ... ماذا سيكون رأيك عندئذٍ." نزعت السدادة ونظفت الحوض. ملأت المقلاة حتى منتصفها بالماء، ووضعتها فوق الموقد ثم ذهبت إلى غرفة النوم.

"الصحف تبالغ دائمًا"، صاح مويرر. "لازم نمشى." علق منشفة المواعين على حامل منشفة اليدين، ثم أنزل كمى قميصه. شباك المطبخ

(*) إشارة إلى اللاجئين من رومانيا فى تلك الفترة . (المترجم)

تركه مفتوحاً. منذ يومين وهما يتحملان هذا التيار الهوائى، ومع ذلك ما زالت تفوح فى المنزل عفونة الفطر ورائحة الخشب غير المطلى الذى أزالا من فوقه طبقات الغبار بقطعة قماش مبللة. عندما أتت حاملة شنطة السفر لاحظ أنها أغلقت أزرار بلوزتها بأصابع مبلولة. "لازم نمشى"، قال مرة أخرى.

لأول مرة يسيران فى هذا الاتجاه. حاول مويرر أن يتخيل كيف سيبدو كل شىء عندما يألفه: الطريق المبلط، والسياج الخشبى أمام الحدائق الصغيرة الضيقة، ومياه البئر المتدفقة من الماسورة الحديدية وتحتها الشبكة المغطاة بالطحالب، ومداخل المدينة المبنية على شكل أقواس. من فتحة تحت بوابة حوش ظهر خطم كلب يختلط سواده بالأبيض. كان الخطم راقداً على الجانب، ثم انطلق ينبح. ربما يتعرف أيضاً على شخص، ويحييه. حمل مويرر الحقيبة وبداخلها الستائر التى تريد زوجته غسلها. يوم الجمعة على أقصى تقدير سيعود إلى هنا لاستقبالها عندما تجىء بالأوتوبيس. فى المساء سيمسك بالسلم ويناول ريناته ستارة بعد أخرى لتعلقها. سيقول لها إنه لو كانت هناك بقة واحدة فى البيت، فلن يسمع المرء منه شيئاً لمدة خمسة أيام وخمس ليالٍ، عدا الشخير.

شفَّت بشرة وجنتيها عن لون أبيض تقريباً، وتحت إبزيم الصندل كان كعبها ملتهباً متورداً. حاول فى السرير أن يحشر قدميه بين أقدامها، عندئذٍ لاحظ أنها قد نعَّمت من جديد بشرة كعبيها. ولأن المرتبة كانت أطول من غطاء السرير فقد غطيا المرتبة المصنوعة من المطاط الإسفنجى بمناشف عند الأقدام.

بعد ذلك بفترة استيقظ من نومه. أراد أن يغلق النافذة، إلا أنه لاحظ عندما جلس أن الأصوات لا تصدر من الخارج، بل من زوجته.

منذ أن نقرت على زجاج الأوتوبيس وقالت: "الثانى على اليمين"، وهو يشعر بالقرف من بيت نويجباور. بهت لون الطلاء الأبيض بفعل الأمطار، وتحته ظهر لون رمادى غامق، يقترب فى الأسفل من اللون الأسود بسبب الرطوبة. قال مويرر لاعنًا: "كما عند الروس." اجتازا طريقًا من حطام القرميد. سارت بهم من بوابة الحديقة حتى باب المنزل، ثم فى النهاية اللوح المكسور. وجد الحجر تحت المائدة، فأمسكه بمنديل، ووضعه على الكومودينو بين صورة زفاف نويجباور والبارومتر، ثم طبق المنديل مرة أخرى. لم يفعل شيئًا آخر. سار فحسب وراء زوجته، وتطلع من وراء كتفيها إلى الحمام والمرحاض والمطبخ، ثم أخذ يراقبها وهى تدفع بقوة الباب الخلفى الذى استعصى على الفتح. كانت المضخة فى الحديقة الشعثاء تعمل. بين شجرتين من أشجار الفاكهة تأرجحت الملاءة المعلقة للتمدد عليها. بدا السقف فى حالة جيدة لا ينفذ منه الماء – لم يجدا مفتاحاً لغرفتى السقيفة.

بجانب المنزل مباشرة أخذ مويرر يحفر حفرة. لم يُذكّر زوجته بالغداء. كانت قد ركعت على ركبتيها فى انهماك كامل، وراحت تدندن بافتتاحية باباجينو، وعندما يجىء البيت الذى يبدأ بـ "المرح الدائم ..." فإن صوتها كان يصدح بالغناء. بلا خجل كانت تلمس كل شىء. نظفت حوض المرحاض، وكابينة الدوش، وأزالت بيدها العارية خيوط العنكبوت من الأركان، ومزقت كيس مخدة قديم ثم ثبتته بالدبابيس أمام لوح

النافذة المكسور. كان على مويرر أن يتغلب على اشمئزازه كل مرة عندما يمسك بمقبض الباب، كما كان ينفر من اللاصق الطبى من صندوق الإسعافات الأولية الذى لصقته زوجته فى العصر على الفقاعة التى ظهرت فى كفه. لم يقبل أن يشرب القهوة من أحد الفناجين إلا بعد أن أبدت استعدادها أن تغسل الصحون الغربية مرة أخرى، بل لقد لعق الملعقة بعد أن انتهى من التقليب.

الآن يسيران على حافة الطريق الزراعى، بين خط نهاية الطريق للسيارات والأخدود الذى يحد الطريق. فى العشب الطويل المدهوس على الطريق تناثرت العلب الصفيح والزجاجات، وكأنها نمت بين الأعشاب. كثيراً ما تمنى مويرر لو يقوم بجمع كل هذه القمامة. لو يشاركه الآخرون فى ذلك ... مبادرة جيدة التنظيم فى كل أنحاء البلاد لتنظيف حافة الطرق وما حول قضبان السكك الحديدية - سيكون هذا عملاً جميلاً بالنسبة له.

أمام محطة الأوتوبيس كان يقف رجل يماثله فى العمر أمام جدول المواعيد. حيَّاه مويرر بإيماءة وعندما لم يرد قال له "مساء الخير"، ثم أشاح بوجهه.

ما زال الجو حارًّا جداً. التيار الهوائى الذى أحدثه مرور سيارة بهما لم يلطف الحرارة إلا قليلاً. فى كل مرة كانت تضع يديها على فخذيها حتى لا تطير الجيبة. بنطلونه الصيفى كان يتطاير فى الهواء.

"ما يطلقون عليه هنا محطة"، قال مويرر بصوت خافت دون أن ينظر إلى زوجته، مشيراً إلى العلامات المرورية البيضاء المتآكلة الحواف، "ينم عن وقاحة كبيرة".

قبل عام كان يشرح لها ماركات السيارات. فى حالة شرائه واحدة كان يريد سيارة ألمانية، أو على الأقل سيارة تصنع فى ألمانيا. خطر على باله سيات وسكودا، ولكن حتى لو لم نحسب هاتين السيارتين، فقد كان لدى الألمان ست ماركات مختلفة. الإيطاليون لديهم أربع ماركات، بما فيها فرارى، والفرنسيون ثلاث فقط، بالرغم من رينو. "السيارة المستوردة رقم ١ فى ألمانيا!" كانوا يكتبون فى كل مكان. ليكن، نحن لدينا الجولف، رقم ١ فى أوربا. لدى اليابانيون خمس ماركات. والأمريكيون؟ لا يعلم أحد عدد الماركات لديهم، كما أن هذه السفن لا تصلح لشوارعنا.

عندما وصل الأوتوبيس حاول مويرر أن يقبل امرأته على شفتيها.

"اتصل بى، غداً"، قالت. "ليس قبل الثامنة، أتسمع؟"

ناولها مويرر الشنطة، ولأنها كانت تدفع الأجرة فقد ظل يسندها من أسفل. "ولا تنس استدعاء واحد يركب لوح الزجاج"، قالت ذلك، ثم حملت الشنطة بكلتا يديها أمام ركبتيها، وسارت إلى الخلف فى الممر الضيق. سار فى الخارج على الارتفاع نفسه وهو يلوح لها. جلست فى اللحظة التى انطلق فيها الأوتوبيس. مسك أنفاسه، ثم تذكر ماركة سوبراو وإيسوزو، وهو ما أفسد مزاجه على نحو ما.

عندما أخذ مويرر نفسًا عميقًا شم رائحة العادم. عبر الشارع. على الناحية الأخـرى رأى طريقًا على جانبيه عمـارات سابقة التجهـيز. قرأ على اللافتة المعوجة: "عمارات جديدة". في الخلف مبنى ذو طابقين. بدا الدور الأرضي غير مأهول بالسكان.

عندما رأى مجموعة العمارات السكينة على الجانب الأيسر ذات السقف الجمالوني العالي - التي تشبه منزل نويجيباور - أراد أن يعبرها سريعًا. من أحد الأحواش راح كلب برناردينر ينبح نباحًا عميقًا أجش. لم يستطع مويرر أن يتذكر متى سار وحده لآخر مرة في مكان غريب. سقطت أشعة الشمس على ظهره، وتحت قميصه شعر أنه يشم دفئًا عتيقًا راكدًا. أعجبه أن يمشي دون أن يعرف أين ومتى يتوجب عليه الدوران والعودة. لم يرغب أيضًا في مقابلة أحد، ناهيك أن يسأله أحد: من هو، وماذا يفعل هنا، حتى لو اعتقدوا في القرية أنه أحد أقرباء نويجيباور أو أحد أصدقائه. هذا النويجيباور يتجرأ ويعطي الآن نصائحه الضرائبية في ركن الاستشارات بصحيفة "الشعب"، لكنهم قد لا يعرفون شيئًا هنا عن ذلك. ربما كان بالنسبة لأهل القرية مجرد شخص يقود سيارة فارتبورج، يتحدث باللكنة الساكسونية ويعمل في الحديقة حتى الإنهاك، والآن - لأي سبب كان - اختفى وأهمل منزله.

راح مويرر يفكر: هل يتوجب عليه الآن خلع القميص؟ إلا أنه كره أن يسير نصف عارٍ. على حافتي الطريق تكاثرت نباتات "بنات النار" القرّاصة العالية.

بعد عشر دقائق وصل مويرر إلى شونة مبنية بالطوب. كانت ماسورة تصريف المطر بها وكذلك مواسير المجارى مصنوعة بعشوائية من البلاستيك، وفى أكثر من مكان كانت الوصلة بين الأجزاء قد تفككت. أمام البوابة نمت أعشاب بكثافة شيطانية وغطت جهازًا صدئًا لم يستطع أن يعرف لأى شيء يُستخدم.

امتدت حقول الحبوب متماوجة تصل حتى ربوة لم يظهر وراءها الطريق المؤدى إلى العمارات سابقة التجهيز إلا كشريط داكن. من هناك أقبلت ناحيته سيارة.

من بعيد تناهى إلى سمعه أزيز طائرة. يستطيعان - لو أرادا - أن يقوما بإجازة مثل بقية الناس، ويستطيعان شراء سيارة جولف بالتقسيط، دون أن يصلا إلى حد الإفلاس. ما زال معه بعد استبدال العملة القديمة ١٢ ألف مارك ألمانى. ثلاثة أشهر قبلها كانوا "يخدعونه" فى الجريدة، على حد تعبير زوجته.

تنحّى مويرر جانبًا حتى تمر السيارة دون أن تنحرف عن الطريق. تباطأت الفيستا البيضاء، ثم حياه السائق الذى كان يصغره عمرًا ومع ذلك نصف أصلع.

يدفعان الإيجار من معونة البطالة التى يتلقاها، ويدخران المبلغ الضئيل المتبقى. راتبها كسكرتيرة فى مكتب نويجيباور للمحاسبة والاستشارات الضرائبية كان يكفى للمصاريف الأخرى. اشتريا مؤخرًا جهاز تليفزيون ستريو بالألوان وجهاز سى دى وعصّارة ومجففًا للشعر.

فى فبراير ٩٠ سافرا بالأوتوبيس إلى فنيسيا وفلورنسا وإلى ما قبل أسيزى بقليل. فى الخريف ينويان قضاء أسبوع فى بورجنلاند فى النمسا.

كان الطريق يمر بمنخفض ملىء بالغاب، ثم يأخذ فى العلو تدريجيًّا. هنا الجو ألطف. انحنى مويرر ولاحظ كيف يزحف جعران كبير أسود لامع متجنبًا الثقوب فى الخرسانة. قد يستطيع المرء هنا أن يتعلم شيئًا عن الطبيعة. "جعران"، قالها لنفسه. كان يعرف أنواعًا أخرى من الخنافس: الخنفساء المنسوبة إلى مايو، أو مريم أو البطاطس، ولكن ربما لم يكن هذا جعرانًا.

بالطبع لم يكن مويرر الوحيد الذى يعرف الكثير عن نويجيباور. إلا أنهم جميعًا لم يفتحوا فمهم حتى الآن، ولا حتى الصحف. عندما عرض عليهما "الكوخ" الصيفى أدرك مويرر على الفور أن نويجيباور ما زال يشعر بالخوف، أو أنه بحاجة إلى بواب بدون أجرة، أو أنه أرسله - مويرر - حتى يجس نويجيباور النبض، ويعرف إذا كان الناس هنا قد سمعوا شيئًا عن مركزه السابق.

اقترب منه جرار صغير يجر مقطورة كانت تتأرجح وهى تهبط وتعلو وفوقها أربعة أو خمسة رجال. انتحى مويرر ثانية ومشى على الشريط الضيق بجانب الخرسانة. كانوا فى وضع أفضل منه سمح لهم برؤيته، بينما هو لم يلمحهم إلا بالكاد. فى المرة الأولى حياهم عندما كانوا على بعد عشرة أمتار، ولما مروا به أومأ إليهم برأسه مرة أخرى. جاء الجرار من ناحية العمائر السابقة التجهيز. تصاعد الغبار فى

إثرهم. هتف أحد الرجال بشيء ناحية مويرر، شيء عن الماسورة أو النافورة، وفي سحابة الغبار والقذارة لمح الرجل في المقطورة واقفًا منتصب القامة ورافعًا ذراعيه بينما سنده الآخرون في وقفته. حبس مويرر أنفاسه مرة أخرى.

بعد ثلاثة أرباع ساعة وصل إلى تقاطع طرق. يمينًا كان الطريق بين الحقول يقود إلى الغابات والذى بدا أنه ينتهي بما يشبه المغارة. انحرف مويرر يسارًا.

ازدادت سخونة الهواء الآن. راح يفكر في إجازته المفضلة، الإجازة التى حصل عليها كجائزة. كانت الرحلة إلى آسيا الوسطى في سبتمبر ٨٦ . هناك مشوا في الظلام في حواري بُخاري عندما قالت زوجته: كأننا في فرن.

كان الفلاحون قد انتهوا من الحصاد في الحقول على كلا الجانبين. بين الجذامات رأى شيئًا مستديرًا فضيًّا، قطره يتراوح بين الثلاثين والأربعين سنتيمترًا. اتجه مويرر ناحيته. كان يعتقد أنه محرك، محرك كهربائي صغير، أو ربما لغم، أو صحن فضائي بالغ الضآلة. قبل أن يصل بخطوات استدار وأخذ يجمع بعض الحصى.

من الطريق أخذ يقذف الحصى تجاه القرص المعدني الذى يبرق بلون فضي منطفئ، وفي منتصفه علامة أوبل. عندما أصابه نجم عنه صوت مكتوم قصير "بم"، وكأنه صوت قرع كأسي شمبانيا ممتلئتين إلى الحافة. رمى مويرر قطع الحصى الأخرى واستكمل تجواله. لو لم يرَ

علامة الأويل لاقترب أكثر حتى يتعرف على القرص المعدنى. لم يكن يعتقد فى الأطباق الطائرة، بالرغم أن الأمريكيين فى قناة "برو ٧" التليفزيونية كانوا مقنعين فى زعمهم بوجودها. إنه لا يستبعد وجود الأطباق الطائرة على الإطلاق، ولكن فلنقل إنه لن يصدق إلا إذا رآها فى برنامج "أحداث ٢٤" الإخبارى. بلا وعى كان قد بلغ أعلى نقطة فى المكان. هذا شىء يحدث ببساطة. قد يكون ذلك احتياجًا طبيعيًّا، أى فى جينات الإنسان، أنه يطمح دومًا لاقتحام القمم. وهو أمر قد يكون ذا فائدة فى الصراع الداروينى بين الأنواع.

مد مويرر بصره يسارًا ليحيط بالسهل كله. فى الأفق انتصب مفاعلان نوويان. تحته، على المنحدر، رأى قرية بها برج كنيسة حجرى. حاول مويرر أن يقدر المسافة إلى هناك، ثم إلى المفاعلين النوويين. كان قد تخيل منزل نويجيباور على نحو آخر، بل وكل المنطقة المتاخمة لجبال الهارتس. تخيلها ألطف ومعتنى بها أكثر. لبرهة رأى الصورة المتخيلة أمام عينيه بوضوح تام، وكأن بإمكانه العودة من تمشيته إلى هناك. أصاخ بسمعه رافعًا ذقنه إلى أعلى، ولكنه لم يسمع سوى شدو القنابر.

فى البيت، فى الشقة الواقعة بالدور الأرضى فى شمال ألتنبورج، كان يهاجمه فى غضون دقائق قليلة الصداع. العجوز شميت - الذى كان مُلاحقًا أيام النازية - كان يكنس يوميًّا الرصيف. كان يكنس كل بلاطة ثلاث مرات، أربع مرات. ويالفظاعة عندما يخبط المقشة بالحائط. وفوق ذلك نحنحاته. بمجرد أن يسمع صوته فى الدرج، كان مويرر ينسحب إلى غرفة نومه، أو يذهب للتسوق. كان مويرر يحب أن يكون

عمليًا ويربط بين الأمرين، حتى لو جلس دون أن يفعل شيئًا. مَن لديه وقت، يمكنه أن يثرثر مع العجوز شميت عن أي شيء. في الظهيرة يأتي الأطفال الذين يظلون يخبطون كرتهم في جدار المنزل حتى المساء. ذات مرة أصابوا شباك قبو مويرر. منذ ذلك الحين يعتقد أن كل خبطة سيليها صوت تهشم الزجاج. طبعًا كانت حساسيته فوق المعتاد، إلا أن معرفته بذلك لا تغير من الأمر شيئًا.

عندما يأخذ القمامة من الشقة إلى الخارج يتوقع أن ينفتح شباك ويصرخون باسمه، وينهالون عليه بالشتائم حتى يلوذ بالفرار. الأسبوع الماضي ألقت زوجته نظرة فاحصة في دولاب الملابس وأخرجت بعض الأشياء القديمة وطلبت منه أن يحضرها إلى جمعية "التضامن الشعبي". أخطأ مويرر في رقم المنزل، وراح يدرس محتاراً الأسماء المكتوبة على منزل آخر إلى أن سأل صوت نسائي فوق رأسه عما يفعله هناك. لما تكاثرت الرءوس كان كل ما فعله هو العودة إلى منزله بخفي حنين، وبالكيس البلاستيكي الممتلئ. الخميس الماضي كان يريد التسوق في السوبر ماركت، ثم قابل في دهليز المنزل أحد الصنايعية. تناول مويرر الصحيفة من صندوق البريد – وكأن عليه أن يبرر شرعية وجوده هنا – وحشرها تحت إبطه، ونسيها. لم يلحظ وجودها إلا عند خزانة الدفع عندما شعر بالدفء الرطب تحت إبطه. وضع الصحيفة إلى جانب المشتريات على السير النقال ودفع. كان مويرر قد واصل سيره على الطريق المؤدي إلى القرية خلف التلال والذي انتهى بمنزل خشبي. وراءه ارتفعت أعمدة خرسانية. لم يعرف ما إذا كانوا يبنون هنا أم يهدمون، إلى أن رأى لافتة مكتوب عليها: "ممنوع رمي الأنقاض".

على طريق العودة كان على مويرر أن يسرع الخطى. مشى على حافة حقل من حقول الحبوب وشمس المساء ترسل أشعتها فى وجهه. أخذ يفكر فى الحفر التى قرأ عنها فى أحد المناجم التى توقفوا فيها عن العمل، وأن الحياة من الممكن أن تعود كما كانت قبل ملايين السنين، فقط إذا تركوا كل شىء على حاله، إذا لم يتدخل الإنسان. ربما يفعل مويرر الشىء الصحيح، فهو لا يفعل شيئًا تقريبًا. اعترته رجفة، ثم راح يحملق فى السنابل.

كان شىءٌ ما يتحرك بجواره. لابد أنها أجسام كبيرة – ربما خنازير برية. بعد أقل من خمسة أمتار قفزت غزالة عاليًا، ومثلها فعل خلفها أيل صغير، ثم مرة أخرى الغزالة. بعد ذلك قفزا مرة ثانية وكأنهما لوحة نيشان متحركة، ثم بقيا مختفيين، ولم يصدرا صوتًا إلا أثناء سيرهما عبر الغلة. كانت الدنيا قد أوشكت على الإظلام عندما قطع "شارع العمال" على البحيرة فى طريقه إلى الشارع المؤدى إلى القرية. أمام الكنيسة، وبين شجرتى زيزفون، رأى حجرًا تذكاريًّا لضحايا الحرب العالمية الأولى. حول الحجر كانت الأرض الطينية نظيفة من الأعشاب، ومحروثة على نحو زجزاجى. السور الخشبى المحيط بالحجر – بدت ألواحه الخشبية فاتحة اللون وجديدة – كان به باب صغير لابد من شد مزلاجه جانبًا إذا أراد المرء أن يخطو على الطريق المفروش بالحصى.

قرر مويرر أن يتفرج على الشاهد الحجرى فى الغد حتى يحصى الأسماء، ويحتفظ فى ذاكرته بعدد منها. من المؤكد أن كثيرين منهم كانوا – عندما ذهبوا إلى الحرب – يغادرون هذه المنطقة لأول مرة فى

حياتهم. ربما يكون السفر شيئًا غير طبيعى، على الأقل زائداً عن الحاجة فى عصر التليفزيون.

منزل نويجبياور هو الوحيد الذى لم يكن عليه صحن فضائى. على لافتة الأسماء عند مدخل البيت كان هناك شريط لاصق. قرأ خط زوجته: "ر. نويجبياور/ا. مويرر". قفل الباب، ونادى عليها.

فى غرفة النوم رأى أكياس المخدة تتدلى على حافة الشباك. ما زال دبوسان مغروزين فى الخشب. بدا الثقب فى اللوح الزجاجى شبيهًا بجذع إنسان، على رأسه كاب مرفوع. "يا مَرَة"، قال مويرر. هكذا صاح سائق المقطورة. أخيراً فهمه. "يا مَرَة"، سمع الآن الرجل يصرخ بصوت واضح تماماً.

لم يشعل مويرر الضوء، وسار إلى الحديقة عبر الباب الخلفى. وضع رأسه تحت مضخة الماء، ثم جفف نفسه بمنديله. شمر بنطلونه وأخذ يحرك قدميه بالتناوب تحت تيار الماء. جر ساقيه إلى الخلف محاولاً أن يمر بجوار الباب – الذى كان يستعصى على الفتح أو الإغلاق – دون أن يلمسه. خلع ملابسه كلها ما عدا الكلسون، وظل برهة واقفًا أمام السرير، ثم أخذ يتحسس بيديه باحثًا عن جاكتة البيجاما. قربها من أنفه، وذكرته رائحة مسحوق الغسيل والمكواة بالبيت. فى المطبخ أخذ يتأمل طويلاً المقلاة التى كانت فوق الموقد ممتلئة حتى منتصفها بالماء. رش بعضًا من سائل التنظيف، ثم سحب سكينة الخبز من درج أدوات المائدة.

تحت الغطاء سحب الكلسون ودسه تحت الوسادة. نفذت إلى أنفه رائحة الصندل الذى تشرب العرق من الداخل أثناء السير. مد ذراعه بأقصى ما يستطيع وسحب الصندل من الأبزيم، فردة وراء الأخرى، قانفًا به تحت السرير. ثمة ذبابة أو شيء أكبر يصطدم باستمرار بالحائط والسقف. هناك أصوات أخرى: السيارات فى الشارع، النافورة، الثلاجة، وقطرات الماء من الحنفية. أصغى بتركيز مجهد حتى أنه كتم الهواء، ثم أخذ أنفاسًا سريعة وهو يلهث.

لا يعرف مويرر كم من الوقت مر عليه نائمًا. جلس فى السرير ملصقًا فخذيه بجسمه. وصلت جاكيتة البيجاما إلى كعبه. اتكأ بظهره على رأس السرير الحديدى، وراح يحملق فى الشكل الإنسانى ذى الكاسكيت، وتحت الشكل كانت أكياس المخدة تتدلى على الحائط. مرة أخرى سمع صوت تهشم الزجاج الذى أيقظه من نومه. لم يبرح الصوت أذنه، هذا الأزيز الذى راح يتضخم ويتضخم مبتلعًا كل الأصوات الأخرى: الحفيف والهسيس والنقر والصلصلة والخشخشة والصرير. طاف الصوت فى الهواء كأنه طائر أو سحابة إلى أن اصطدم بالشباك. لم يكن هناك مفر. دون أن يحول بصره عن اللوح الزجاجى لمس بأرنبة أنفه ركبته. عندئذٍ فقط لاحظ مويرر أن زوجته كانت تغنى طوال الوقت افتتاحية باباجينو.

الفصل الثامن

أنفاس على عنقى

الدكتورة باربارا هوليتشيك تحكى عن مكالمة هاتفية ليلية: هَنى تقدم اعترافًا أثناء اللعب، وتستفسر عن الحياة مع رجل مشهور. الابنة والقطة والسلحفاة.

"نعم، بالطبع ليس إلى الأبد"، أقول وأنا أحشر السماعة بين الأذن والكتف، وأمسك بالتليفون بيد وأحاول باليد الأخرى فك الاشتباك بين أجزاء السلك اللولبى.

"هل أيقظتك؟"، تسألنى هَنّى.

"كم الساعة الآن؟"

تهتف هَنّى: "يا خبر أبيض! لقد أيقظتك. أنا متأسفة يا "بابس"، ولكننى كنت أعتقد أنكم تسهرون دائمًا، وإلا ما كنت أيقظتك!"

جلد الكرسى المعدنى ذى العجلات بارد. أحاول اصطياد قميص فرانك. لمدة دقيقة توجب على إبعاد السماعة عن أذنى. "... قرأتها، وسألونى ..."، قالت هنَّى، "عن أنسب أوقات العمل بالنسبة إليه، فقال ليلاً، من أجل الهدوء، فى الخارج والداخل. أنا تقريبًا لم أتعرف عليه عندما رأيت الصورة." أثناء مواصلتها الحديث ألقى قميص فرانك على أكتافى. "وكيف هى الحياة مع رجل مشهور؟"

"هنَّى!"، أزفر بضيق. "كم الساعة؟"

"الثانية عشرة تقريباً"، قالتها ثم تحدثت مع شخص آخر. "بابس؟".

"نعم"، ثم أسألها: "فى أى جحر تختبئين الآن؟"

"نحن نحتفل بعيد ميلاد." يختلط حديث الناس الواقفين خلفها، ثم يقهقه رجل.

أسألها: "هل حدث شىء؟"

"لا. لماذا تسألين؟ كل شىء على ما يرام يا بابس"، تقول هنَّى، ثم تضيف: "نحن نلعب لعبة، ومن قواعدها أن يقدم المرء اعترافًا. إنهم يقفون جميعًا حولى حتى أعترف. أتسمعين؟" إنها لعبة. سأعترف الآن!"

"أى لعبة هذه؟"

"إذا خسر المرء فعليه أن يتصل بشخص كان يحبه فى وقت ما دون أن يعترف له بذلك أبداً"، ترد بسرعة. "مجرد لعبة. هل أنت غاضبة؟"

"هل تريدين التحدث مع فرانك؟"

"معك أنت يا بابس، معك أنت بالطبع. هل أنت غاضبة؟"

أسألها: "كنتِ تحبينني؟"

"نعم، يمكنني أن أقول ذلك. هل تسمعين التصفيق؟ إنه لنا يا بابس. عندما قرأت التقرير عنك وعن فرانك، في جريدة يوم السبت، اجتاحني الشوق. أحضرت دفاتر مذكراتي القديمة، وشعرت بالرغبة في التحدث معك مرة أخرى. والآن قد خسرت. هل تجدين الأمر سخيفًا؟"

"لا"، أقول لها.

"الرجال يسخرون من النساء اللاتي يعترفن لهم بشيء كهذا. لا يستطيعون التعامل مع مثل هذا الموقف. أنا كنت دائمًا معجبة بك. كنت أشعر بالسعادة عندما تعاملينني بلطف، ولكنك تعاملين الجميع بلطف. كنت أريد أن تكوني صديقتي، أنا وحدي."

أنتظر حتى تواصل التحدث، ثم أقول لها إنني أساسًا إنسانة خجولة.

"لا أصدق ذلك"، تقول هنّي. "أنت تقللين من قدر نفسك، لهذا تتحدثين هكذا. إنك تملكين أفضل الرجال. هذا يثبت لك أنك إنسانة فريدة من نوعها."

أسألها: "كيف حال عائلتك؟"

"تعنين ابنتي؟"

"نعم"، أقول، "ربيكا".

"تقصدين ساره. ليس عندي غيرها إلا بيجي وفريدولين."

يبدو أن هنّي تدخن. "ليس فريدولين للأسف سوى سلحفاة. عندما يتقدم بي العمر مثله، يعني عندما أتقاعد - هذا إذا وصلت على الإطلاق لسن التقاعد - فإن فريدولين سيكون ما زال على قيد الحياة، وسيتحتم عليّ أن أجد شخصاً يتولى أمره. شيء يجنن، أليس كذلك؟"

"نعم. أمر لا يمكن تصوره."

"رجل مخلص بحق ... الانتقال إلى الشقة الجديدة لخبط عقل بيجي تماماً. إنها في غاية الاضطراب."

"بيجي؟"

"قطتنا. ينبغي على أن أفتح عيادة لعلاج الحيوانات نفسيًا. إن الحيوان العزيز مثلنا تماماً."

"سأقرأ مقالاتك."

"مقالات! إنها سطور منشورة في صحيفة الإعلانات المجانية، ركن الاستشارات والنصائح. لم أعد أستطيع أن أفعل شيئًا آخر. أشخاص مثل فرانك - نوّاب شعبنا - يريدون دائمًا أن نكتب طلبات ونقدمها. لم أعد أكتب إلا طلبات أشكو فيها من البنائين، غير ذلك أتودد إلى رجال البنوك وألقي محاضرات في نادي الروتاري لأنهم وعدونا بجهاز لعرض الشرائح الفيلمية. هل ما زلت تعملين؟"

"ولِمَ لا؟"

"يعنى، إذا فازت جماعة فرانك فى الانتخابات فستصبحين زوجة معالى الوزير، على الأقل. لقد انتخبت مرة الخضر، لكننى لا أستطيع أن أنتخب ضد مصلحتنا ... إذا فعلت ذلك فسنحصل للمتاحف على نقود أقل ... هل تعلمين أننا تعارفنا منذ ١٨ سنة؟"

"منذ الفصل الدراسى التاسع"، أقول لها.

"عند رقم كهذا أشعر بالغثيان."

"أى رقم؟"

"أترين؟ كنت أعرف أنك لا تشعرين بذلك. لقد استفدت من الوقت. أما أنا فأشعر بالاختناق، بالرعب الحقيقى. مع الخامسة والثلاثين يكون ثلثا العمر قد فات."

"هَنّى! النصف على أكثر تقدير."

"لا"، تقول بحدة. "ليس بالنسبة لنا. الأمر مختلف بالنسبة للرجال. لم أعد أعيش فى الوهم. أنتَ متزوجة يا بابس ..." هَنّى تسحب نفساً من سيجارتها.

فى الممر يُشعَل الضوء.

"أما أسوأ شىء فهو أن كل ما كان قد ذهب وراح، الناس راحوا .."

يظل فرانك واقفًا فى إطار الباب، ثم يتكئ عليه مادًّا رأسه إلى الأمام وكأنه يريد التنصت. أهمس إليه: "هَنّى." تنقلب ملامح وجهه. لديه عند الخصر كدمة زرقاء تميل إلى اللون الأخضر.

"... وأعرف أيضًا لماذا"، تقول هَنّى، "لأننى لا أتحمل الحياة وحدى. يعنى، أستطيع أن أكون بمفردى، لكننى أفكر عندئذٍ أن الإنسان مكانه بين البشر، وأنه لابد أن يقع فى غرام أحد. المتزوجون لم يعودوا يسمحون لى بأن أقترب منهم. إنهم خائفون منى."

أسألها: "أتعتقدين ذلك؟" فجأة يركع فرانك بين قدمىّ.

"أعتقد ماذا؟"

"ما تقولين." يسحب فرانك القميص جانبًا ويُقبِّل ثديى.

"طبعًا"، تقول هَنّى. "ماذا يمكن أن أعتقد؟ إننى أرى ذلك. الأذكياء يهربون من هنا. من يبق، يلعب مثل هذه الألعاب. اليوم هو عيد ميلادى يا بابس، عيد ميلادى!" أجدنى مجبرة على رفع السماعة لأن فرانك يلتصق بى. جسده دافئ للغاية.

هَنّى تواصل حديثها. "... قبل الأمس، يوم الأحد، كنت ما أزال نائمة. وفجأة سمعت ضجيجًا جهنميًّا فى المنزل. رنين أجراس، واصطفاق أبواب، وهرج ومرج. أعى نصف وعى بكل هذا، ثم يرن جرس شقتى. عندما وصلت إلى الباب كان الهدوء التام يسود المكان. أقول لنفسى إذا كانوا يريدون شيئًا فسيدقون الجرس ثانية، أليس كذلك؟"

فرانك يعضنى فى كتفى.

"إذا أرادوا شيئًا فسيرجعون. أعود إلى السرير، الساعة الخامسة والنصف، ما زالت الدنيا غارقة في الظلام، ثم أسمع صوت النساء مرة أخرى. ما أكاد أرقد على السرير حتى أسمعهن ثانية. أتعرفين ماذا يفعلن؟ إنهن يتواعدن على الإفطار. أقف خلف باب الشقة وأسمع كل حرف. يتواعدن على الإفطار لأنهن لا يستطعن الآن النوم. ولا أنا أيضًا. إذا استيقظت من نومي أظل مستيقظة، هذه عادة ورثتها عن أمي، لكنني لا أستطيع أن أفتح الباب الآن. الآن، لا. ثم أفكر ... آه، دعينا من هذا الموضوع. ماسورة مياه انكسرت في تلك الليلة. صباح الأمس جلست أمامي في الأتوبيس امرأة نحيفة كالعصا، راحت تلتهم قطعة من الكعك وراء أخرى. كانت تُبعد الورق المحاط بالكعك بأظفارها ثم تحشر القطعة في فمها، ثم تتفتت. كان الكيس الذي يحوي الكعك يتزحلق دائمًا فوق ركبتها. راحت تلتهم وتلتهم، وبين القطعة والأخرى كان الكيس يتزحلق فوق ركبتها."

أقول لها: "لا أحد يجبرك أن تنظري إليها." فرانك ينهض ويذهب إلى الحمام.

"الخيل أصابهم جميعًا. لم أعد أعرف ما الذي يبقيني هنا؟ الوضع الآن كما في السابق. الكل يرحل. ساره تريد الآن أن تذهب إلى والدها بعد أن بلغت السادسة عشرة. لم أعد أراها، تقريبًا لم أعد أراها. يمكنها أن تذهب إليه، ساعتها لن أحمل همها. إنه الآن في وضع رائع، لديه الابنة، والسيد بابا يستطيع أن يفتخر بابنته. ولكن لما كنت أجري كل ليلة إلى طبيب الإسعاف بسبب حالات الربو، آنذاك كان بابا يختفي

كأنه فص ملح وذاب. أما النقود فلم يدفع إلا ما يتوجب عليه. كان يدفع صاغراً وصامتًا. والآن يتصل النذل تليفونيًا. ظلت ساره تبكي لمدة أسبوع، وفجأة قررت الذهاب إليه، وأخذت تدخن بشراهة. كنت أعتقد أن أمرى لم يعد يهمك أنت أيضاً.

"لأننى متزوجة؟"

"لقد خاطرت بكل شىء وقررت أن أتصل بك. كنت غريبة جدًا فى آخر مرة، ومن ساعتها لم أسمع منك شيئًا. إذا لم أبادر أنا بالاتصال بالناس لا يتصل بى أحد. هذا هو الأمر ببساطة."

"لم تكن أمورى على ما يرام، صدقينى."

"بسبب الغُرير؟"

"نعم، بسبب الغرير."

عندئذٍ تصمت هَنّى. لأول مرة تنشأ فترة صمت بدت وكأنها كابوس. أستطيع أن أسمع أنفاس هَنّى. أسألها: "هل لديكم الآن غرير؟" يقع صوتى على الأذن عادياً تماماً.

تجيب هَنّى: "لا. يؤسفنى أننا لم ننطلق معًا فى ذلك اليوم، ولكن ليديا، المُحنطة، أتعرفين، إذا كان عليها أن تقود مجموعة داخل المتحف، إذا فعلت ذلك وحدها، فعلى كل شىء آخر السلام. إنها الفوضى مجسدة. حالة تصلح لك."

"أهلاً وسهلاً"، أقول لها. فرانك يعود من الحمام ويترك ضوء الممر مشتعلاً.

"أود أن أراك ثانية، يا بابس، هكذا من غير مناسبة، نقضى أمسية جميلة مع بعضنا نحن الثلاثة، أو أنت وأنا، من غير مناسبة، ثم ندردش ونثرثر حول كل شىء. أتجدين الفكرة سخيفة؟"

"لا، أبداً."

"أن يرى المرء شخصاً من الأيام الخوالى. أتفهمين هذا الشعور؟"

"نعم"، أقول لها وأعدها أن أتصل بها وأننى لن أؤجل الأمر طويلاً.

"بابس"، تقول هنّى فى نهاية المكالمة، "أحبك فعلاً، بدون أسباب. هل تصدقيننى؟"

عندما وضعت السماعة كان سلك التليفون اللولبى قد التف حول بعضه البعض وتداخل فى بعض المواضع وكأنه سوسته. أرفع الجهاز بيدى وأضع السماعة على الأرض. السلك يتمدد. أرفع الجهاز إلى أعلى إلى أن تبدأ السماعة فى الدوران فوق السجادة. يستغرق الأمر على الأقل دقيقة إلى أن يتأرجح السلك يميناً ويساراً وقد انحلت كل عقده. أعيد الجهاز إلى الطاولة وأضع السماعة فوقه.

"هل حدث شىء؟" يتساءل فرانك.

"كلا"، أقول وأخلع قميصه وأرميه فى الاتجاه الذى أخمن فيه مسند الكرسى. "كانت سكرانة إلى حد ما"، أقول له ذلك، ثم أشعر بقصبة قدمى تصطدم بالسرير. "إنها تعتقد أنك مشهور، وأنك تسهر فى كل أمسية فى حفلة من الحفلات الكبرى، وأنا ألعب دور السيدة الأولى".

يحرك فرانك رأسه ويتوسد كتفى، ويضع ساقه اليمنى المثنية فوق ركبتىَّ. شيئًا فشيئًا أتعرف على الخطوط الخارجية للدولاب وعلاقات الملابس والشماعات وإطارات الصور، على المصباحين، والمرآة المعلقة عليها سلسلتى، وعلى الكرسى.

أشعر بأنفاس فرانك على عنقى، دافئة ومنتظمة. منهكين تمامًا نكون دومًا فى المساء. أعرف أننى لن أستطيع الاستغراق فى النوم. أعرف هذا الشعور جيداً. لا يتبقى حتى السادسة والنصف إلا ست ساعات.

أفضل شىء أفعله أن أنهض الآن وأنجز بعض الأشياء. لابد أن أكتب لأمى وأسألها عما تنوى أن تفعله فى عيد الميلاد. نخطط أن نسافر إلى تنريفا، ونبقى هناك حتى الأسبوع الثانى من يناير. فى السابق لم تكن هناك أى مشكلة مع أمى، ولكن منذ زيارتنا الأخيرة – أخذت أربط حذائى فى المدخل وإذ بى أرى كرة هائلة من الغبار والشعر عالقة برباط الحذاء. اعتقدت أنها ستسقط من تلقاء نفسها، إلا أنها دخلت تحت العقدة، وهكذا فككت الرباط وحملت الوساخة إلى صفيحة الزبالة، ثم غسلت يدى. راقبتنى أمى طوال الوقت ولم تجد شيئًا يستحق التعليق. على الأقل لم تقل شيئًا. فى فبراير ستتم الثامنة والستين. حتى الآن كنت أتعجب من أنها تتسوق بطريقة شبه آلية، تشترى سجقًا مغلفًا أو جبنة من رفوف السوبر ماركت، ونادراً ما تبتاع شيئًا طازجًا، ولا تشرب إلا نسكافيه، وتقول إنها تحب طعمه أكثر من القهوة الطبيعية، نسكافيه

جولد. الفناجين البيضاء الزرقاء الجميلة موضوعة منذ سنوات دون استخدام خلف طاسة التحمير الكبيرة. عندما نكون عندها نشرب من أكواب تشيكية كانت تباع المسطردة بها، وكانت ذا حافة ذهبية يومًا ما. الأطباق والمواعين تأخذهم مباشرة من ماكينة التنظيف، ثم تعيد الأشياء إليها. إلى ذلك اليوم لم أكن حتى قد لاحظت أن أمي أصبحت عجوزًا ينبغي على أن أهتم بأمرها قريبًا.

رجفة تعترى ساق فرانك. أنفاسه الحارة تصيب دائمًا المكان نفسه في عنقي. أثنى قدمي بعض الشيء، وأشعر بأظفار أقدامي على سطح غطاء السرير.

لم أهنئ هنّي بعيد ميلادها. لا أعرف ماذا أتمنى لها. أنادى: "فرانك". ما زال يؤلمنى الموضع فى كتفى حيث عضنى. عبر إحدى الشرائح المثنية في شيش النافذة يتسرب ضوء. أستطيع التعرف على المواضع البارزة في ورق الحائط. أتخيل دورات سماعة التليفون المتأرجحة حتى أتعب وأنعس. أنفاسه حارة لا تطاق. أقول بصوت خافت: "فرانك". ساعده يضغط على أضلاعي، وأصابعه تلمس عمودي الفقري. "فرانك"، أهمس، "لقد قتلت شخصًا." أستدير ناحيته، وأرقد على جانبي. نبضات قلبي تهدهدنا، السرير كله يتأرجح.

أحيانًا يكفى نوم قليل فى الصباح حتى ينسى المرء ليلة كهذه. عندئذٍ تنصهر الساعات التى قضاها المرء راقدًا مستيقظًا وتتجمع فى لحظة، ثم تتساقط كحلم، وكأن شيئًا لم يكن.

لابد أن أنهض وأقوم بشىء نافع ومفيد، لكننى لا أعرف أين أبدأ.
أنشغل بحساب عمرى وفق "سنوات القطط". سنوات القطط هى حاصل ضرب الرقم فى سبعة. أعمار السلحفاة تكون ناتج القسمة على سبعة. ولكن ليس هناك "سنوات السلحفاة".

الفصل التاسع

الموزِّع

لماذا لا يستطيع رافائيل صاحب شركة التاكسى أن يقطع من جلده ويوفر فرصة عمل لشخص فى شركته؟ ولماذا لا يصلح أورلاندو للعمل سائقًا؟ ارتباكات مقصودة وغير مقصودة. الجو أدفأ من المفروض فى مثل هذا الوقت من العام.

رافائيل يجلس فى غرفة المكتب. سبابتاه تتجولان فوق أزرار الكمبيوتر. نظراته تتنقل بانتظام بين الشاشة وكتاب. على حافة المكتب علبة شيكولاتة "تيفوليه" فارغة. بين الحين والآخر يمسح كفيه فى أعلى فخذيه.

يسمع رافائيل وقع خطوات على درج السلم. يتطلع نحو الباب، ثم تعتريه رعشة عندما يرن الجرس.

"رافائيل"؟ مقبض الباب يتحرك. يرن الجرس مرة أخرى. "رافائيل؟ ماذا حدث؟ إنه أنا، أنا"! مقدمة حذاء تصطدم بالباب المعدنى الذى ينفتح بعد أزيز قصير.

"لماذا تصرخ فى المنزل كله"؟ رافائيل يغلق الزر الأعلى فى بنطلونه وهو ينهض. "قبل أن تجلس أغلق الباب جيداً".

أورلاندو يضع حقيبته ويضغط بركبته على الباب، ثم يشد على المقبض، ويقول: "مغلق".

رافائيل يسير فى اتجاهه. "هه؟ كيف حالك؟ هل ازددت طولاً"؟ أمام أورلاندو يرفع رافائيل يديه عاليًا. "لن أسلم عليك، وإلا سأنقل لك العدوى. هل تريد تأسيس جماعة أزياء شعبية"؟

"يسمونه (جانكر)"، يقول أورلاندو ويفك أزرار الجاكتة البافارية، ثم يلف الشال حول رقبته. "أستطيع أن أبدأ".

"متى خرجت؟ حذاؤك جديد".

"اليوم".

"وعلى الفور إلى هنا. بحاجاتك ومحتاجاتك"؟

أورلاندو يومئ برأسه.

"لم يعطوك أجازة مرضية"؟

"أستطيع السواقة، بدون مشاكل، فعلاً".

يسير رافائيل إلى مقعده وينهار فوقه. "سمِنت يا أورلاندو".

"كانوا يعلفوننا جيداً".

"منذ توقفت عن التدخين ..". رافائيل يربت على باطن فخذه. "دهن الشتاء. دائمًا ألاحظه هنا أولاً".

"أعطني سيارة من فضلك".

يرفع رفائيل يديه مرة أخرى ثم ينزلهما على مسند المقعد.

"كنت سائقًا جيداً".

"أعلم يا أورلاندو". ينزلق رافائيل على مقعده إلى الأمام، ويقلب في مفكرته.

"كنت بالفعل سائقًا جيداً! أنت نفسك قلت هذا".

"لمدة خمسة أسابيع يا أورلاندو، خمسة أسابيع". رافائيل يقلب صفحة وراء الأخرى. "أربعة أسابيع وخمسة أيام إذا أردنا الدقة".

"ستة أيام في الأسبوع، سبعة أيام، ١٢ ساعة، ١٣ ساعة".

"وهل تعلم كم ساعة أجلس أنا هنا؟ هل فكرت مرة في هذا؟ أنا ليس لدى وقت لابتلاع قرص أسبرين. المفروض أن ألازم الفراش، عندي حمى. هل تريد أن تتأكد"؟ يضع رافائيل يده مسطحة على جبهته.

"أنا سائق تاكسي".

"كل واحد سائق تاكسي اليوم يا أورلاندو. كل واحد يظن أن بإمكانه أن يعمل سائق تاكسي. كل كلب يعتقد أنه سائق تاكسي! لا تصعب الأمر عليّ من فضلك"!

"سأفعل كل ما تريده مني".

"كانت محاولة يا أورلاندو. من فضلك، أنا حاولت، لكن الأمر فشل. والفشل كان ذريعًا جداً".

"كان الرجل سكرانًا".

ينطق رافائيل بكلمة، تقريبًا بلا صوت، وكأنها زفير مفاجئ. "طيب، ما الجديد"؟ يغلق المفكرة ثم ينهض. "اليوم آخر مباراة على أرضنا".

"كان سكرانًا، وهو الآن في السجن يا رافائيل"!

"أى الفريقين تشجع؟ طيب، اجلس. ممكن أقدم لك فنجان شاى؟ تشرب معى"؟ يذهب رافائيل إلى الثلاجة الموضوع عليها ماكينة صغيرة لإعداد القهوة وفناجين وخبز محمص وبرطمانان من المربى. "فى العام الماضى لم ينقذنا إلا الجو الزفت، أنقذنا نحن وتجارة الوقود، وإذا لم يتغير الوضع سريعًا، فسوف ... "سى لا فى"، هكذا هى الحياة. فى السابق كنا نأمل أن يتأخر الشتاء فى قدومه وأن يمضى سريعًا، ومع ذلك كنت دائمًا أتطوع أن أقوم بقيادة كاسحة الجليد عند هطول الثلج لأول مرة، هذا إذا لم يكن عندى وردية. عندما كان الثلج يهبط كثيفًا كنت أقود السيارة الكاسحة، فى الغالب ليلاً، عندئذ تخلو الشوارع من أى آثار وتقود السيارة وحدك فى الطريق، ولا شىء أمامك سوى الثلج البكر، شىء رائع"!

"إنه الآن فى السجن يا رافائيل. وما حدث لن يتكرر"!

"(ما حدث لن يتكرر) . يمكنك أن ترحل إلى برلين، إلى هامبورج، أو إذا أحببت إلى لايبتسج، ولكن هنا لا! ألا تفهم هذا؟ (ما حدث لن يتكرر). إذا تكرر هذا فربما تتلقى السكين فى ظهرك ..". رافائيل يلقى فلتر القهوة المستعمل فى سلة المهملات، ويغسل الإبريق الزجاجى ويملأ

الماكينة بالماء. "أوكى أورلاندو. حتى لو كنت أبالغ، فأنا لم يعد عندى سيارة أعطيها لك".

"أنت قلت ..".

"أنا قلت إننى سأساعدك. هذا ما قلته. إلا أننى لم أقل إننى سأقطع لك وظيفة من جلدى". يمسح يديه فى البنطلون. "دع أظفارك فى حالها. أنت لم تعد حتى تلاحظ ذلك. أنصحك بالذهاب إلى هوليتشك هذا، هذا الرجل من برلمان الولاية. لقد كتبوا فى الصحيفة أنه يريد مساعدتك. لماذا لا تذهب غداً إليه، وتشكره على زيارته وعلى الزهور، ثم تسأله عن تصوره لمساعدة الذين لهم لون بشرة مختلف". رافائيل يضغط على زر تشغيل ماكينة القهوة. "ها أنت تبحلق فى وجهى. هل تستطيع أن تقول لى ما فائدة التأمين الصحى إذا كان على رب العمل أن يدفع للعامل ستة أسابيع من لحم الحى؟ أنا أدفع خمسة أضعاف لشركة تأمين السيارات، والبنزين لا يرخص. وفوق كل هذا تأتى البلدية وتلغى أماكن الوقوف عند البركة، وبالنسبة للشرطيات فإن كل السيارات تتساوى. وفى النهاية ... يارينا"، رافائيل يهدأ فجأة، "وأخيراً لا تنسَ أنك مهندس ميكانيكا، معك دبلوم من هافانا، ودبلوم آخر من جامعة دريسدن التقنية، هذا غير دورات إعادة التأهيل التى قمت بها. بالإضافة إلى هذا فإن معلوماتك عن الكمبيوتر أفضل عشر مرات من معلومات كل القرود الذين ركبوا لى هذا الشىء، لكنك لست سائق تاكسى، يا دكتور! ألا تحصل على راتب كامل من الحكومة"؟

"لا". أورلاندو يشمخ بأنفه عالياً، ويدير وجهه. رافائيل يمسك بكتفه.

"ومع ذلك"، يقول رافائيل. "انظر لى أنا. لست سائق تاكسى يا دكتور، لست سائقًا، أتفهم؟ كما أننى لا أستطيع أن أضرب الأرض فتنبت بطيخًا، أو أن أجعل السماء تمطر ذهبًا! الجميع بحاجة إلى مساعدة. والكل واقع فى مشاكل، الكل"! يضغط رافائيل بسبابته الممدودة على سوالفه. "هذا هو الوضع! ثم طاخ..". ويثنى إبهامه وكأنه يضغط على زناد. "طاخ! أنا لا أستطيع إنقاذ العالم كله. ما أستطيع إنقاذه هم أربع وظائف ونصف وظيفة. إذن لابد من التركيز يا أورلاندو! لم أعد أريد اضطرابًا وارتباكًا فى عملى، ألا تتفهم ذلك؟ ودع أظفارك فى حالها، ارحمها"! يسير رافائيل عائدًا إلى الثلاجة ويفتح الباب. "هل تعلم متى أنا وبترا ... متى لمستها آخر مرة؟ فى عيد القيامة! دافيد أراه، أحيانًا، فى نهاية الأسبوع. وفى نهاية الشهر تتوالى المصائب. أقساط السيارات، إيجار المكتب، التليفون، الرواتب، أقساط التأمين ... يكفى ما ذكرته. كم الساعة الآن".

"تسعة".

"الشوط الثانى. هل سألت نفسك مرة لماذا أشجع فريق دورتموند"؟

"من أجل زَمَر"؟

"لا".

"من أجل أندى ... أو مولر"؟

"أتريد أن تعرف؟ إذا نجح بروسيا دورتموند فى الفوز بالبطولة، إذا حصلوا على اللقب هذا العام، فسأجتاز محنتى أنا أيضًا. أعرف

هذا. أما إذا لم يفعلوا فسأشهر إفلاسى. سألقى بالمنديل وأعلن نهاية الجولة. عندئذٍ يمكنك أن تحصل على كل سياراتى! هل ما أقوله يستدعى الابتسام؟ فى وقت ما لابد من النهاية، هكذا أو هكذا. بترا تدفع كل شىء: الشقة، الطعام، أشياء دافيد، هدايا عيد الميلاد. أنا الذى كنت أريد أن أكون أول من يُخرج عائلته من هذه المدينة"! رافائيل يخبط بكفه على ماكينة القهوة التى استخدمها لغلى الماء. "لابد من إزالة الجير المترسب. أى نوع من أنواع الشاى تفضل؟ أخضر، نعناع، إيرل جراى، الكرز البرى، أم شاى إنجليزى؟ لدى شاى عيد الميلاد أيضاً".

"الكيل يفيض دائمًا بالبعض، ولذلك يهاجرون – أنت قلت هذا ذات مرة يا رافائيل".

رافائيل يلمع الأكواب الزجاجية، ثم يضع فى كل منها كيسًا من الشاى، ثم يلقى بأطباق فيلينية صغيرة فوق المكتب. "خلاص، يمكن أن تعمل عندى من عيد الميلاد إلى رأس السنة. اقعد أخيراً، ودعنا نتحدث". يلتقط قوالب سكر من العلبة الكارتون.

"لا". يقول أورلاندو.

"ألا تريد أن تقعد؟"

"ليس كمساعد يا رافائيل".

"لم يعد لدى ليمون". يضع علبة حليب بين الكوبين، ثم يجلس ويتناول سماعتى التليفون فى وقت واحد. "دائمًا أقول لنفسى: هناك من يخرب شركتى. هل تستطيع أن تقول لى لماذا لا يتصل أحد؟ فى هذه

المدينة يعيش ٤٨ ألف جحش! لنقل ٤٧ أو ٤٥ - كنا فى يوم من الأيام فوق الخمسين ألف يا أورلاندو، خمسين ألف جحش! لماذا لا يريد أى جحش منهم أن يركب تاكسياً؟ لماذا لا يتوقف تليفونى عن الرنين؟ يمكنك أن تأخذ وظيفتى. سأبادل وظيفتى بكل سرور وفرح. عاطل عن العمل، لكن بلا ديون. أنت حر! يمكنك أن تفعل ما تريد". سماعتا التليفون ترتطمان بالجهاز.

"هذا جو سفر"، يقول أورلاندو. "ليس جو تاكسى". يأخذ سيجارة ويرشقها بين شفتيه ويضع العلبة على المكتب.

"إذا كانت جيوب الناس فاضية، فلن تمطر السماء فوق رءوسنا إلا الخراء! هذا هو كل شيء. متى تفهم ذلك! ولا تدخن هنا يا أورلاندو". رافائيل يحفر فى فتحة علبة الحليب. "لماذا لا ترحل من هنا؟ ماذا يبقيك فى هذه المدينة اليائسة، هه؟ رافائيل يلعق الحليب من إبهامه. "صباح اليوم قابلت زميلاً من أيام المدرسة. ذهبت إليه لتحيته، لكنه أخذ يحملق تجاهى ولم يقل حرفًا". رافائيل يمد رأسه إلى الأمام ويكور يديه كالمنظار فوق عينيه. "هكذا. لم أسأله إذا كان لديه عمل. حتى لو كان لديه فبالتأكيد سيعتقد أنه يكسب أقل من اللازم. كل الناس يعتقدون أننى رجل أعمال كبير، ربما أنت أيضاً. إذن لا يتبقى لى سوى أن أسأله عن عائلته وعن الأطفال، إلى آخره. وانتهت المقابلة"! يدفن رافائيل وجهه فى كفيه وكأنه قال كل شيء، ثم يمسح جبهته. "ألا تعرف! هكذا يصرخ فى وجهى. ثم يقول إننى لابد على علم بالأمر، حتى قبله هو! لا أفهم أى شيء مما يقول، ولا ما يجعله منفعلاً هكذا. ذقن طفله متدلية كأنه ديك

رومى، يقول. ثم يصرخ فى وجهى وسط الشارع: ليس هذا طبيعياً. فوق كل هذا يقول إننى أعرف قبله أن زوجته أنجبت بنتًا. لا أستطيع أن أتذكر ذلك، ولا حتى الآن! أنا لا أعرف حتى زوجته على الإطلاق! ومن أين؟ ومن قال لى؟ لكنه ظل يصرخ فحسب أن هذا ليس طبيعياً. حدث ذلك قبل ست سنوات يا أورلاندو، تخيل هذا، ست سنوات! بالتأكيد خلط بينى وبين آخر، ولكن، حتى لو كنت أنا الشخص الذى يقصده ... أتفهم"؟

"لا"، يقول أورلاندو بصوت خافت. هسيس يصدر عن ماكينة القهوة. البخار يتصاعد منها. الماء يملأ ربع الإبريق الزجاجى.

"إذا ظل شخص يحمل طوال ست سنوات هذا الغضب معه يا أورلاندو ... أتعرف ماذا يعنى هذا؟ هذا يعنى أن هناك من سيفرغ غضبه يوماً فى سيارتى، يعنى أن على أن أتوقع خدوشاً فى الطلاء أو تمزيقاً فى الإطارات! أفضل شىء ألا أغادر مكاتى هنا. يكفينى التليفون. عدا ذلك لا أجنى إلا المشاكل والارتباكات".

"أستطيع البدء على الفور، فعلاً. لم تعد الإصابة تؤلمنى. أتريد أن ترى"؟ أورلاندو يخلع الجاكتة البافارية والبلوفر، ثم يفك أزرار القميص حتى الحزام، ويخرج ذراعه الأيسر. يتكئ أورلاندو على المكتب معطياً ظهره إلى رافائيل، ثم يخلع الفانلة من كتفه الأيسر.

"من غير بلاستر"؟ رافائيل ينهض وينحنى فوق المكتب.

"لابد أن يكون معرضاً للهواء. كى يلتئم الجرح أفضل، هكذا نصحونى".

"الجرح كما يتخيله المرء". يمد رافائيل ذراعه ويتحسس بأنامله الندبة. "والخيوط؟ هل يؤلمك ما أفعل"؟

أورلاندو يهز رأسه. "أشعر بالزغزغة".

يربت رافائيل على كتفه. تنزل يده على ذراع أورلاندو، ثم يرفع له حمالة الفانلة. عند الملامسة التالية يبتعد أورلاندو عن حافة المكتب.

"أنت تشعر إذن بالألم"، يقول رافائيل ثم يجلس مرة أخرى.

بعد أن أغلق الباب خلف أورلاندو قام رافائيل بنزع الأسلاك عن الجرس حتى لا يرن. سار إلى النافذة وفتح الجزء العلوى بعض الشيء. أخذ يراقب أورلاندو وهو يضع الحقيبة على مقعد التاكسى الخلفى، ثم وهو يركب من الناحية الأخرى. عندئذٍ انطلق السائق.

تطلع رافائيل إلى الناحية الأخرى حيث يقع مكتبه القديم. النافذتان المطلتان على محطة الأتوبيس مُعتمتان.

"موَزِّع"، قال رافائيل. "موزع، موزع" أخذ يكرر، "موزع، موزع". الكلمات تزداد سرعة إلى أن تتفتت وتفقد معناها وتقع حتى على أذنيه هو موقعًا غريبًا، تمامًا كما كان يحدث لأغلب مَن يسألونه عن مهنته السابقة، فيقول لهم رافائيل "موزع". "موزع الشغل على التاكسيات فى ألتنبورج وبرنا وجايتهاين وشمولن، موزع، موزع، موزع، موزع ..". كلما طال حديثه، نشأت حروف أكثر غير متوقعة. يستمتع رافائيل بهذا الخلط الذى يسببه بنفسه. لا ينجح دائمًا فى مسعاه. فى الغالب تبقى الكلمة واضحة مفهومة، سيان، إلى أى نتيجة يصل.

على الفور يقف بجوار التليفون ويمد يده إلى السماعة. يتوقف لحظة ثم يرفع السماعة ويقول بهدوء: "تاكسى جونتر، مساء الخير".

"أنا على الخط".

"بهذه السرعة"؟، يتساءل رافائيل.

"ماذا تعنى"؟

"هل حمل لك الحقيبة إلى الشقة"؟

"أنا فى صحة جيدة يا رافائيل".

"طيب، كما تحب".

"هل يتصل بك سكان ألتنبورج الـ ٤٧ ألفًا"؟

"من"؟

"هل رن التليفون؟ هل طلب أحد تاكسياً"؟

"نعم. احتفال بعيد الميلاد، عدة مرات".

"ودورتموند"؟

"ماذا"؟

"هل فاز"؟

"فعلاً"؟

"أنا أسأل"

"آمل ذلك، هذا أملى".

"لقد استمعت إلى النشرة الجوية. درجة الحرارة ستبقى فوق الصفر. أما فيما يخص الأسبوع المقبل فهم أيضًا لا يعرفون كيف سيكون الجو".

"دائمًا يقولون ذلك. هذا هو أشد ما يغيظنى".

"عندك حق".

"من الممكن أن ينقلب الجو تمامًا الأسبوع القادم".

"طبعًا".

"أورلاندو"؟

"نعم"؟

"اعذرنى ... أنا عندى حمى. لم أرغب فى ... هل تفحص الكمبيوتر غدًا "؟

"سأفعل".

"لم يعد أى شىء يعمل فى هذا الصندوق".

"سأفحصه، طبعًا".

"أكون شاكرًا لك، شاكرًا جدًا".

"ستبقى إلى الحادية عشرة"؟

"نعم، إلى الحادية عشرة".

"عندك ما يكفيك من الشيكولاتة"؟

"شيكولاتة"؟

"لابد أن ندعوك رافائيلو وليس رافائيل، رافائيلو فريرو(*) ".

"أطلقوا على رافائيل نسبة إلى الرسام. لم يعد يعرف أحد هذا".

"رافائيل"؟

"بالضبط".

"وما علاقتك به"؟

"لا شيء. سأحكي لك ذلك فيما بعد".

"أنت ترسم"؟

"سأحكي لك بعدين، ليس الآن".

"كنت أريد أن أقترح عليك شيئًا يا رافائيل – هل تسمع"؟

"نعم".

(*) ماركة شيكولاتة مشهورة. (المترجم)

"أستطيع أن أعمل إلى أن أجمع كل المبلغ. لقد خطر هذا على بالى عندما وصلت إلى هنا. قل لى كم تكلف الأمر، الإعانة المَرضية وتكاليف التصليح و..".

"ماذا"؟

"أستطيع أن أعمل إلى أن أجمع كل المبلغ، الإعانة المَرضية وتكاليف تصليح السيارة ..".

"لا تقل كلاماً فارغًا يا أورلاندو".

"سأحضر غداً. وأنت تعرف أين تجدنى".

"هه".

"طيب، إذن يا رافائيل".

"هه".

"هل ما زالت على الخط"؟

"ماذا"؟

"الشخص الذى تم الاتصال به هو الذى عليه الآن أن يتكلم".

"يعنى أنا".

"تستطيع لو أردت أن تعد إلى ثلاثة".

"لابد أن أنهى المكالمة الآن".

"عليك الدور".

"نعم"، يقول رافائيل، ثم يضع السماعة.

"موزع"، يقول بصوت عالٍ ناظراً تجاه السلكين فوق إطار الباب. مثل قرون الاستشعار يبدو طرفا السلك العاريان. يشعر بقميصه لاصقاً تحت الإبطين وعلى الظهر. يشمر رافائيل كُمَّيه، ويسير إلى النافذة ويفتحها على مصراعيها. ينحني على النافذة ويقول: "موزع". "موزع، موزع". يواصل التحدث بسرعة وبصوت عالٍ. يعتقد رافائيل أنه يرى أنفاسه مثل سحابة من دخان، وللحظة يعتقد أنه يرى المحطة المغطاة بالثلج، لكنه لا يشعر بالبرد، ولا حتى قشعريرة أو رجفة. ما زال الطقس بالفعل أدفأ بكثير من المفروض.

الفصل العاشر

ابتسامات

مارتين مويرر يحكي عن لقائه بأبيه الحقيقي بعد أربعة وعشرين عامًا. اعتراف فجائي. المؤمنون يمرضون أقل ويعمرون أطول. سفر "أعمال الرسل" ومناشف المواعين.

يصعب على أن أحكي وقائع لقائي مع أبي كما عشتها آنذاك، أي أن أقول ما هو الانطباع الذي أثاره شخصه وحكايته في نفسي. ليس لأن ذاكرتي ضعيفة - فلم يمر على ذلك سوى أقل من عام - وإنما لأنني أعرف اليوم معلومات أكثر، بل ربما يمكنني القول إنني اليوم إنسان آخر.

في صباح يوم من أيام مارس عام ١٩٦٩ دخلت أمي الغرفة على وعلى بيتر قائلةً: أبوكم هرب. شدت الستائر وفتحت النافذة، ثم خرجت ثانية. كنت في السابعة من عمري، وبيت كان في الخامسة. "لا يهم. من يسألك في المدرسة احك له ما حدث. ليس لديك على الإطلاق ما تخفيه".

هكذا قالت لي أمي محذرة، قبل أن تذهب مع أخي إلى الحضانة، ولم نسمع منها عن هذا الموضوع أكثر من هذا.

بعد عيد ميلاد تينو في ١٣ فبراير ٨٨ أرسلت لأبي صورة لنا نحن الثلاثة. مع بطاقة التهنئة أرفق مائة مارك ألماني غربي. في أكتوبر ٩١ توفيت أندريا زوجتي إثر حادث. كتبت له هذا النبأ أيضًا. مع بطاقة التعزية جاءت مائة مارك أخرى. فيما بعد تلقيت بطاقة بريدية عليها تحيات من مورناو.

قبل عيد ميلاده الخمسين بقليل كان تينو، ابننا، قد انتقل إلى داني، أخت زوجتي. كانت ببساطة تتفاهم مع الصبي بطريقة أيسر. بعد عدة أسابيع اتصل بنا جارنا السابق توماس شتوبير وسألني إذا كان من الممكن أن أحضر له من مدينة بالقرب من ميونيخ سيارة جديدة من طراز بي إم دبليو بخمسة أبواب، عارضًا عليّ ٢٥٠ ماركًا، بالإضافة إلى مصاريف الطعام والشراب والسفر. لابد أنه سمع أنني عاطل عن العمل. وافقت على الفور.

ربما لا أعرف أنا نفسي لماذا طلبت رقم تليفون أبي قبل أن أسافر. ربما بدافع الفضول، أو لأنني كنت آمل أن أحصل منه على بعض النقود، فقد كان في يوم من الأيام رئيس أطباء.

اهتزت نبرات صوته في التليفون. قال لي "يا ابني". كتبت اسم وعنوان مقهى يجلس فيه خلال أيام الأسبوع بدءًا من الرابعة بعد الظهر. في المساء التالي اتصل أبي تليفونيًا، وقال إنك تعرف حالتي البدنية الآن، لذلك ينبغي ألا أُفاجأ. طوال ٢٤ عامًا لم يكن أحدنا قد رأى الآخر.

لم أنتظر كثيراً فى معرض السيارات فى جروبنتسيل. سألت نفسى فقط متى جلست خلف عجلة القيادة آخر مرة. من هناك قدت السيارة حوالى ساعة إلى أن وصلت إلى الحديقة الإنجليزية ووجدت هناك ثغرة ركنت فيها السيارة بدون أن أرجع إلى الوراء. سرت المسافة المتبقية على الأقدام.

فوق الرصيف العريض تناثرت الموائد المستديرة أمام المقهى مباشرة، وإلى كل مائدة كرسيان. بمجرد أن يبدأ الناس فى دفع الحساب كان المارة يقفون وينتظرون ثم يتدافعون - قبل أن يرفع الخادم الكئوس والفناجين - فى اتجاه الأماكن الشاغرة. جلست إلى امرأة كانت قد رفعت نظارتها ورشقتها فى شعرها، ثم راحت تتشمس. جاءت القهوة مع الفاتورة وقرص بسكويت.

جلت ببصرى يميناً ويساراً مثل المتفرج على إحدى مباريات التنس. حتى سيارات الأجرة السائرة ببطء كنت أراقبها. أخذت أغمس البسكويت فى القهوة الساخنة، ثم صببت الحليب المركز فى الفنجان حتى امتلأ إلى حوافه، وأشعلت سيجارة. عندما أفكر فى أبى تحضر دائماً أمام عينى صورة الزفاف التى كنا مرة خبأناها فى حجرة الأطفال. تخيلت كيف سأرمى السيجارة فى اللحظات القادمة ثم أشق طريقى بين الكراسى. فى تلك اللحظة رأيت رجلاً نحيفاً يسير إلىّ مباشرة. لدى كل خطوة كان المعطف على ما يبدو يلتف حول ركبتيه. قبل أن يصل إلىّ بقليل توقف. كان قد اقترب من المائدة بعد أن صنع نصف دائرة. مد بهدوء يده اليمنى والتقط بأصابعه الطويلة القذرة من

السكرية عدة قوالب من السكر. فتحت المرأة عينيها بعد أن أمست فجأة في الظل. بعدها مباشرة رأينا معطفه من الخلف يرفرف على كعبيه، ثم اختفى الرجل كفص ملح قد ذاب.

في الرابعة وقفت على حافة رصيف أمام المدخل. اعتقدت عدة مرات أنني رأيت وجهه.

بعد ذلك تعرفت على الفور عليه. أقبل ناحيتي يجرجر قدميه ببطء بالغ، ولكن بدون عصا. وضعت نفسي في طريقه.

"أهلاً يا بابا"، قلت له. لم أقل "بابا" أبداً من قبل.

"مساء الخير يا ابني". ابتعد برأسه قليلاً، ثم أضاف: "لم أعد أرى إلا باليسرى".

علق أبي ذارعه في ذراعي ودخلنا المقهى خطوة خطوة. كان أقصر مني.

"أبوك أصبح حطاماً"، ثم أكمل: "ظاهرياً على الأقل. ألا ترى ذلك"؟

"كلا. لماذا تقول ذلك"؟

نادلات المقهى كن يرتدين ملابس بنية فاتحة، وعليها مرايل بيضاء مشغولة بالكروشيه. رجعت إحداهن بظهرها واستندت إلى البوفيه الزجاجي الذي امتلأ بأنواع التورتات والجاتوهات والكيك، وذلك حتى نستطيع أن نعبر معاً، وقالت: "دكتور راينهارد، مساء الخير". ظل أبي واقفاً واستدار برأسه ثم صافحها باليد اليسرى قائلاً: "ابني". رفعت

حاجبيها لأعلى. "فرصة سعيدة يا أستاذ راينهارد! شرفتنا بزيارتك. أهلاً وسهلاً". وصافحتها أنا أيضاً. عندئذٍ شعرت بذراع أبي من جديد. زبائن عديدون نظروا إلينا وابتسموا. الخادمات اللاتي أقبلن علينا أو مررن بنا كن يُحيِّين بصوت عالٍ.

سألني: "أما زلت تدعى مويرر"؟

"نعم"، أجبته مساعداً إياه على خلع المعطف. دون أن نتلامس مشينا الخطوات القليلة المتبقية حتى وصلنا إلى مائدة مستديرة في الركن كان قد أشار إليها. معظم مقاعد المقهى كانت مشغولة، نساء كثيرات فوق الستين، غالبًا اثنتان أو ثلاث على المائدة. ثنائيات المتزوجين أقل.

أخذت نادلة في مقتبل الشباب تكتب شيئًا على دفترها قبل أن تقبل علينا. "مساء الخير" حيتنا ثم أخذت لافتة "محجوز" ووضعتها في جيب المريلة. طلبنا فنجانين من القهوة.

"لابد أن تأتي في الصيف عندما تفتح "حدائق البيرة". لابد أن تأتي عندئذ". ثم ضحك كما في الصورة، الفارق الوحيد أن وجنتيه لم تبرزا. الآن بدأ يمعن النظر فيّ.

"زمان كنت أعتقد أنك ستصبح بدينًا. كنت تأكل أكل ثلاثة، وإذا تبقى طعام من أحد كنت تلتهمه، غير معقول - ١٤ قطعة من الكبيبة، هذا غير الفواكه. كنا دائمًا نتساءل: عمن ورث هذا؟ معظم الشرهين يزدادون سمنة ويموتون مبكرًا". باليد اليسرى رفع يده اليمنى على

المائدة. "كما ترى يا ابنى"، قال لى. بحثت فى وجهه عن آثار الشلل، لكننى لم ألاحظ شيئًا. كان وسيماً، شعره لا يزال غزيراً، رجل جذاب فى منتصف العقد السابع. بأنامله أخذ يتحسس إذا كانت ربطة العنق مضبوطة.

حكى لى كيف استيقظ صباح ذلك اليوم ليذهب إلى التواليت، وعندما عاد إلى الحجرة رأى كرسيًّا مقلوباً. وضع الكرسى على قوائمه، فسقطت الزهرية من على المائدة.

قال: "هكذا بدأ الأمر". "كنت أخبط أشياء فأقلبها دون أن ألاحظ، ثم – برق. لم أشعر إلا بشىء مثل البرق، بل صعقنى البرق فعلاً، تغلغل فى جسمى. لم يكن انسداداً فى الشرايين كما ظن الجميع، فأنا لم أشعر بأى ألم. برق، ثم تجد نفسك مشلولاً".

التفت أبى إلى النادلة التى أحضرت لنا فنجانين، ثم ابتسمت قبل أن تنصرف.

"بدأت من البداية، مرة أخرى من البداية، ولكن كم من الوقت احتجت حتى أبدأ! كنت أظن أن ما أصابنى سيختفى من تلقاء نفسه، وكأن رِجلى نَملت فحسب".

رحت أرقبه وهو يقرب الفنجان من فمه. رشف بسرعة، ثم أعاد الفنجان من غير أن تهتز يده.

"عندك سكر"؟

مددت يدى إلى السكرية.

"آخ، يا ابنى أسألك إذا كان عندك سكر. أنا عندى السكر".

ارتشف رشفة أخرى، ثم أرسل النظر إلى المكان المجاور ليده المثنية. "بدأت من البداية، مرة أخرى من الأمام"، ثم أضاف: "آنذاك عندما جئت إلى هنا – بدأت أيضًا من البداية".

"أنا أيضًا أبدأ دائمًا من البداية، لكننى لا أتحمل طويلاً".

"كل شىء له معنى وهدف يا مارتين، كل شىء"، قال ذلك ثم أمسك بيده اليمنى وزحزحها بعض الشىء بعيداً عن الفنجان. "حتى لو لم ندرك المعنى، أو لم ندركه على الفور".

وبالرغم أننى لم أقل شيئًا، فقد انطلق متحدثًا. "أعرف فيما تفكر. ومع ذلك، هذه هى خبرة كل سنوات عمرى". أخرج منديلاً مطبقًا ومسح به فمه.

خيّم علينا الصمت، فأخذت أفكر بماذا أجيبه وأنا أرتشف قهوتى. كنت مقتنعاً أنه يتمعن فى كل جملة قبل أن ينطق بها، أنه كان قد استعد لملاقاتى كما يستعد المرء لإلقاء محاضرة. ربما كان صمته جزءًا من استراتيجيته البلاغية.

حكيت له عن الرجل الذى تصيد قوالب السكر من السكرية، "ثم، فص ملح وذاب".

"وبعدين"؟ تساءل أبى. ران الصمت من جديد.

"وما الجديد لديك"؟

"لا شيء"، قلت.

"صديقة"؟

"أهذا ما تعنيه"، قلت له، " كلا".

"كم فات على حادث زوجتك، سنة"؟

"سنة ونصف".

"والسائق؟ هل ..".

"ليس له وجود. على الأقل لم يعثروا له على أثر. ربما كانت السيارة أقرب من اللازم، أو أي شيء آخر أفزعها. على العموم لقد وقعت وقعة غبية من فوق الدراجة ... بعد مدينة زربيتس".

قلت له إنني أشعر بأنني مذنب في موت أندريا، لأنني فقدت رخصة السياقة، ثم ادعيت أننا لسنا بحاجة إلى سيارة على الإطلاق. "لهذا تدربت أندريا على ركوب الدراجة. كانت منعدمة الثقة في نفسها".

بهذه الطريقة تكلمت كثيراً عن موتها، إلا أنني فجأة قلت: "كنت قد تمنيت أن تموت أندريا، ثم حدث ذلك".

حملقت في فنجاني ذاهلاً، كيف قلت شيئًا مثل هذا، وأمام مَن؟ أمام الذي هجرنا معتقداً أنه يمتلك دوماً الورقة الرابحة.

"ربما لم تكن تحبها حباً حقيقياً، أو كافياً. هذا شيء لا يعرفه المرء قبل وقوعه". وضع أبي فنجانه على المائدة، ثم دفع إليّ بطبق الفنجان

وعليه قرص البسكويت. "هل تريده"؟ وضعته فى فمى، وبلعته دون أن أدرى، ثم سألته إذا كان يضايقه أن أدخن. أشار بالنفى.

ثم سأل بعد لحظة: "وماذا عن عملك"؟

"مَن يحتاج مؤرخًا فى الفن؟ وبدون دكتوراه"؟

"كنت تسألنى وأنا أقول لك".

بدأت أتحدث عن فن رسم اللوحات البوهيمية، عن الجامعة وعن المظاهرات. "لم يتم أحد ما بدأه". قلت له. "فعلنا كل شىء يمكن تصوره، إلا العمل على رسالة الدكتوراه، ثم، مرة واحدة، بروفيسور جديد، مساعدون جدد، تغير كل شىء".

لم يحول أبى نظره عنى. سألنى: "هل ألقوا بك فى الشارع"؟

"نعم"، قلت مجيباً، ثم رحت أقارن مرة ثانية عينه اليسرى باليمنى، إلا أننى لم أجد أى فرق.

"هل كنت فى الحزب"؟

"لماذا تسأل هذا السؤال"؟

"متأسف، ولكن مويرر ذلك – مويرر الأحمر! هكذا كانوا يطلقون عليه جميعًا". ضيق أبى عينيه. "كان أصعب شىء أن أسامحه. لقد كرهت هذا الرجل، لكنى سامحته".

"سامحته فى ماذا"؟

"آه، يا ابني. عندما يقع أولادك في يدي رجل مثل هذا ... لم أكن أريد أن يتدهور بكم الحال هناك. كم مرة حاولت إقناع أمكم أن نرحل جميعًا. لكن دماغها حجر، حجر، صخر لا يلين".

"نحن أيضًا لم نكن نريد الرحيل".

"أنتم كنتم أطفالاً يا مارتين. إنك ترى النتيجة الآن".

"أنا حظي سيئ فقط، هذا هو كل شيء"، ثم أضفت: "لا ينقصني الآن سوى أن أبدأ في إدمان الشراب، ثم أطير من الشقة". كنت أرغب في مواصلة الحديث، لكنني لم أستطع. فكرت في أندريا. آلمني حلقي الجاف. شعرت بالدموع تترقرق في مآقيّ، وكنت على وشك أن أغرق في موجة دافئة من العطف على الذات.

إلا أن أبي حجب عني انتباهه. أخذ يحكي عن أمي التي أبلغت الشرطة ذات مرة لأنه عاد متأخرًا من تمشية: "استغرقت هي في النوم، وأنتم ظللتم قابعين أمام الشباك. لم ترغبوا أبدًا في الخروج إلى الهواء الطلق. في البداية أبلغت حارس الغابة. كانت تعتقد أنني ممدد في مكان ما بعد أن هاجمني خنزير بري". ضاقت عيناه من الضحك. "فكرت كثيرًا في هذه الحادثة"، قال ونظر إلى الساعة.

"يا ابني"، بدأ كلامه ثانية ثم استقام في جلسته. "لقد طلقت رِناتا هنا، ثم تزوجت نورا ..". مر بأصابعه على فوديْه. "نورا وأنا ظللنا عشرين عامًا متزوجين. عندما أفتح عيني في الصباح كنت أجدها راقدة بجانبي، وما زلت أشعر بيدها عندما أستغرق في النوم. ما زلت أشعر

بها، حتى بعد سنتين من إصابتى بالشلل ... بالطبع كنت أفكر: نورا هى أقرب إنسان إلى قلبى فى هذا العالم، من غير نورا ... ثم – أريد أن أحكى لك ما حدث – ثم تحديت قدرى. عندما ابتليت، اختفت من حياتى كل الأوهام التى لم أكن قد أدركت أنها كذلك – أوهام سعادتى المحدودة وأوهام أفقى الضيق". وزحزح يده مرة أخرى. "بانتظام كان يدق على بابنا "ملاك مُخلص" – كما كنت أسميهم آنذاك. لم أكن أحب التحدث مع أولئك الناس، ولكن ذات مرة سمحت نورا له بالدخول. نادراً ما كان أحد يزورنا آنذاك. لم أكن أقدر على المشى، ولم يكن يخامرنى أدنى أمل فى أننى سأستطيع ذلك ثانية. جلس ذلك الملاك، واستمعنا إليه ساخرين مما يقوله. جلس هادئًا صابراً دون أن يدافع عن نفسه – وفجأة بدأ يصلى. أراه بوضوح أمامى، ضامًا ركبتيه، وفارداً كفيه عليهما، خافضاً رأسه، مقطباً حاجبيه وكأنه يتألم".

مسح أبى مرة أخرى بالمنديل على فمه. عندما يحكى، قلت لنفسى، لا ينبغى على أن أتحدث.

"ألا تريد أن تأكل شيئًا"؟ سألنى واضعًا منديله فى جيبه. "نورا وأنا جلسنا بجانب الملاك المصلى وانتظرنا حتى ينتهى. ودعنا وكأن شيئًا لم يكن، إلا أنه عاد بعد يومين – هذه المرة ومعه زهور. كان يزورنا ثلاث مرات، أربع مرات فى الأسبوع. كنت أقول لنفسى: لو لم يكن غريب الأطوار على هذا النحو –" قالها أبى بفظاظة. "آخ، يمكننى أيضاً أن أختصر الموضوع. عندما بدأ يتودد إلى نورا، بدأت عيناى تتفتح، ورأيت مع من كنت أعيش. هل تعرف ماذا كان يبقيها طوال الوقت معى؟

أولاً دفتر توفيرى، ثانيًا بوليصة التأمين، ثالثًا معاشى القادم – فلوس، فلوس، فلوس. عندما أخبرتنى نورا أنها ستسافر غداً مع هذا الواعظ إلى البرتغال قلت لنفسى: لست بحاجة الآن إلى أن تُخفى نقودك عن أحد. نورا، حياتى! كل ما كنا محتاجين إليه كان عندنا وبوفرة".

صمت أبى. بدا لى أنه يود أن يستعيد زمام نفسه، لكنه واصل الحديث بصوت ثابت.

"آنذاك قلت لنفسى: إنها النهاية إذن. إلا أن الحضيض كان فى كل يوم يتعمق، ثم شعرت بنوع من الارتياح. كنت أقول لنفسى: هكذا هن إذن. هذا ما يختبئ خلف الورع الكاذب. كم هو بسيط هذا العالم! كنت أستمتع بتعذيب ذاتى، ولكن .."، قال أبى ثم ضيق عينيه وكأنه يضحك مقدمًا لنكتة، "أتعرف يا ابنى، حياتى لم تبدأ إلا آنذاك. وحدى؟ بالطبع لا! لم أشعر بقرب يسوع المسيح فى حياتى أبدًا مثل تلك اللحظة! مَن نحن حتى نغضب من الناس الذين يأتون لنا بالبشارة؟ مَن نحن"؟

أصابتنى كلماته كالبرق فى يوم صحو. إننى حتى غير مُعمَّد. كل ما كنت أعتقده أن المؤمنين يعمرون أطول ويمرضون أقل. هذا ما قرأته قبلها بأيام فى مجلة "علم النفس اليوم" الموجودة فى مكتبة الحى. فجأة اختلفت لهجة أبى ونبرات صوته.

"كل يوم كان الأخوة والأخوات يأتون إلى يساعدوننى ويساندوننى، ومعهم أقرأ كلمة الرب، ومعهم أصلى"، هكذا راح يبشرنى بدون أن يرفع بصره عنى. "أنت ترى. أستطيع إعالة نفسى. إننى أسير مرفوع

الهامة فى طريقى للتقاعد". حاول أن يصل إلى يدى. "عندما تشعر بالوحدة واليأس يكون يسوع المسيح أقرب إليك من حبل الوريد. عليك فقط أن تقول: نعم يا مارتين، فقط نعم".

أجبته قائلاً: "لكننى لا أشعر بالوحدة".

"بالطبع لا". أنامله لمست أصابعى. "لست وحدك يا مارتين". وأمسك بذارعه اليمنى متكئًا إلى الوراء.

لم أعد أتذكر حول أى شىء تكلمنا. على كل حال لم يمر وقت طويل إلى أن قلت له إننى لابد أن أنطلق حتى لا أسافر كل المسافة فى الظلام.

انتزع أبى ورقة بعشرة ماركات من جيب الجاكيتة ووضعها على المائدة، ثم أدخل يده مرة أخرى فى جيبه وأعطانى لفة ليّنة لونها أخضر داكن. "انظر فيها إن إردت".

حاولت أن أنزع الشريط اللاصق بعناية حتى لا يتمزق ورق اللف. "لقد صممت النموذج بنفسى"، قال لى عندما أمسكتُ بمنشفتين للمواعين، لونهما أزرق فاتح وفى وسطهما نجمة ثمانية بيضاء. كانت هناك لافتة مثبتة بأعلى المنشفة فى مكان التعليق: د. هانز راينهارت، منزل ج، غرفة ٢٠٩ . "المرء يحتاج دومًا إلى شىء كهذا"، قال. "المرء دائمًا بحاجة إلى أشياء عملية".

شكرته وتولى هو الدفع.

ساعدته على ارتداء المعطف. سألنى إذا كان الشال الذى يرتديه فى وضعه الصحيح. أشده قليلاً إلى الوسط. يعطينى ذراعه وننطلق.

عندما كنت أرفع بصرى كنت أرى عيونًا عديدة مسددة ناحيتى، بل إن النساء نبهن بعضهن إلينا، وكن يتبادلن الابتسام. حاولت أن أسير منتصب القامة. النادلة التى حيتنا فى الدخول فتحت لنا الباب الداخلى. امرأتان كانتا تهمّان بالدخول أمسكتا لنا بالباب المتأرجح وانتظرتا حتى نخرج. هما أيضاً ابتسمتا.

كان التاكسى ينتظر فى الخارج أمام الرصيف. بإيماءة منى نزل السائق.

"مع السلامة يا مارتين"، قال أبى. أحسست بذقنه على خدى الأيمن.

مستنداً بيده اليسرى إلى الباب المقابل لباب السائق رجع أبى إلى الوراء، ثم انهار فى مقعده. رفع السائق قدميه. مددت ذراعى لألوح لأبى إذا التفت إلى الوراء. عندما أدار رأسه كانت السيارة قد تحركت، لكن ليس بالقدر الذى يسمح له برؤيتى.

سرت فى الاتجاه الذى أتيت منه، ولم أرفع بصرى إلا عندما تأكدت أنه ليس هناك مَن يبتسم لى. دخلت كابينة تليفون واتصلت برقم شتويبر، وقلت له إن كل شىء سار على ما يرام، وإننى ربما أصل بين العاشرة والحادية عشرة.

"رائع"، صاح شتويبر. "نحن فى الانتظار! العائلة كلها تنتظرك"!

"إذن، إلى اللقاء".

"ورحلة طيبة"، صاحت زوجته فى السماعة.

"رحلة طيبة"!، قال شتوبير.

"شكرته وضغطت السماعة على أذنى متنصتًا للأصوات فى الخلفية.

"مع السلامة"، قال شتوبير ووضع السماعة.

أدرت رقم داني. كنت أرغب فى التحدث مع تينو. أرغب فقط فى أن أقول له: كيف حالك؛ إلا أننى وضعت السماعة حتى قبل أول جرس. يمكنني أن أتصل به غداً بسعر أرخص من داخل المدينة. ذهبت إلى السيارة وخرجت من الموقف الضيق دون أن أرجع إلى الوراء.

اليوم أعرف أن حكاية أبى أسطورة متقنة مثل حكاية شاول وبولس. بإمكان المرء أن يقرأ فى سفر أعمال الرسل فى العهد الجديد كيف يتحول أحد المُضطهِدين للمسيحيين إلى أعظم مبشر باسم المسيح، وإلى الرسول الذى نشر البشارة المفرحة فى ربوع الأرض.

المنشفتان – كان أبى محقًا فى الأمر – معلقتان الآن بجانب الموقد بحيث إننى لا أحتاج عند استخدامهما إلا إلى مد ذراعى.

الفصل الحادى عشر

امرأتان وطفل .. والوحش فوكس والفيل

إدجار ودانى وتينو ينتقلون للعيش فى شقة فى عمارة جديدة. رائحة السجق المقلى. مصائب كبيرة وصغيرة. بقع على الفوتيه والكليم.

سمع دانى تقول: "إدى، يا إلهى، هذا العفريت"! استقام عود إدى. كان غائصاً حتى حاجبيه فى الفوتيه ذى المساند العالية حول الرأس. بدت المساند على رأسه كالخوذة العملاقة. مسألة توازن فحسب. أخذ زفيراً بصوت مسموع. مساند الظهر تضغط الآن على كتفيه. من تينو تصدر أصوات: "أوخ"!

"إدى، لماذا؟ من فضلك ليس اليوم ..".

تحركت قدما دانى أمام حذائه على السجادة الحمراء القانية. بدا لإدجار أنها تلمس الفوتيه. تخيل أنها تجىء إليه عبر مساند الأذرع، وتمسك به عند الوسط بكلتا يديها. تخيل أنهما يتبادلان القبل دون أن يلاحظ تينو ذلك - ثم يتراقصان ببطء يميناً ويساراً.

"إدى قوى جداً"، قالت دانى لامسةً الطرف الأمامى للفوتيه. رداً عليها قفز إدجار فى مكانه قفزتين صغيرتين، ثم تتبعها وانحنى فى المكان الذى ظن فيــه المصبــاح. بدون أن يصطدم بشىء تمكن من الوصول إلى الممر عبر الباب المفتوح. "اهرشى لى هنا". مقدمة قدمه اليمنى كانت تشير إلى بطن قدمه اليسرى.

"شكراً"، همست دانى وفتحت له باب الشقة.

"اهرشى لى من فضلك"!، قال دون أن يتحرك من مكانه.

"هناك تيار هواء يا إدى، بسرعة لو سمحت ..".

انحنى مرة أخرى وخطا خطوة كبيرة فوق الدواسة. على شكل نصف دائرة كانت الحروف السوداء تكون كلمة Welcome .

من أعلى سمع وقع أقدام. امرأة بفستان حتى الركبة. حاول إدجار أن يخمن عمرها من الحذاء وبطن قدميها. ظلت تحيته بلا رد. على الدرجة الأخيرة اجتازته ثم أمسكت له بباب العمارة مفتوحاً. قال لها "شكراً"، ولم يسمع رداً هذه المرة أيضاً.

باليمنى أخذ إدجار يتحسس جيوب قميصه وبنطلونه باحثًا عن مفاتيح السيارة. شرع يأخذ وضع القرفصاء، مُحنيًا كتفيه ورأسه إلى أن لامست أرجل الفوتيه الأسفلت. ارتكز على المساند واستقامت قامته سريعًا، إلا أن توزانه اختل ووقع إلى الأمام، هو والفوتيه، مصدمًا بالضوء الخلفى الأيسر للسيارة الفورد ترانزيت.

اختفت المرأة. أخذ يهز المساند متثائبًا. كان الجو حارًا رطبًا.

"وأين كان هذا"؟، سأل تينو عندما دخل إدجار إلى غرفة المعيشة.

"فى آلبيك، على بحر البلطيق"، قالت دانى. "هه، إدى؟ نحن فخورون بك. هل ما زال هناك مكان"؟

إدجار يومئ. "والمفتاح"؟

"وهذا"؟، صاح تينو.

"ماذا تقصد، يا كتكوت؟ الحمار"؟

"هذا"! تينو يرفع ألبوم الصور عاليًا. "هذا".

"انتظر يا إدى، المفتاح - لا أعرف، ياكتكوتى، فعلاً لا أعرف - ربما فى المطبخ"؟

أمام الثلاجة كانت الأرض مبلولة. فَرَدَ إدجار منشفة على الأرض المبلولة وراح يراقب كيف كوّن الماء جُزرًا، وكيف ظلت المنشفة لاصقةً فى الأرض بعد أن أخذت شكل جزيرة صقلية. جمع أطراف المنشفة، ثم حمل الخرقة المبلولة إلى الحوض. كرر ذلك عدة مرات، ثم فتح باب الثلاجة غير المحكم الإغلاق. من الفريزر تدلت سلسلة المفاتيح السوداء.

فى غرفة المعيشة حاول إدجار ألا ينظر فى اتجاه تينو. "هل آخذ شيئًا معى"؟

"هذه"، قالت دانى مشيرة إلى كرتونة بجانبها. "وعلبتين من أجل فوكس".

"فكرة رائعة، فعلاً رائعة"، قال إدجار.

"إنه كلبه هو يا إدى. عليه أن يقرر ماذا يفعل مع كلبه. فوكس يتعود الآن على بيئته الجديدة، ونحن ربحنا الهدوء هنا. الفكرة فى رأيى جيدة". تركع دانى أمام ظهر الدولاب، وتفرد صحيفة قديمة، ثم تفصل صفحتين عن بعضهما البعض، وتحشو بإحداهما كأس بيرة، وتلف بالأخرى الكأس من الخارج. بأطراف حذائه يقرب إدجار صفحة من الجريدة. " الرغبة تقود إلى كارثة. الاستمناء تحت عجلة القيادة"، قرأ هذا العنوان تحت صورة سيارة نقل مقلوبة. قدم لها الخبر القصير ضاحكًا، وكأنه يعتقد أنها استطاعت قراءته كله.

"يا إلهى"!، هتفت دانى. "من أين لهم أن يعرفوا ماذا ... أأأ ... أثناء السواقة"؟

"موما، حصل إيه"؟

قلب إدجار الصفحة.

"إيه يا كتكوتى"؟

أرسلت دانى النظر أمامها.

"حادثة"، قال إدجار. على عنق دانى ازدهرت بقع حمراء.

"حادثة فى حديقة الحيوان. الفيل ليو استند إلى الحائط، بينما كان حارسه واقفًا فى الطريق".

"صحيح يا موما"؟

"لماذا لا تصدق إدى"؟

انتزع إدى مقالة حديقة الحيوان وصنع منها طيارة. بذراع مرفوعة صوّبها فى اتجاه تينو. انحدرت الطيارة ووقعت على السجادة. فى المحاولة الثانية هبطت أمام ألبوم الصور.

"هل ضربوا الفيل بالنار"؟

"لا يا كتكوتى، فهو لم يكن يقصد ذلك".

"وبعدين"؟

"فى المستشفى سيرجعون إلى الحارس صحته. عائلته وزملاؤه يزورونه هناك"، قالت دانى وهى تغلف بالورق كأس شمبانيا، وعندما يعود إلى العمل سيحييه الفيل ليو بباقة ورد فى زلومته".

وضع إدجار ذقنه على كتفه مصدراً صوتًا كالبوق من فمه، ثم أخذ يحرك ذارعه الأيمن.

صاحت دانى: "١٩ مارس"! "الخير من يوم الجمعة، الجمعة ١٩! إذن حدث ذلك يوم الخميس، أليس كذلك"؟ راحت تتنقل بنظراتها بين إدجار وتينو. "هه، يا رجال، الخميس ١٩ مارس، ماذا حدث فى ذلك اليوم؟ هل ما زلتما تتذكران؟ كتكوتى؟ إدى"؟

"آه"، صاح إدى.

"ها يا كتكوت، لا تتذكر؟ الحى الجنوبى، الحى الجنوبى، الشقة الجديدة هناك".

"لما كنا نعد الشجر، كان الفيل يدوس حارسه".

"إدى، لا تتحدث هكذا"!

"موما"؟

"نعم كتكوتى"، دانى تهز رأسها، "لا تقل يدوس". تغلق دانى الكرتونة، وإدجار ينظر إلى فتحة ثوبها عند الصدر.

"خلاص، كفاية اليوم"، قالت دانى ونهضت، ثم تقدمتهم كى تفتح باب الشقة.

فَرمَل إدجار. تحركت السيارة فى اتجاه المحطة الرئيسية لأتوبيسات النقل العام، ثم توقفت أمام أحد الأكشاك. كانت المرأة الشقراء ترتدى جاكتة تقى من الريح ذات لونين: أحمر وأبيض. كانت تهم بطى حامل عليه صحيفة "بيلد" ومجلة "فوكوس". لوحت له. أنزل إدجار اللوح الزجاجى ثم صاح: "خلصت شغل اليوم"؟

"من زمان. هل ركس معك"؟

"فوكس، اسمه فوكس"، قال إدجار مجيبًا، ثم هبط من السيارة. "صباح اليوم نقلناه فى الاتجاه الجنوبى الشرقى - حتى يتأقلم. هل ما زال لديك تورتة"؟

"لم يكن لدينا اليوم. فى مثل هذا الجو لا يأتى إلينا أحد. عندى شىء لـ..". أشارت برأسها ناحية عمود الإضاءة المعلق عليه كيس قماش، وفوقه علبة ملفوفة فى ورق الألومنيوم.

"فوكس، ببساطة: فوكس ..".

"شيء لفوكس-إدى-ركس، أو أيًا كان الاسم"!

"فوكس، لأن الكلب من فصيلة "صياد الثعلب"(*). أحدث شيش الحصيرة المعدنى صلصلة عند نزوله فى الكشك.

"مساء الخير يا أوته"، قال إدجار عندما ركبت السيارة. "اليوم خبأ تينو سلسلة المفاتيح فى الفريزر".

"كنت فاكرة أنه يسعد عندما تكون غير موجود". وضعت اللفة ذات الورق الألومنيوم بجانب فرملة اليد، ثم أمسكَت باليسرى رأس الفتيس. شغَّل إدجار المحرك، ثم داس على بدَّال التعشيقة، بينما غيرت هى السرعة، وانطلقا على هذا النحو.

باليدنى داعب قفاها، داسًّا إبهامه تحت رقبة البلوفر. فاحت منها رائحة البطاطس المقلية وبارفان "زاباتينى" الذى أهداها إياه الأسبوع الماضى.

"صباح الغد نحتاج إلى السيارة، حتى الظهر، عندئذٍ يمكنكم أن تأخذوها مرة أخرى".

"ماشى"، قال إدجار، ثم مال ناحيتها هامسًا: "صغيرتى أوته".

"وتينكو"؟

(*) "فوكس" معناها بالألمانية ثعلب. (المترجم)

"اسمه تينو ... من غير ك".

"أنا أدعوه تينكو".

"رعب، طوال اليوم رعب. مساء أمس داعبت كلبه ... لو كنتِ رأيتِ تينو عندئذ. الغيرة متجسدة، الكره الخالص. وهى بعذاب ضميرها الأبدى تقول له إنها كانت تحبه وهو فى بطن أمه"!

"وكيف يناديك؟ عمى"؟

"إنه لا يتحدث معى".

"وكيف يناديها"؟

"موما".

"ماما"؟

"موما، ليس ماما. هى بالنسبة له موما".

"طيب، ولماذا تريد موما الآن أن تعيش معك؟ آخر محاولة"؟

"يعنى .. الآن بعد أن طردوها من عملها - من الأحسن لو دفعنا إيجار شقة واحدة، كما أن الشقة وسط الطبيعة الخضراء".

"الطبيعة الخضراء! لا أفهم أن تنتقل بكامل إرادتك إلى جنوب شرقى المدينة، وتترك هذه الشقة الجميلة! هل يعذبك ضميرك أم تحبها فعلاً، هه؟ تحب شعرها المجعد؟ ضميرك يؤنبك لأنها فُصلت بسببك".

"اتهمها رئيسها باير بالتجسس. أى أسرار نتجسس عليها؟ كانت دانى محررة، لا علاقة لها بقسم الإعلانات".

"المرء لا يكوِّن علاقة مع محرر من صحيفة منافسة. القرار منطقى. المرة القادمة ستطير أنت أيضًا من صحيفتك المتواضعة".

"لا. أنا لا. باير كان مهووسًا بها، هذا هو كل شىء. وعندما لاحظ أنها عادت إلىّ ... مَثَّلَ دور عنتر زمانه".

"نعم"؟

"عنتر زمانه، لقد استعرض عضلاته".

"وماذا عن والد تينكو"؟

"أنا عارف! أخوه بت يقول إنه لا يفهم فى تربية الأطفال، ولا يعرف كيف يتعامل معهم. على الأقل طالما كانوا صغارًا".

"الفوضى الكاملة عندكم". سحبت يدها من فوق الفتيس، و أخرجت علبة سجائر من الكيس بين ركبتيها. "لما عيل فى هذه السن يطق له عرق فى نافوخه، فقل على كل شىء السلام. ليس أمامك غير أن تنجو بنفسك". أشعلت سيجارتها ونفخت الدخان على حجره.

خلف غابة المدينة، فى الموضع الذى يكومون فيه بقايا الأسفلت، حاد إدجار يمينًا وتوقف.

"هواء"!، قال ثم فتح البابين. "والآن هناك مفاجأة".

"ماذا؟ هل أحضرت الوحش معك"؟ ووقفت بجانب إدجار.

"هل ترغبين فى شىء غريب، أو رومانسى؟ الاختيار لكِ"

"وسجادة الصلاة"؟

"الكليم"؟

"بساطك السحرى".

"ليس طريًا"، قال إدجار. عندما ركبت السيارة شم رائحة البطاطس والبارفان مرة أخرى. أغلق الباب وراءها، ثم صعد هو من الباب الخلفى، وسحبه من الداخل.

"أتعرفين، أحيانًا أتخيل أنه بنت، أو ولد لطيف. أنا أحب الأطفال. لا أطلب إلا المعاملة العادلة، قليلاً من المساواة. لم نعد نفعل الآن سوى ما يريده، وإلا فلن نفعل أى شيء".

"قل لى، كيف أُدير هذا المقعد"؟ كان مسند الظهر يصل إلى كتفيها. نزعت عن شعرها التوكة الحمراء، ثم انحنت إلى الأمام. على العلب الكرتونية وراءها برزت بحروف زرقاء كلمة "عطش". زحزح إدجار الفوتيه يمينًا إلى جوار صندوق بلاستيكى مطوى، ثم خبط على مسند الذراع الأيسر. "هيا، تعالى"! بالسيجارة بين الشفتين وبعد أن خلعت البنطلون والحذاء جاءت إليه على أربع، ما زال قفاز فى كفها الأيمن.

"دائمًا هناك مشاكل"، قالت وهى تفتح سوستة الجاكتة الحمراء البيضاء.

"وما هذا"؟ تساءل إدجار.

"ماذا؟

"هذه المنشفة".

"للوحش. بالأمس .. السجادة ..".

"إنهم لا يعبأون بأمري"، ورمى المنشفة خلف الفوتيه، ثم خلع البنطلون ومعه الكالسون.

"والآن"؟، قالت متسائلة.

ارتكز إدجار على ركبتيه ومد ذراعيه، ممسكًا أردافها بكلتا يديه.

"باردة"، قال مبتسمًا. "باردة منعشة يا صغيرتي أوته". أطفأت سيجارتها في سقف السيارة، وأبقت إبهامها لوهلة على العقب، ثم ارتمت على الكنبة.

كانت السماء تمطر رذاذًا عندما وضع إدجار الجرادل البلاستيكية الزرقاء الثلاثة أمام باب المنزل. ببطء قاد السيارة الفورد حتى احتكت إطاراتها بحافة الرصيف. فتح الباب الخلفي، ثم قبض على مساند الكرسي ورفعه. في هذا الوضع - حافة الفوتيه الأمامية مسنودة على بطنه، ذراعاه على شكل زاوية قائمة، ومن الإجهاد يكاد يرتجف - سمع الكلب ينبح. على الرصيف ترك الفوتيه يتزحلق حتى ركبتيه.

"خلاص يا فوكس، خلاص"! وقف الكلب بكفوفه الأمامية في صندوق فارغ للزهور. في الطابق الأسفل تحركت الستائر. كان يعرف في أي طابق هو من خلال الدكك الموضوع عليها الزهور والتقاويم المكتوب فيها مواعيد كنس السلم أو جمع القمامة أو ماشابه. في الطابق

الثاني، بين شقة بارون وهانيش، لم يكن هناك ما يعوقه، ولكن في دَرَج الطابق الأعلى، وعلى منضدة متأرجحة من الخيزران كان هناك إصيصان بهما زنابق ورشاشة للنباتات من النحاس الأصفر مملوءة حتى الحافة. بالأمس أزاح بصندوق الأسطوانات ذراع الرشاشة الطويل. قطرات الماء نزلت حتى القبو.

تجاوزه فوكس على الدرج وعوى. فتت إدجار قطعة سجق مقلي وطوح بها فوق الكلب ناحية مدخل الشقة. على عتبة غرفة المعيشة ظل إدجار واقفًا.

"ابن الكلب"، قال بصوت خافت. "كلب ابن كلب"! لم يكن هناك سوى الكليم ملفوفًا وموضوعًا بجانب الجدار. الكراتين والصناديق التي تحوي مواعين إدجار وشرائح الأفلام والأسطوانات والكتب كانت مرصوصة فوق بعضها البعض على البلكونة. كانت الرياح تقذف بقطرات المطر على ألواح الزجاج.

مستندًا إلى الدرابزين انحنى إدجار إلى الأمام. صدر صرير عن صندوق الزهور الفارغ عندما خبطه إدجار بقبضته. في الأسفل كان الفوتيه الرمادي يسد مدخل المنزل.

كان الكلب قد تتبعه رافعًا إليه عينيه، فأعطاه إدجار بقايا السجق المقلي، ثم دخل بسرعة إلى الحجرة، وأغلق باب البلكونة، وفتحه على الوضع المائل. قضم من قطعة السجق التالية، ثم لفظها في كفه، وأخذ نفسًا عميقًا منتظرًا أن ينظر إليه الكلب، ثم رمى بها خارج الغرفة. أخذ

الكلب يتشمم أثر السجق المقلى، كما تفعل الكلاب فى عروض السيرك، وراح يدور ويلف حول الكراتين والصناديق، لكنه لم يبتعد بالقدر الكافى حتى يجدها، مع أن معظم قطع السجق وقعت على النجيلة، ثلاثة طوابق فى الأسفل.

أغلق إدجار باب الشقة خلفه. فى الأسفل فتح ورقة الألومنيوم التى تحوى ما تبقى من السجق، وجمع فيها القطع الأخرى المتناثرة، ثم وضع كل شىء على العشب أمام البلكونات.

"هيا يا فوكس، هيا"! نبح الكلب واختفى، ثم ظهر خلف حاجز البلكونة، وكفوفه الأمامية فى صندوق الزهور.

"هيا يا فوكس، انزل، هيا انزل"! شدد إدجار فى النطق على كل حرف مثلما يفعل تينو. على البلكونات الأخرى كانت هناك نباتات وشمسيات وهوائيات. ازداد المطر غزارة. مرقت سيارة نقل صغيرة وهى تزمر. "فوكس"! زأر إدجار.

سار إلى الفوتيه الذى اغمق لونه بفعل المطر، وجرجره إلى البيت. لم تعد البقعة على حافة مكان الجلوس تلفت النظر. بهدوء وضعه فى غرفة المعيشة.

رأى إدجار فوكس يمد رأسه بين الصناديق، ثم يبعدها وهو يهز ذيله وكأنه تعرف على شىء. منفعلاً يستدير الكلب استدارة كاملة.

أمسك إدجار بباب البلكونة بيمناه ويسراه، وجمع تركيزه مُغلقًا عينيه – ثم أغلقه بقوة. ما زال فوكس يقف على الصناديق. سمع إدجار

الجرس يدق، وعلى الفور تكة الباب وهو ينفتح. وقف فوكس على قدميه الخلفيتين ومد كفوفه الأمامية على زجاج الباب. تركه إدجار يدخل.

"إدى، يا حـبـيـبى. أنت نسـيـت كل شىء". فى كل يـد كـانـت دانى تمسك بعلبة عليها تيكيت بنفسجى فاتح، وكأنها ترفع أثقالاً. "طعام الكلب"!

ربت إدجار على فوكس من الجانبين. "عباول – كل شىء مبلول – مبلول"! ظلت نبرات صوته هادئة وكأنه يتحدث إلى الكلب. ذهب إلى البلكونة مُحضراً صندوقًا لونه أصفر وأزرق. "كل شىء مبلول"! التف إدجار حول دانى، ووضع الصندوق ثم عاد أدراجه.

"متأسفة يا حبيبى"! صاحت دانى وهى تتبعه إلى البلكونة. "طوال الأسبوع لم تمطر"!

"أفكاركم دائمًا رائعة"!

"نـحـن ... عـنـــدمـا يحضرون الأثـاث غـداً، أنا يـا إدى ... وإلا فالفوضى ستكون شاملة ..". تنحت دانى جانبًا حتى يمر، ثم أخذت صندوقًا ومشت وراءه ووضعته فوق الصندوقين الآخرين. عندئذٍ كان إدجار قد خرج.

"هنا"، قال وظل واقفًا. مخالب فوكس لم تترك آثارها على ظهر الكتاب فحسب، بل تسببت أيضًا فى ثقوب صغيرة قذرة فى الصفحات. هـزت دانـى رأسـهـا. جلس إدجار على الفوتيه المبلول، فقفز فوكس إلى حجره.

سألته داني: "هل تريد بيتزا"؟ وقعدت على الكليم المطوى. بحثت في كمها الأيسر عن منديل.

اتكأ إدجار بحذر إلى الوراء، ثم قال: "عندما يهدأ المطر فسنحمل بقية الأشياء إلى أعلى".

تمخطت داني. "غداً في مثل هذا الوقت سيكون كل شيء قد انتهى".

"بعد غد"، قال مداعبًا الكلب. "أثاثي أنا سيصل بعد غد"! أغلق فوكس عينيه وإدجار يداعبه.

"سنساعدك بالطبع يا إدى، وسنأخذ فوكس معنا اليوم، موافق يا إدى"؟ وأدخلت المنديل إلى جيب البنطلون قائلة: "هل تشم"؟

"الكلب مبلول".

"لا، منه تفوح رائحة بطاطس مقلية أو شيء مشابه".

"اشتريت له سجق مقلي".

"يا دى النيلة! الخنزير، انظر، الكليم! لقد بال على الكليم". وقفزت داني ثم فردت الكليم.

"كان وحده فترة أطول من اللازم"، رد إدجار بهدوء. "لقد نبح في كل أرجاء المنزل".

"يا دى النيلة، يا دى النيلة"! جرت داني إلى الحمام، وعادت بدلو بلاستيكي أزرق ممتلئ بالماء". أم أنه تقيأ"؟ وضع إدجار

ساعديه ويديه الآن على مساند الفوتيه. سمع صوت إغلاق نافذة قريبة، ومن الدرج تناهت إلى سمعهم وقع خطوات صاعدة، ثم توقفت على البسطة.

"إدي"؟ رفعت داني رأسها. "إدي"؟ ووقفت على ركبتيها قائلة: "يا إلهي، هل تشعر بهذا يا إدي"؟

رد عليها قائلاً: "ماكينة تجفيف الملابس. الساكنون فوقنا يجففون ملابسهم".

"تجفيف"؟ عصرت داني الخرقة، وأخذت تحك البقعة المبلولة بالخرقة ثم بظفر إبهامها. باب الجيران ينغلق. راح فوكس يضغط بكفوفه الأمامية على بطن إدجار، ومن الدلو تصاعد مرة أخرى صوت خرير الماء.

"وماذا فعلت هنا طوال هذا الوقت"؟ تساءلت داني.

"كان لابد أن أخرج مع الكلب. فضحني بنباحه في كل أرجاء
. بقميصه المبلول البارد لاصقًا في ظهره. "الحارس مات".

لت ناظرة إليه. "رجل الفيل"؟

ه إلى الوراء عندما حاول فوكس أن يلعق رقبته.
بما في نفس الليلة. ليو داس على جزء من
الرمل، بعد ذلك، بعد أن نقلوه".

"فظيع"، قالت داني ثم انحنت إلى الأمام مرة أخرى وتمعنت في الكليم. "أعتقد أنه قيء".

رجع إدجار برأسه إلى الوراء مغلقًا عينيه تحت خطم فوكس الممدود. توقفت آلة التجفيف، وفي الخارج ران صمت لم يعكره مرور سيارة واحدة. لهذا لم يعد يسمع إلا حكة إبهامها وقطرات المطر.

الفصل الثانى عشر

القتلة

بيتر موبرر وإيجار كورنر يقابلان فى متجر "جنة الأثاث" منافسهما كريستيان باير. السكرتيرة ماريانا شوبرت تقدم المشروبات للمنتظرين. فى العجلة الندامة، وفى التأنى السلامة.

دقٌّ على الباب. فى اللحظة نفسها يدخل شابان المتجر. كل منهما يرتدى جاكتة وكرافتة وحذاء بنيًّا فاتحًا. حركاتهما رياضية رشيقة. الأيدى خالية. يظلان واقفين متجاورين فى وسط المدخل. فوقهما تدور أجنحة مروحة.

"أى خدمة"؟ تسأل السكرتيرة. شعرها قصير رمادى، وفى يدها دبلة زواج عريضة.

"خدمة"؟ يشبك إيجار يديه خلف ظهره هازًّا جذعه إلى الأمام. "أى خدمة تريد يا بيتر"؟

"لا أعرف. فى الحقيقة لا أعرف ماذا أريد. ربما كأسًا من بيرة القمح"؟

"مع شريحة ليمون"؟

"مع شريحة ليمون". يعبث بيتر بدبوس الكرافتة ثم يرسل بصره إلى النظارة ذات السلسلة الفضية الرقيقة التى تتدلى على صدر السكرتيرة.

"أعتقد"، يقول إدجار وينظر يسارًا، "أننا نريد نفس ما يريده السيد الجالس هناك".

باير - الذى كان يمسك بفنجان كبير فى يديه - لا يحرك ساكنًا. "كان من المفروض أن نأتى قبل السادسة، والآن إلا ربعًا"، قال بيتر وهو يومئ إلى الساعة المعلقة خلف السكرتيرة. "أهو موجود"؟

"الساعة الآن ونصف"، أجابت دون أن تستدير مشيرة إلى صف الكراسى أمام النوافذ التى يمكن للمرء عبرها أن يرى خيمة البيع. بكلتا يديها تضع النظارة على أرنبة أنفها، وتمر بعينيها سريعًا فوق الورقة الموضوعة على يمينها، ثم تبعدها قليلاً وتشرع فى الكتابة.

"ممكن تقولين لى إذا كان موجوداً، أم أن هذا طلب فوق طاقتك"؟

"مرت نصف ساعة يا بيتر، معها حق، هيا".

"أريد إجابة. لدينا موعد، وجئنا فى الموعد، قبل الموعد. إذن من حقى يا إدى أن أسأل إذا كان موجوداً"؟

"هل قال متى سيأتى"؟

"إذا كان لديكم موعد". السكرتيرة ترفع بصرها من على الورقة دون أن تتوقف عن الكتابة، ثم تمر بظهر يدها على الأجندة المفتوحة. "هنا لا يوجد موعد".

"إذن فهو ليس موجوداً"؟ يسأل بيتر.

"هل يوجد قهوة هنا"؟ ثم يشير إدى إلى باير. "أو أنه أحضر قهوته معه"؟

"اسأليه متى يتعين عليه تسليم الصحيفة للطبع. اسأليه. الوقت سرقهم مرة أخرى، وكالمعتاد سيكون شغلهم مثل سلق البيض. الوقت دائمًا ضيق عند السيد باير يوم الجمعة".

نهضت السكرتيرة. الفناجين والملاعق تصطك ببعضها البعض. ما زال باير يجلس بلا حراك وكأنه يراقب من خلال النافذة المفتوحة الناس الذين كانوا قد تزاحموا فى الممرات بين الفوتيات والموائد والمقاعد بأشكالها المختلفة. عند خزينة الهدايا تَكوّن طابور. ترتدى البائعات معاطف حمراء، وعلى الصدر مشبك أبيض مكتوب عليه: السيدة ...، ثم الاسم العائلى، و"تقوم بخدمتكم". أما مشبك المتدربات فليس عليه إلا الاسم الأول، مثلاً "آنا" أو "يوليا" أو "سوزانا".

"قهوة بسكر وحليب"؟

"اثنين قهوة بالحليب"، يقول إدى ثم يجلس أمام باير عند حافة النافذة. "هيا، تعال يا بيتر".

"أنا جوعان يا إدى. التدخين ممنوع هنا". يشير بيتر إلى اللافتة على الباب. "على الأقل أود أن آكل شيئًا. أم أن قسم الحماية من الحريق سيغض الطرف إذا دخنت"؟

"لا"، قالت السكرتيرة التى وقفت فى تلك اللحظة أمامهما، "لن يغض الطرف".

بحذر يتناول بيتر وإدجار الفنجانين الممتلئين من الصينية. "أما المروحة فلا تسبب لقسم الحريق أى إزعاج"؟ يتساءل بيتر. "فى مثل هذا المطبخ الصغير؟ على كل حال، شكراً وفى صحتك"!

"فى صحة قسم الأمن الصناعى"، يقول إدى. تسند السكرتيرة الصينية على المكتب.

يضع بيتر فنجانه على إحدى ركبتيه ويمسكه بيد، ثم يشير إلى المروحة باليد الأخرى قائلاً: "الكل يحب الهواء المنعش، والمنافسة تنعش التجارة. مضبوط يا سيد باير"؟

"يا إلهى! الجو نار". يضع إدى فنجانه بين قدميه على السجادة الرمادية. "لا يستطيع إنسان أن ينتظر كل هذا الوقت. هذا يدمر التجارة. عندك لا، يا سيد باير"؟

"كان من نصيبه كالمعتاد أكبر فنجان".

"فى العجلة الندامة، وفى التأنى السلامة. مشكلتنا يا بيتر أن لدينا زبائن كثيرين، أكثر مما يجب. هذه هى المشكلة".

"هذا بدون حساب فترات التخفيض على الأسعار".

"أتعرف ماذا قال السيد باير عنك"؟

"هل يتحدثون عني"؟

"قال إن بيتر عنده مقشة في مؤخرته".

"مقشة"؟

"لأنك تقش كل الإعلانات. أينما ذهبت لا تترك إعلانًا واحدًا لغيرك. أنت قشاش".

"مقشة في المؤخرة"؟

"أنت تكنس كل شيء، هكذا قال، ولكن بعد أن قال مقشة".

"عمومًا يا إدي، الحقيقة دائمًا مفزعة، أليس كذلك"؟

"صحيح. وبصراحة عنده حق يا بيتر. أتتذكر كيف كنست كل شيء عند هولتس شميت؟ في البداية ترك مستر باير يعزمه على العشاء – ولكنه وقع العقد معك أنت".

"الحال يتدهور عند شركة باير".

"لا تفشِ كل الأسرار يا بيتر".

"هل أتحدث أكثر مما يجب"؟

"إنه في نهاية الأمر منافس لنا".

"وينعش التجارة، يا إدى، مثلنا".

"لكنه يأخذ الأمور على محمل شخصي".

"أيضاً لفت نظرى ..".

"بيتر"!

"كنت أريد أن أقول إن لون "ماجناتا" ليس وردياً ولا أحمر دموياً ولا برتقالياً. ماجناتا هو ماجناتا. هكذا قال لنا السيد كرافتشيك. السيد كرافتشيك من متجر كرافتشيك للوازم البناء. وعندما يقول السيد كرافتشيك ماجناتا، فإنه يعني ماجناتا. إنه لا يعني اللون الوردى أو الأحمر الدموى أو البرتقالى. أما إذا اختلط اللون الأصفر، فإن السيد كرافتشيك يكون حزيناً، فى غاية الحزن".

"أنت تعنى إذن يا بيتر – وحتى نهدئ من خاطر شخص ما – أن الموضوع ليس موضوع أسعار"؟

"أريد أن أقول إنه إما أن الشرائح عند آل باير لم تلصق جيداً، أو أنها عند النقل قد تزحزت عن مكانها، أو أن المطبعة مهملة فى عملها. على المرء إذن ألا يندهش. فليبرم ما شاء من عقود ... لن يفلح .. هذا ما أردت قوله".

"حزمة من النصائح الجيدة ..".

"ما أكثر ما يخطر على بالى من النصائح الجيدة"!

"كفى يا بيتر! أراهن أنك لن تسمع حتى كلمة شكر، كلمة شكر واحدة. أم أنى مخطئ يا سيد باير؟ هه، ما رأيك"؟

"لسنا من المتذمرين دائمي الشكوى. كل ما نقوله نقداً بناء".

"مثلما كتبت أنت يا سيد باير. على الإنسان أن يعرض الحقيقة على الناس مثل ثوب جميل، لا أن يقذف بها مثل خرقة. لهذا يشعر دائماً بالتعاطف عندما يفصل أحداً من عمله. على الأقل هذا ما تقوله داني. إنه يستطيع أن يشارك الآخرين مشاركة وجدانية عميقة. لهذا قصصت عمودك يوم الأحد. لقد أعجبنا جميعاً، أليس كذلك يا بيتر"؟

"هل تعرفين يا مدام ..".

"مدام شويرت" يقول إدى، "ماريانا شويرت".

"هل تعرفين يا مدام شويرت أن السيد باير يكتب بنفسه؟ – مساء الخير، أنا أتكلم معك"!

"دعها في حالها يا بيتر".

"كلهم هنا يكشفون أمرنا".

"هل تريد أن تقول إن عينيه تنفذ من خلال الأشياء"؟

"ليس إلى هذه الدرجة". يرتشف بيتر من فنجانه. "أشعر بالجوع. وإذا توقفت عن الكلام فسأشعر بالجوع أكثر".

"لابد أن نفعل شيئاً تجاه هذا الإحساس. أنت تستحق ذلك".

"لو كانت الدنيا تسير بالعدل ..".

"سأحضر لك شيئاً ... لأن اليوم هو الجمعة، ولأنك مرغم على العيش بمقشة في مؤخرتك، ولأنه ليس هناك شخص واحد يشكرك على ما فعلته".

"أنت طيب يا إدى، وكريم معى".

"إلى أن أعود، احكِ لهم بعض النكات". يغلق إدجار أزرار الجاكتة وهو ينهض. "حتى يتلطف الجو قليلاً".

يلوح بيتر فى اتجاهه، ثم يتناول جرعة ثانية ويضع الفنجان بجانب الآخر على الأرض. "أعتقد"، يقول ناظراً إلى السكرتيرة، "أعتقد أن علينا اختصار كل ذلك". يسحب مظروفًا من الجيب الداخلى ويستخدمه كمروحة سانداً ذراعيه على ركبتيه. "سأعطيك الآن هذا".

تحرك السكرتيرة قدمها اليسرى خلف رِجل الكرسى الدوار. بجانبها علبة فارغة من مشروب القهوة وبها شفاطة، والغلاف البلاستيكى لقطعة سجق.

"فليأخذ ما يشاء من وقت حتى يقرأ هذا"، يضيف بيتر. "فليأخذ وقتًا طويلاً، ويقرأه بهدوء وراحة بال. لا داعى للاستعجال. وأنت، يا سعادة المدير، سيكون عندك وقت أكثر".

يتكئ باير إلى الخلف. لبرهة تتلاقى نظراتهما. "الكنس نهائى هذه المرة"، يقول بيتر رافعًا حاجبيه لأعلى، ثم ينهض ويذهب إلى المكتب حاملاً المظروف على كلتا راحتيه. "يبدو مثل الشيك. مئات الآلاف. مبلغ يمكن ادخاره، وربما يكون المبلغ أكبر، تفضلى".

"ضعه إذن على المكتب". توقفت السكرتيرة عن الكتابة. ظهرها مستقيم كالسهم.

يسلمها بيتر المظروف ثم يستدير. "والآن، حول أى شىء نتحدث يا مستر باير"؟

من الخارج يرتطم شىء بالباب. "خضراوات على الطريقة الصينية أم سجق بالكارى"؟

"ولصديقنا كريستيان لم تحضر شيئًا"؟

"هه؟ هل رفعتما الكلفة بينكما"؟

يتناول بيتر طبق السجق ويشرع فى الأكل. "قبل قليل تعطَّفَ علىّ بنظرة".

"غير معقول"!

تضع السكرتيرة المظروف فى ملف وتذهب إلى حجرة المدير العام. تترك الباب مواربًا.

"عندما يرى الواحد كيف تأكل يا بيتر، كيف تمسح الطبق مسحًا .. حتى لو لم أكن جائعًا ..".

"العين تأكل مع الفم".

"بالضبط".

"قلت له إنه يضيع وقته هنا، وإننا سنريحه من العمل، ولهذا يمكنه أن يسترخى ويستجم ويستمتع بعطلة نهاية الأسبوع".

"بينما نكنس نحن المنطقة يا بيتر".

"حتى لا يقول أحد إننا لم نحذره".

"بالضبط. نحن نلعب بأوراق مكشوفة. لا أسرار لدينا".

"طبعًا لدينا أسرار"! يمسح بيتر بإبهامه تحت أنفه. "٣٠ سنة، شعر مجعد، هكذا وقفت أمامه ... هل يمكنك أن ..". ويشير بإصبعه الصغير المنفرج تجاه جيبه. يسحب إدى منديلاً ورقياً مكرمشاً.

"دائما عندما يكون الطعام لذيذاً"، يقول بيتر ويتمخط. ثم يمر ببقايا الخبز على صلصة الكارى، ويضع الطبق الورقى على فنجانه، ثم يتمخط مرة أخرى.

"من الممكن يا مستر باير أن تقول لماريانا إننا سنريك الآن عرض أكتافنا".

"أو بالأحرى قفانا يا بيتر، نعم قفانا".

ينهضان.

"على كل حال سنخلى لكما الجو". بيتر يشير بإصبعه وكأنه ينادى خادمًا. "ما أحلى أن يسكر الإنسان حتى يصبح طينة! لا تعودا قبل الفجر! اشتريا راديو وارقصا، كنوع من التمرينات الرياضية فى فترة الاستراحة من العمل".

"كريستيان لا ينعم علينا حتى بنظرة واحدة"!

"فى أى شىء يفكر كريستيان الآن؟ من مظهره أقول ..".

"شكراً جزيلاً على القهوة يا مدام شوبرت"، يصيح إدى ويومئ برأسه إلى بيتر.

"شكراً جزيلاً يا مدام شوبرت، وأتمنى لكِ نهاية أسبوع سعيدة"!

"أتمنى لكِ أنا أيضاً"، يقول إدى ثم يخبط بإصبعين على فوده كتحية.

الباب الجرار ينغلق في حجرة المدير العام. باير يروح ويجيء، ثم يتوقف أمام الشيش الحصيرة.

"غير معقول"، يصيح، "السادسة وعشر دقائق".

تدخل السكرتيرة ثم تضع ورقة بيضاء في *الآلة الكاتبة*، وتضغط على أحد الأزرار. "لن تكون الأول الذى ينساه".

"الدعاية جيدة، أليس كذلك"؟ يراقب باير كيف تسحب السكرتيرة الورقة إلى أسفل.

تضع رشاشة نباتات صغيرة في حوض غسيل المواعين. عندما فتحت الصنبور أصاب تيار الماء الفتحة بالضبط. تذهب إلى أصص نبات الفيلودندرون المتسلق، وترفعها.

"يقولون إن الأفضل أن ترشى الماء بين الأحجار في الأصيص"، يقول باير.

توقف أزيز *الآلة الكاتبة*. اختفت الورقة.

"اعتقدت أنها ليست حقيقية"، قال باير مشيراً إلى الأصص. "إنهم يقلدون اللبلاب بطريقة بارعة - إذا لم يرَ أحد الإبر السوداء في الأصيص، لن يخطر على باله أنها من البلاستيك".

تعاود السكرتيرة ملء الرشاشة.

"هل تعرفين أحداً اسمه كورنر"؟ يسألها باير عائداً إلى كرسيه. تتطاير خصلات شعره فوق جبهته بفعل تيار الهواء من مروحة السقف. "هل تعرفين ماذا كان كورنر يعمل، ماذا كان يعمل حتى نوفمبر ٨٩، إدجار كورنر"؟

"أنا لا أحفظ سماء".

"لم تقرئي جريدة أبداً، في السابق؟ مَن يوظف شخصاً ... الجميع يعلم من هو! ذكي، ويُشترى! عندما عرفته كان لا يرتدي إلا قميصاً أزرق".

"سأقفل المكتب الآن"، قالت وهي تضع الرشاشة الممتلئة بجانب الأصص، ثم تسحب ورقة نبات انحشرت بين رقائق شيش الحصيرة، قبل أن تغلق الشيش.

"هل نطبع الإعلان القديم"؟

"كله إلا هذا"!

يحاول باير أن يضحك.

"لم يكن من المفروض أن تكون هنا، خصوصاً يوم الثلاثاء. ألا يقرأ أحد عندكم البروفات قبل الطبع"؟ تجلس السكرتيرة إلى مكتبها، وتفتح

ملفًا مخصصاً للأوراق التى سيوقع عليها المدير، وتضع فيه الورقة التى سحبتها من الآلة. "اعتقد الناس أننا نخدعهم كى نجذبهم إلينا".

"ألم تقولى له إننا لن نحسب ثمن الإعلان"؟

"أنت رجل طيب – لن تحسبوا ثمن الإعلان. إذا استلمنا إنذاراً بالدفع، فسوف أرسله لكم فوراً".

"هل عنده تليفون فى السيارة"؟

"عنده. اتصل به إذا كنت تعرف الرقم. أنا لا أعرفه". تغطى الآلة الكاتبة وتشد أطراف الغطاء.

"ولكن لا بد أن نطبع شيئًا". ينحنى باير تجاه الفنجانين الموضوع فوقهما الطبقان الورقيان. "كنت أريد أن أعرض عليه ٥٪ خصماً، على كل شيء".

"إذا لم يجئ اليوم، فلن يجيء قبل يوم الخميس. اكتب له رسالة". تضع السكرتيرة حامل الأختام فى الدرج وتقفله.

"أفضل التحدث معه شخصياً ... تتصلين بى عندما يعود"؟ يظل باير واقفًا أمام المكتب وفى يديه الفناجين.

"لابد أن أذهب الآن"، تقول، ثم تنحنى لالتقاط الأطباق الورقية التى وقعت.

"آسف، الهواء"، يقول مشيراً إلى المروحة. "ألا تستطيعين أن تتصلى بى، أقصد عموماً، الأسبوع القادم عندما يعود".

"لن أكون هنا .. طوال هذا العام. لا أعرف متى سأعود".

"لا أفهم. هل ..".

"ستُجرى لى عملية جراحية". ترمى الأطباق الورقية فى سلة المهملات.

"تسمحين لى"؟ بحذر يضع باير الفنجانين فى الحوض.

تفتح الصنبور وتمسح على الحواف وأذن الفنجان بالوجه الخشن من إسفنجة غسيل المواعين.

"سأكتب له أننا لم نعرف ماذا نفعل، لهذا كررنا الإعلان، كررناه بعد إدخال التصحيحات عليه. هنا صينية أخرى". وينحنى.

"هناك". بإيماءة تشير له إلى المائدة أمامه. "أعطنى فنجانك". باير يُنحّى جانبًا الشريط اللاصق ودبابيس المكتب وقلم الفلوماستر البرتقالى اللون وممحاة خضراء على شكل سيارة فولكس فاجن، مخليًا بذلك مكانًا لوضع الصينية. عندئذٍ يحمل فنجانه إلى الحوض. "هل أجفف الفنجانين"؟

"يمكنك أن توقف المروحة – الزر خلفك".

"نعم"، أكمل باير، "سأكتب له. أعتقد أن هذا ما سنفعله". يضغط على زر إيقاف المروحة ثم يجلس ويسحب حقيبة أوراقه من تحت الكرسى ويضعها على ركبتيه، ثم يأخذ منها قلم جاف ودفترًا. يشرع فى الكتابة وهو منحنٍ قليلاً إلى الأمام.

أثناء قيامها بالتجفيف ووضع الفناجين على الصينية راحت السكرتيرة تراقبه. أصابع يده اليسرى ترقد متلاصقة على حافة الحقيبة بينما كان الإبهام يضغط على الورقة حتى لا تتحرك. بسرعة كان يكتب سطراً تلو سطر، وفجأة تتوقف يده اليمنى عن الكتابة، ويتجه بصره إلى السقف.

رغم أن ماريانا شوبرت كانت تراقبه جيداً، لم تعرف ما إذا كان قد انتبه إلى اللفات الأخيرة لمروحة السقف. أدهشها كيف يبدو باير شاباً فجأة، وكأنه طالب يحتاج عما قريب إلى نظارة، لكن الكثير ما زال في انتظاره، حياة بأكملها.

الفصل الثالث عشر

تستطيعين الآن

ماريانا شويرت تحكى عن هَنّى. صعوبات لدى النوم، اتهامات ونداءات جذابة. يتحسن مزاج ماريانا شويرت لإدراكها أمرًا مهمًا.

•

"اعتقدتُ فى البداية أن الصفارة مصدرها رجل يحاول أن يجتذب قطة- تقريبًا هكذا -". ترفع هنى رأسها وتصفر، ثم تحاول مرة أخرى بعنق ممدود وصدر بارز. "نعم، هكذا تقريبًا. يعنى إشارة تحذيرية. فى البداية يعتقد المرء أنها عادية". ترتشف من كأس النبيذ. أساورها الفضية تنحدر من معصمها إلى ذراعها. "كنت أرقد مستيقظة، أسمع الصفارة وأتأمل الوحمة على ظهر دتليف وأتخيلها على شكل نجوم السماء. حول الفندق – فى الحقيقة لم يكن فندقًا بالمعنى الحقيقى للكلمة، يمكن أن نسميه نُزلاً للعمال، لكنهم يطلقون عليه فندقًا – أربعة أسرة فى كل حجرة. فى الخارج أزيز المراوح والثلاجات، ثم هدير السيارت، وضجيج الناس الذين كانوا يتشاجرون أو يضحكون، كلهم ليسوا ألمانًا

– أعمدة النور فى الشارع أمام شباكنا تمامًا. أما أسوأ شىء، وكما قلت، فهو هذا الصوت الذى يصدر من الطابق الأسفل بلا انقطاع: بو– بوبوبوبوبوبو بوم بوم. هنى تضرب الهواء بحافة كفها على الإيقاع: "بوبوبوبو – بوبو بوم بوم". تضع الكأس ثم تشعل سيجارة.

"على كتف دتليف الأيسر رأيت نجوم الدب الأكبر، وبجانبها، على العمود الفقرى، مجموعة كاسيوبيا. نجوم العربة الصغيرة كانت معلقة بعجلتها الأمامية أمام فلقة المؤخرة. لابد من الغش قليلاً حتى أرى النجوم كما أتخيلها. فإما أن تكون يد العربة أقصر من اللازم، أى نجم الأوريون، أو أطول من اللازم. إذا دخل دتليف الحمام أولاً ورقدت على السرير فى انتظاره، فعندما أرجع أنا من الحمام أجده قد استغرق فى النوم. كان الجو حارًا جدًا، وبجانبه لم أكن أستطيع أن أتحرك". تسحب هنى نفسًا من سيجارتها، ثم تنفخ الدخان تحت المصباح. "كنت أفكر فى أن أرقد على السرير المجاور وأضع المنشفة على الوسادة والملاءة. لن تنتقل إلىّ العدوى، هكذا قلت لنفسى – كلهم ألمان، كلهم منا، طبعًا كانوا يحصلون على أجر لا يزيد عن الأجر الذى يدفعونه للأتراك ... لا يستطيع الحارس أن يتحدث مع الآخرين مجرد التحدث... ثم فجأة سمعت صوتًا: تشوك تشوك شوك شوك شوك"! تمد هنى رقبتها مرة أخرى: " تشوك شوك شوك ..". ثم تصمت قبل أن تبدأ مرة أخرى. كانت قد شربت كثيرًا وتتصرف وكأننا وحدنا، وكأن كل الشقة لنا، كل البيت. الشمعات الثلاث احترقت عن آخرها.

"ولكن الصوت كان بالطبع مختلفًا"، قالت هنى ثم وضعت كفها على فتحة الفستان، "كان صوتًا أخنف، ومنغمًا فى نفس الوقت، لغة باطنية، شىء لا أستطيع تقليده. هى فين"؟

تتلفت حولها والسيجارة فى وضع عمودى فوق طبق الفنجان الموضوع عليه السندوتش المقضوم. أذهب إلى الحوض وأجفف منفضة السجائر. "شكرًا"، تقول عندما قدمتها إليها. "فوجئت، فوجئت تمامًا عندما عرفت أن الصوت كان صوتًا نسائيًا، صوتًا رائعًا. نسيت أن أذكر لك ذلك، يا ماريانتى، صوت من طبقة الألت، هادئ، يصدر بدون أى جهد. ثم ساد الضجيج مرة أخرى، بوبوبوبو - بوبو بوم بوم".

"الحمام فاضى"، أقول لها عندما مر ديتر بباب المطبخ، لكن هنى لا تسمعنى. ينطفئ نور الممر.

"كنت إذن راقدة على سرير غير سريرى. الملاءة تحتى باردة منعشة. كل ما سمعته كان ذلك الصوت: بوبوبوبو - بوبو بوم بوم".

"بعد إذنك لحظة"، أقول لها وأنهض.

"آه، طبعًا"، تقول هنى مبتسمة، وتنفخ الدخان ناحيتى.

"ديتر"، أنادى وأنا أغلق باب حجرة النوم خلفى.

يشير إلى المنبه. "هل تعرفين كم الساعة الآن؟ بعد الواحدة، انظرى، بعد الواحدة"! احمرّ رأسه تمامًا وكأنه يصرخ: "الولية المجنونة لا تتوقف عن الرغى، صدّعتنا! أفسدت علينا يوم الأحد كله، ويوم الأحد هذا بالذات"! ثم أضاف: "أنت لم تجهزى شنطك حتى الآن".

"أعـرف"، قلت وأنا أجلس على السـرير. "ربما تحـتـاج إلى من يسمعها".

"لكنها لا تريد أن تعرف كيف حالك أنت؟ أم أن سكرتيرة فى محل أثاث ليست من مقامها"؟

"لقد سألت عن كونى".

"عن كونى! وماذا قلتِ لها"؟

"لا تتحدث عاليًا هكذا ..".

"المجنونة! لأنها مديرة تعتقد أنها يمكن أن تفعل ما يخطر على بالها؟ فى أى شىء تفكر؟ وهل تستطيع أن تفكر من أساسه"؟

"لم تعد هنى مديرة. لقد تركت المتحف".

"فصلوها"؟

"لم تعد فى المتحف".

"هل كانت فى الشتازى؟ هل كانت

"أنت قلت: يمكنها أن تبقى هنا".

"اعتقدت أنها ستمشى عندما أقول ذلك، أنها ستلاحظ أننا نريد أن ننام! هل اعترفت أنها كانت تعمل مع الشتازى"؟

"ويعدين معاك! أنت أول مرة تشوفها".

"آه، لهذا. بكل لباقة تناديني بـ زيوس، المجنونة هذه! كان عليّ أن أطردها من البيت وأريح دماغي! وأمنعها من أن تناديك بـ ماريانتي".

"أنت كنت لطيفًا جدًا معها".

"لأنها صديقتك". يتمدد ديتر على ظهره مشبكًا يديه تحت رأسه.

"كنتَ تبحلق فيها".

"ماريانا! من فضلك".

"بجد! هذا ما حدث".

"كلام فارغ. من يضع أحمر شفاه هكذا على المائدة أمام الجميع ..".

"ليس هذا هو الموضوع".

تصدر عن ديتر آهة تعجب.

أقول له: "إنها لا تعرف إلى أين سأسافر غدًا".

"طبعًا تعرف. لهذا حكت النكتة السخيفة عن الورم في الصدر. بعدها قلت لها أن تحتفظ بنكتتها لنفسها. إنها تعرف"!

أسأله: "هل قلت لها ذلك عندما خرجت"؟

"نعم"، يجيبني.

نصمت، ثم أسأله عما قاله لـ هنّي؟

"إنك ستذهبين غداً إلى المستشفى في برلين، من أجل عملية جراحية. وإن علماءنا يجرون "أبحاثاً" حول ورمك. أبحاث يمولها صندوق التأمين الصحى"، ثم ينظر إلى متسائلاً: "هل أخطأت فى ذلك"؟

"ثم اقترحت عليها أن تبيت هنا. أن تشبع نوماً، هكذا قلت".

"نعم"، يقول ديتر. "ظننت أنها ستتصرف عندئذٍ".

أنهض فيحاول الإمساك بى. "ماذا حدث"؟ يصرخ فىَّ ضارباً بيده على الغطاء. لا ألتفت. أطفئ النور، وأعود إلى المطبخ.

كانت هنى قد ملأت كأسها من جديد. سألتنى: "تعبانة"؟ آخذ منشفة مواعين نظيفة من الدولاب.

"كان الصوت مؤلماً، كالشاكوش فى الأذن: بوبوبوبو – بوبو بوم بوم". أصابع هنى المنفرجة تتزحلق على قدم الكأس. "أغلقت الشباك، وهو ما لا أفعله أبداً لأننى أصاب بالصداع، فى الصباح على أكثر تقدير. أحسست بالصوت منبعثاً من تحت وسادتى، بوبوبوبو – بوبو بوم بوم. فترات السكون كانت أقصر من تلك التى يحتاجها شريط تسجيل لكى يعود إلى البداية، وأطول من اللازم بالنسبة إلى سى دى. كان أسوأ ما فى الأمر أننى كنت أعد الضربات فى فترات السكون، ثم توقفت الضربات، مرتين ونصف مرة، وفى اللحظة التى آملت فيها أن تكون قد انتهت، عاد الدق: بوبو بوم بوم. دق بدائى، بدون أى مهارة. لماذا لا تقعدين، ياماريانتى"؟

أبقى بجانب الحوض، وأجفف الكئوس الغالية والشوك والملاعق. راحت هنى تدهس عقب السيجارة فى المنفضة. اهتزت أساورها السميكة واحتكت بالمائدة.

"أصابتنى الهستيرية"، أكملت هنى كلامها. "وجدت الأمر فظيعاً أن يسمح شخص لنفسه بأن يدق على أذنى. إنهم يقولون طبلة الأذن، حتى يطبلوا عليها. لماذا لم يغضب أحد أو يثور؟ هززت دتليف وأيقظته. إنه يسمع دائماً كل شىء، المنبه، التليفون، إنه هو الذى يوقظنى عندما يكون ثائراً، وعندما يعانى من الأرق، فأقوم بتهدئته. لم يعد يخشى شيئًا مثل الأرق. "إنه لا يُحتمل"، يقول دائمًا. "لا يُحتمل". قال لى إنه لا يسمع شيئًا. رفع رأسه قليلاً وتساءل: فيه إيه؟ لم يقل سوى: فيه إيه؟ ثم استدار. قلت له: التطبيل، ألا تسمع شيئًا؟ قال: الدق خفيف تماماً. قلت له: شواكيش تضرب تحت الوسادة. شواكيش تضرب فى أذنى. إنها مؤلمة، مؤلمة جداً. كنت أريد أن يفعل شيئًا! يا إلهى! لابد أن يفعل أحد شيئًا، قلت له. أى فندق هذا. أى فندق هذا؟ وأى حراس هؤلاء الذين لا يفعلون شيئًا"؟

ترتشف هنى، ثم تشعل لنفسها سيجارة أخرى. "قال دتليف: هناك إمكانيتان". راحت هنى تحرك عود الثقاب يميناً ويساراً. "إمكانيتان. إما أن تتجاهلى الصوت وتركزى انتباهك فى شىء آخر، أو"، قال لى بدون حتى أن يفتح عينيه، "أو تدعيه يتغلغل فى أعماقك فتنسيه تلقائيًا. فقلت له: أو أن تنهض الآن وتضع حداً له. إن الدق عالٍ جداً لدرجة أنه يدلك باطن قدمى. رد قائلاً: انسى. فيما بعد ادعى أنه قال حبيبتى، وليس

انسى. قال: انسى. سيضحكون علينا. لم يمثل الأمر بالنسبة إليه أى مشكلة. حاول أن يشدنى إلى السرير. اعتقدت أننى سأجن. تخيلت الأمر كأنه يحدث بسرعة الصوت. كأنه ضوء النجوم. لم يعد لها وجود، لكننا نراها فجأة عند ظهورها، ويجىء مكتشف ويطلق على هذا النجم اسم زوجته أو عشيقته. مع أن النجم لم يعد له وجود، إنه انتهى، اختفى، لم يبقَ منه غير الضوء. هل تعرفين شيئًا مثل هذا"؟ تبحلق فى، ثم تقول: "لقد فقدت خيط الحديث. عن أى شىء كنا نتكلم"؟

"النجوم، والخبط تحت رأسك، دتليف"، أقول لها وأفرد المنشفة على جسم الدفاية.

"أحيانا كنت أتخيل وكأننى استغرفت فى النوم. وقفت بجانب الشباك ورحت أبكى، ثم سددت أذنىّ، لكن الخبط ظل ببساطة موجوداً. وعندما كان يتوقف كنت أستحضره، كنت - يمكنك القول - أدفنه فى أعماقى. ماريانتى، كنت أعتقد أننى سأجن". تهز هنى رأسها. أضع الكئوس الغالية على الصينية وأسألها هل يمكن أن تفتح لى الباب. تنهض على الفور. أحمل الصينية إلى غرفة المعيشة حيث فردت الكنبة وحولتها سريراً لها. انتظرتنى فى المطبخ.

"لم أستطع أن أنزل لهم، وأنا المرأة الوحيدة هناك. بدا الأمر وكأننى أنا الوحيدة المتضايقة". أخذت أمسح المائدة فرفعت المنفضة. "حتى البارحة كنت أفكر أن كل شىء بينى وبين دتليف كان سيسير على ما يرام لو تتوقف تلك الـ بوبوبوبو - بوبو بوم بوم. لم أكن أطلب منه سوى الحقيقة، ثم نرى بعد ذلك. كنت أعتقد أننا سنقضى وقتًا طيباً فى

نهاية الأسبوع، وأنه سيأخذنى فى جولة بمدينة فرانكفورت. على الأقل مرة نقضى وقتًا جميلاً معًا – منتتهى التفكير بالتمنى طبعًا". تمسح آخر قطرات زجاجة النبيذ من حافة كأسها. "كما أن المكان مزدحم بالمومسات ومتعاطى الإبر. شىء لا يصدق. يمكنك أن ترى بعينيك كيف يفعلونها، أعنى المدمنين".

تحاول أن تدير السدادة الفلينية حتى تدخل فى عنق الزجاجة. لا تتوقف عن المحاولة.

"ثم حدث ما حدث يا ماريانتى"، قالت ثم وضعت السدادة جانبًا وأمسكت بيدى. "بكيت يا ماريانتى، وفجأة ألحت على نغمة، فاستغرقت فى التصفير المتقن، وكأننى تذكرت فجأة نغمة موغلة فى القدم"، قالت بنبرة ذات أهمية. "أخذت أصفر، بهدوء وخفوت، وشعرت فى اللحظة نفسها كيف أصبح كل شىء هادئًا، وكيف ذهب عنى التعب المؤلم، وبدأت أشعر بالنشوة. فجأة توحدت مع ذاتى كما لم يحدث لى من قبل. كنت أمتلك تلك الصفارة التى لا يمكن لأحد أن يكتبها، إذ لابد أن يسمعها المرء. كأننى صمدت والآن أكافأ على صمودى، هل تفهميننى؟ ربما من أجل هذا تحديداً جئت إلى فرانكفورت، من أجل أن أتعلم هذه الصفارة".

سحبت يدى. بقيت هنى جالسة بقدمين متباعدتين.

"عندما أيقظنى دتليف صباح اليوم"، قالت، "كنت تعبانة كأننى أخذت علقة ساخنة، لكننى ابتسمت. ذهب إلى الحمام ووقفت أنا عند

الشباك. أخذت أتهيأ، فأغلقت عيني – ولكن لا شيء. كأنهم سرقوها مني أثناء النوم، كأنهم انتزعوا النغمة من حلقي، كأن أحدهم محاها محواً. نظرت إلى الشباك، لكنني لم أر إلا السلك الموضوع أمامه لمنع دخول الذباب. كنت في الحضيض يا ماريانتي. لمسني دتليف عند الكتف ولثم قفاي. انفتحت في الصراخ والبكاء. في تلك اللحظة شعرت أن كل شيء ذهب هباءً، أن دتليف انتهى بالنسبة لي، هل يمكن أن تتخيلي هذا"؟

تطلعت هَنّي إليّ. أخذت تدير كأسها الفارغة. كانت تنتظر شيئًا مني ,لكنني لا أستطيع أن أفعل مثلها، أن أهرب ثم أحكي مثل هذه الحكايات للآخرين. لم نرَ بعضنا لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام. تعرفنا في جماعة الرياضة النسائية. كانت هي أصغرنا، لكننا لم نتبادل الزيارات أبداً. فيما بعد تناولنا الطعام معًا، واحتسينا كأسًا.

أنهض من على المائدة لأنني أريد أن أتناول جرعة ماء. هني تخلع السوار الفضي، وتفك ساعة يدها.

"يا ماريانتي"، تقول وتقترب مني فاتحة ذراعيها. تريد أن تعانقني. أتناول يديها وأضغط عليهما فوق كتفي. حتى هذا لا أريده. أنا لا أريد أية لمسات من أي أحد.

أسألها إذا كانت تشعر بالشوق إلى دتليف. تهز رأسها نفياً. أترك يديها. ما زالت تتشبث بكتفيّ. أحاول أن أتجنب نَفَسَها. "أنت متوترة"، تقول. أصابعها تدلكني قليلاً. من قريب بدت لي شفتها العليا باهتة. وعموماً بدا لي وجهها وكأنه فقد جماله.

"تستطيعين الآن"، قلت لها، ثم أضفت عندما نظرت إلى مقطبة الجبين: "الحمام فاضي".

أغلق باب المطبخ وأفتح الشباك. أفرغ المنفضة وأغسلها، وإلا لن تُجدى أى تهوية نفعًا. آثار أحمر الشفاه موجودة حتى على السندوتش حيث قضمت قضمة. أرميه مع السدادة الفلينية، وأغسل الكأس والزجاجة، ثم أبدأ بتهيئة المائدة للإفطار. أضع السوار والساعة بين الفناجين.

من الحمام تتناهى إلى سمعى صفارتها الغريبة. لست متأكدة إذا كانت الصفارة عالية بالفعل، أم أننى أتوهم ذلك. أجفف المنفضة. أضعها بجوار الساعة ثم أغسل يدى وأدع الماء ينساب عليهما لحظةً. أضع زجاجة النبيذ الفارغة فى السلة فوق الورق القديم، وأسحب منها برنامج التليفزيون من الأسبوع الماضى. على المائدة أقرأ برجى: "العذراء ٨/٢٢ - ٩/٢١ . شخص بحاجة إليك. إذا استطعت أن تشعرى بمعاناة إنسان وتشاركيه وجدانيًا، فسوف تهتدين بالتأكيد إلى طريقة فعالة لتقديم العون إليه". ثم أقرأ برج ديتر: "العقرب من ١٠/٢٣ - ١١/٢١ . أنت مهموم بشأن اتخاذ قرار. انتظر ما سوف يحدث، واشغل وقتك بأشياء جميلة"! "أحمر الشفاه يقى من السرطان. سرطان الشفاه يصيب النساء أقل من الرجال. السبب: النساء اللاتى يضعن أحمر شفاه يحمين أنفسهن خلال النهار من الأشعة فوق البنفسجية. المواد الملونة فى مساحيق التجميل تعمل كمصد للأشعة".

لا أستطيع تمرير سوار هنى السميك من يدى، فقط السواران الرقيقان أستطيع لبسهما. التاريخ فى ساعتها توارى نصفه عن الأنظار.

أملأ ماكينة القهوة بما يكفى ستة فناجين، لكننى أترك الغطاء مفتوحًا حتى أتذكر فى الصباح ولا أملؤها مرة أخرى فيفيض الماء. علبة الورق المرشح فارغة. أضغط عليها ثم أضعها بين الصحف القديمة. لم يعد لدينا سوى علبة بمقاس أكبر من مقاس الماكينة - مقاس ٤ بدلاً من ٣ . ألِفت رؤية العلبة خلف مساحيق الخبيز والبودنج. أفتحُ العلبة.

قصصت طرفًا ضئيلاً من المرشح فتناسب على الفور مع الجزء العلوى من ماكينة القهوة. وفق النموذج نفسه قصصت المرشحات الأخرى. لا أعرف لماذا لم أفعل هذا منذ وقت طويل. أحضر العلبة الفارغة ثانية وأضغط عليها وأملؤها بالقصاصات، ثم أدسها مرة أخرى بين الصحف. أتناول المنبه ذا الأرقام الكبيرة وأدنيه من عينى لأرى حركة عقرب الدقائق. نهضت عندما شعرت بالبرد وسرت إلى الشباك. أيضًا لا قمر. أغلق المصراعين ببطء. يخطر على بالى ثانية أننى كنت أريد أن أشرب شيئًا. عندما تناولت كوبًا من دولاب المطبخ، قلت لنفسى إننا كلنا سنموت آجلاً أو عاجلاً.

أشرب الماء، وأحك الشمع الذى تساقط من الشمعدان، ثم أقطع الذبالة من فوق الحامل، وأضع شمعة جديدة. فجأة راح عنى التعب، بل شعرت برغبة فى أن أشغل الراديو وأستمع إلى موسيقى، موسيقى جميلة فحسب، لكن من الأفضل ألا أفعل. لا أريد أن أخاطر بشيء. أريد أن أحتفظ بحالتى النفسية هذه، على الأقل لبضع دقائق.

الفصل الرابع عشر

مرآة

باربارا وفرانك هوليتشك يتبادلان الحديث. ما حدث في الحمام. ليس هناك ردة فعل من السياسي، وبعد ذلك ينتابه التعجب. فقدان الحذاء أثناء الفرار.

بجبهته يلمس فرانك باب الحمام، ويتساءل: "كل شيء تمام"؟ نبرات صوته عميقة. يضع يده على مقبض الباب. "ممكن أدخل"؟ بالرغم من اللبان في فمه فإن نفَسه يذكره بوجبة العشاء: قطع لحم في صلصلة بالقشدة، وقبلها شوربة بصل، والحلو تيراميسو. لم يشرب غير البيرة. في حوالي الثانية عشرة غادروا مطعم "راتس كيلر". إنها الآن الواحدة.

"باربارا"؟ أصابعه تنقر على إطار الباب. "كله تمام"؟

يتراجع عندما أدارت المفتاح. ينتظر ثم يفتح الباب بنفسه. "ممكن"؟

تقف في قميص النوم أمام المرآة ممسكة بقطعة قطن تمر بها على حاجبها الأيسر. الجيبة على غطاء التواليت، البلوزة والجوارب ملقاة

أمامها على البلاط. تضغط بالقطنة على زجاجة، ثم تقلبها لوهلة مديرة رأسها إلى الناحية الأخرى. عندما رفعت ذراعها رأى شعر إبطها اللزج.

قال لها وهو يلثم شعرها: "بابس، هل ما زلت تشعرين بالألم"؟ تغير تعبير وجهها على المرآة.

"ماذا يحدث إذا ادعيت أنك ضربتنى، أعطيتنى علقة ساخنة؟ ماذا يحدث عندئذٍ"؟

ملامح وجهه تنبسط ويبتسم. "أكون قد ضعت وانتهى أمرى".

"لا أعتقد"، قالت ثم انحنت إلى الأمام مرة أخرى. "ستدعى العكس، وسيشهد الجميع أننا زوجان منسجمان، وسأكون أنا الشريرة مرة أخرى، المرأة الهستيرية الطماعة التى لا تشبع من الفلوس. هذا ما سيحدث". تضع قطعة القطن الصغيرة خلف الصنبور قائلة: "حتى الحصانة لن يرفعوها عنك".

"ومع ذلك"، يقول وهو يقبلها، "سيظل شىء ما عالقًا بسمعتى".

"وإذا كنت حاملاً"؟ تتطلع إليه فى المرآة.

يزيح شعرها ذيل الحصان إلى الجانب ويلثمها خلف العنق. أنامله تلمس عظام كتفها. "أنا آسف جداً"، يقول مغمض العينين.

"ليس هناك داعٍ لأن تشعر بالأسف".

"بالرغم من ذلك"، يقول واضعًا يديه على بطنها. "كان على أن أتدخل قبل ذلك، قبل ذلك بكثير، ولكن من كان يستطيع أن يعرف"!

"فرانك"! يدخل يده تحت قميص نومها، ويسرعة يمدها إلى أعلى ويراقب في المرآة أصابعه على نهديها، تحاول باربارا أن تمسح ظلال جفونها.

"لم يكن أحد يستطيع أن يعرف"، تقول. على الجفون تعلقت وبرات قطنية. وتضيف: "كيف كان لأحد أن يعرف"!

يقبل كتفيها.

تدير ذراعها الأيسر وتتأمل مرفقها المخدوش. "هل تعتقد أنت أيضاً أنني سهلة يا فرانك؟ هل من السهل ضربي"؟

"كلام فاضي".

"أنا أسأل فقط. من السهل ضرب النساء القصيرات، أليس كذلك؟ قل لي. هل من السهل ضربي"؟ فرانك يتركها. باربارا تمسح يدها على قميصها.

"كيف كان لأحد أن يعرف"! تكرر وهي تجمع القطن على حافة الحوض، ثم تضغط على دواسة صفيحة القمامة الصغيرة. تقع كتلة قطنية بجانب الصفيحة. ينحني فرانك لالتقاطها. يلفظ اللبانة في كفه، ثم يدعسها في القطن المبلول، ويلقي به في الصفيحة. "أربعة عشر أو خمسة عشر تلميذاً"، يقول وهو ينهض. "رسبوا ثلاث مرات، مساكين، إذا نظرنا لكل على حدة".

"عندما بدأوا لم يتحرك أحد منكم يا فرانك. لا أحد". تفتح الصنبور وتضع الذراع المثنى تحته.

"من المفروض ألا يفعل المرء هذا. الجرح ينظف نفسه بنفسه".

"خمسة رجال. لا أحد من الخمسة كلف نفسه وفعل شيئًا. أتعرف ماذا يدهشني"؟

"طيب. هكذا ترين أنت الأمور، لكن، أنا أعتقد أن تصرفنا كان صحيحًا".

"أتعرف ماذا يدهشني؟ أنكم لم تكلفوا نادلة المطعم أن ..".

"كانوا يريدون أن يستفزونا. فقط الاستفزاز".

"آه، والحمد لله يا فرانك أننا لم نستجب لهم، رائع! وصديقك أورلاندو ... هل كانوا يريدون أيضًا استفزازه فقط؟ هل غرزوا لذلك السكين في ظهره"؟

"آه، لا تبالغي"!

"طوال نصف ساعة وهم يهتفون بشعاراتهم، وأنتم كنتم جالسين هناك ..".

"ولهذا ظللت تشربين حتى أصبحت لا ترين أمامك".

"وأنتم ظللتم جالسين هناك بأزيائكم البافارية الشعبية تلوكون اللبان، وعندما قالت هنّى إنها لا تريد أن تبقى، قلتم: طيب، وأردتم دفع الحساب".

"بعد عشر دقائق كانت الشرطة قد وصلت وطردتهم. ربما بعد ربع ساعة ..". بيده يفرد منشفتها المعلقة على الحامل.

"وفى الخارج كانوا فى انتظارنا".

"أتعتقدين أنهم كانوا سيسمعون كلامى؟ طبعًا لم يكن هذا ليحدث إذا حاولت طردهم بنفسى؟ هل هذا هو منطقك؟ هل علىّ أن أتدرب على المصارعة"؟ تغسل وجهها.

يقول: "ليس كل حمار يدعى الأهمية شخصًا نازيًّا! هل تريدين أن تضعيهم كلهم فى السجن"؟

"ماذا تقول"؟

"لا تتصرفى هكذا".

"فرانك"! يداها تحيط بحافة الحوض. من الذقن والأنف تتساقط قطرات المياه. "ما زلت أشعر بالاحترام تجاهك ..".

"وماذا كان علىّ أن أفعل؟ هل يمكن أن تقولى لى"؟

"أتعرف ماذا أطلقوا على امرأتك؟ لقد تصاممت عندما قالوا كيف يريدون أن يتعاملوا معى، أن يتعاملوا مع امرأتك؟

"كفى يا بابس ..".

"لم أحتفظ فى ذاكرتى سوى بالروائع".

"لا تصرخى هكذا! لقد سمعت أنا أيضًا".

"طيب. إذا كنت أنت أيضًا قد سمعت ... لقد اعتقدت أنك لم تسمع. تخيلت ذلك. أخطأت مرة أخرى. من فضلك سامحنى على ظلمى لك".

"هل كـان عليّ أن آخـذ علقـة"؟ يتـراجع فـرانك قلـيـلاً إلى الوراء. "ربما كنت قـد تغلبت على اثنين منهم، ربما ثلاثـة، ولكنـهم كـانوا عشـرة أو أكثر. كانوا سيضربونني ثم ..".

"ثم"؟ تسـاءلت ووجـهـا المبلول فوق الحـوض. أصـابعـهـا تتـحـسس المنشفة. "واصل كلامك يا فرانك. يضربونك ثم، ثم ماذا"؟

"هل تريدين هذا؟ أن يضربوني"؟ يتكئ إلى الجدار مشبكًا ذراعيه. الكيلوت الذى ترتديه تزحلق إلى أسفل قليلاً.

"بدلاً من ذلك جرينا كالأرانب يا فرانك. كالأرانب، وعندما طرت فى الهـواء كنت أنت واقفًـا فى انتظارى. لم أشـكرك بعد على ذلك. أنا ظالمة فـعلاً. انتظرتنى على بعد خطوات، ورحت تنصـحنى". تعلق المنشفة على الحـامل مـرة أخـرى. "ألم تـأخـذ علقـة أبدًا فى حـيـاتك يا فـرانك؟ كنت ستـخـرج مـعـافى بعـد أسبـوع من المسـتـشفى، على أكثـر تقـدير. كنت سأزورك كل يوم، وكنت سأطبخ لك أيضاً. أتعرف ماذا تكون"؟

"أنت جننتِ" قـال هابطًا ببصره على ساقيها. "كل مـا عليّ هو أن أخرج الآن. عندئذٍ سأعوض ما فاتنى".

"بالضبط"، قالت وهى تحل ذيل الحصـان، ثم راحت تمشط شعرها ورأسـهـا مـائل إلى الجـانب. "كنت أريد أن أطلب منك ذلك. على الأقل حـذائى، هل يمكنك أن تحـضـره؟ الحـذاء ليس إلا بضـعـة أبازيـم، ولكن ثمنها كان ٢٠٠ مارك".

"بابس"!

"نعم؟ تفضل، أصغى إليك يا فرانك".

"أتعتقدين أننى مستريح لما حدث"؟

"لا. لا أعتقد ذلك. كيف يخطر على بالك شيء كهذا"؟

"كيف فى رأيك"! يتتبع ببصره فى المرآة كيف تزيل الشعر من الفرشاة. "يمكنك أن تظني فيّ ما تريدين"، قال واضعًا يديه فى جيوبه. "كان علينا أن نأخذ تاكسيًا. ولكن عدا ذلك"؟

"ديمقراطيتكم الجميلة لن يضرها أشخاص مثلهم. مثلهم لا".

" ديمقراطيتكم! هذا الكلام المستهلك يا بابس! هذا الكلام أقرؤه كل يوم على الفطار. كلام يصيب بالغثيان"!

"لماذا تصرخ؟ سمعى ليس ثقيلاً". تفتح علبة ظلال الجفون البيضاوية المسطحة.

"بالطبع لا. لست ثقيلة السمع، ولكنك سكرانة. نجحت فى ذلك كالمعتاد نجاحًا عظيمًا". يفتح أزرار قميصه.

"لم تجبنى بعد يا فرانك". تنهمك فى طلاء رموشها.

"لم أجب على ماذا"؟

"على سؤالى". بالإصبع الصغير تنقط على زاوية العين. يعلق قميصه على مقبض الدفاية ثم يفتح حزامه.

"هل تحضر لى حذائى أم لا؟ أنا أسأل فقط". تغلق العلبة.

يترك بنطلونه يتساقط. "هل تسمحى لى بالمرور"؟

"فرانك"، تقول وهى ترسم حواف الشفتين. "هذا معناه ... هذا لا يمكن أن يعنى إلا ... إلا أنك لست على استعداد أن تحضر لى الحذاء. هل هذا صحيح"؟

يلقى فرانك بالجوارب فى سلة الغسيل، ثم يضع البنطلون فوقها ويجلس على حافة البانيو. يفتح الصنبور ويدع الماء البارد ينساب على قدميه. تسحب باربارا الكيلوت إلى أعلى وتخرج من الحمام، ثم تغلق باب غرفة النوم خلفها.

يفرد فرانك منشفة صغيرة أمام الحوض. يضغط على أنبوبة معجون الأسنان الحمراء "إلماكس"، ويضع منها على كلتا الفرشتين. يملأ كوبًا بالماء الدافئ ويضع فرشتها عليه، ثم يشرع فى تنظيف أسنانه. "بيوتى كوزميتك" يقرأ على العلبة المعلقة بجانب الحوض. "رقائق من القطن الخالص، ناعم ورقيق. يحافظ على نضارة بشرتك. من عدة طبقات، لا يترك نتفًا".

تخبط باربارا وتفتح الباب مباشرة. "هل تناولنى هذا"؟، قالت مشيرة إلى غطاء التواليت. يدع الفرشاة فى فمه ويعطيها الأشياء فرادى.

"لقد تلف هذا أيضًا". وتلقى بالجورب تحت الحوض، ثم تسحب البلوزة فوقه.

"ماذا حدث"؟ يقول وفمه ملىء بمعجون الأسنان. تلبس الجيبة. "ماذا تفعلين"؟

تغلق باربارا السوستة. ينحنى فرانك تجاه الصنبور ويغسل فمه. ينحرف جانباً حتى تتأمل وجهها فى المرآة.

"ماذا حدث الآن"؟ يقول وهو يقف مستقيماً جانبها. "أنا أتحمل الكثير، ولكننى لا أتقوقع على نفسى ... اسألنى لماذا تزوجت".

فى الردهة الأمامية تدخل الحذاء فى قدميها وهى تستند إلى المائدة الصغيرة، ثم تبحث فى شنطة يدها.

"من الأفضل أن ترتدى جاكتة صوفية".

"أين مفتاحى"؟

"فى الباب".

" حتى لم يخطر على بالك أن تذهب يا فرانك"؟

"لا، لم يخطر".

يتبعها حتى الباب. تفتحه بالمفتاح. يجذبها من كتفيها قبل أن تضغط على المقبض. يشدها من عضدها ويحيط بطنها بذراعيه ويؤرجحها. الآن يقف فرانك أمام الباب. يقول: "بابس، ليس معى".

"طبعاً، فلن يصدقنى أحد. أليس كذلك؟ هل سيصدقنى أحد؟ رجل كله طاقة مثلك! يتخذ دوماً إجراءات عنيفة. احترامى الشديد، احترامى وتبجيلى! عدلت من هندامها، ثم قالت: "دعنى يا فرانك. دعنى أذهب. أم تريد أن تقف الليل كله هنا، هه"؟ تخطو إلى الأمام. "هيا! لا تفكر كثيراً. فقط سأحضر حذائى، وبعدين .. ننه نام. أمامك غداً يوم شاق".

"لماذا تفعلين ذلك"؟

"هذا ما شرحته لك طوال الوقت" قالت وهى تغير من وضع وقفتها لتضع ثقلها على الساق الأخرى. "إلى متى سنظل نلعب هنا، هه"؟

الجرس يرن. الجرس يرن مرتين قصيرتين، ومرة طويلة، ثم بعد فترة صمت - يتبادلان فيها النظر - يرن الجرس رنة قصيرة مرة أخرى. يعطيها إشارة أن تتراجع، ويهمس: "بابس، بابس". يزيحها من طريقه ويسير إلى الحمام. يطفئ النور ويذهب إلى النافذة. بدون صوت يفتحها ويتكئ عليها. ينطفئ المصباح فوق باب المنزل. بعد لحظة ينادى: "مين"؟ فى الدقيقة ذاتها يسمع باب الشقة. فى الضوء الآتى من مدخل الشقة يلحظ شكلاً فى المرآة، منتصبًا، يرتدى فانلة داخلية، واليد على مقبض النافذة. يراقب الوجه منتظراً أن يتغير شىء. يشعر بتيار هواء عند القدمين.

"فرانكى" نادت عليه مغلقةً باب الشقة. "تعالَ! لقد سُرق الحذاء. كان هنا، هنا على العتبة. هيا، ننه نام"! بدون أن تخلع حذاءها سارت إلى غرفة النوم.

يلاحظ أنه ما زال واقفًا منتصب القامة ويده اليسرى على مقبض النافذة، ثم يرى كيف ينغلق الشباك ببطء.

الفصل الخامس عشر

خبطة كبيرة وضربة معلم

ديتر شوبرت وبيتر برترام يتحدثان عن امرأتين. صيد سمك الشبوط: رياضة جديدة. صعوبات مع شئ اسمه النجاح وكيفية توثيقه. وخزات فى منطقة القلب. ضباب وشمس الصباح.

"خبطة كبيرة"! صاح برترام وهو يضم سمكة الشبوط الضخمة إلى صدره. صعد التل الصغير على الشاطئ باحثًا فى كل خطوة عن شئ يستند إليه، ولم يقف إلا عندما فاجأه ضوء الكاميرا الخاطف. "عملاقة"!، صاح رافعًا السمكة، وبسرعة أحكم قبضته عليها.

"يا ربنا"! صاح شوبرت. "شئ يمسك بالسنارة، هناك شئ"! الزعانف الخلفية ترفرف يمينًا ويسارًا. "حاسب عليها، يا صياد الشبوط العظيم"! الضوء الخاطف مرة أخرى. أصابع برترام تنغرز فى لحم الشبوط. يسير شوبرت فى اتجاهه، إلا أنه بعد عدة خطوات يشير عبر كتفه إلى الخلف، ويصيح: "الميزان .."، ثم يعود أدراجه.

أمام الخيمة يجلس برترام القرفصاء على العشب. باليسرى كان يمسك بالشبوط تحت زعانفها الأمامية، وباليمنى فى المنطقة التى تصل البطن الأبيض بالذيل. راحت الزعانف السفلية تضرب أطراف حذاء برترام المتسخ.

"حاسب"! قال شوبرت وقرفص.

ابتسم برترام. هذه المرة يا ديتر"! قالها بانتصار مكوراً قبضته. "٥٠، أراهن"! لمست ذقنه زعانف الظهر.

"اثبت"! قال شوبرت. "عظيييم! عظيم جداً!

برتام يزحف على ركبتيه إلى الأمام وهو يمسك بالسمكة على صدره، ثم يضعها بحذر على الميزان الذى كان فى الأساس ميزان أشخاص. صاح: "٥١ وأربعة!

" اسكت يا بنى آدم، ٥١ وخمسة"!

"يا ربنا"، يقول شوبرت.

من تحت الفم يمسك برترام السمكة المتمايلة. "الميزان ببساطة صغير جداً، صغير جداً على هذا الحوت! ٥١ وستة، ٥١ وستة من عشرة!

"مدهش"، قال شوبرت وهو ينحنى أكثر حتى ملأت السمكة وعقرب الميزان الإطار فى عدسة آلة التصوير، ثم التقط صورة بالفلاش.

"السمكة استطعمت الدود"، قال برترام وهو يفرد متر القياس. "أطعم من الشيكولاتة. ٩٤، جاهز"؟

"ثانية واحدة"، قال شويرت. انتظرا حتى تم شحن الفلاش. من زجاجة بيبسى كبيرة صب ماء على السمكة.

ثبت برترام المقياس المترى على زعنفة الظهر ثم فرده على البطن: "٤٨" .

"تلمع كجناح حشرة"، قال شويرت. أعاد الجهاز إلى الخيمة ورجع حاملاً معه أنبوبة.

"ضربة معلم "، همس متحسسًا بطن السمكة. "كرشها كبير، ولا قشور تقريبًا. غريبة أن السمكة ما زالت بها الروح" . بحذر تحسس فم السمكة ثم وضع مرهم التئام الجروح على الموضع الذى شبك فيه الشص. دندن شويرت: "امشى عنه، روح للدبة ننوه" . ثم أضاف ماسحًا يديه فى العشب: "لابد أن نلتقط صورة أخرى، إنها تستحق ذلك" .

أفرغ برترام زجاجة البيبسى على الخياشيم. "تسمح لى"؟ رفع الشبوط وهبط المنحدر. عند القناة رجع خطوات إلى الوراء، ثم خاض فى الماء وأطلق سراح الشبوط.

"هويه، خبطة كبيرة"! صاح شويرت من أعلى مُقلداً نافخى الآلات النحاسية من فرقة "يلو سابمارين" . "هل ما زلت تراها"؟

برترام، واضعًا يديه فى وسطه، أرسل النظر إلى الضباب وسطح الماء البنى الأملس، ثم فحص السنارتين الأخريين. موازايًا له مشى شويرت على المنحدر، ثم قام بتمرينات ثنى الركبة، وصنع بذراعيه دوائر فى الهواء، ثم شرع فى الجرى ببطء حتى وصل إلى عمود الكهرباء التالى فرجع.

"هه، أيها الصياد العظيم"، قال لاهثًا، "كيف يشعر المرء فى مثل حالتك"؟ ولعت شفته السفلى.

سار برترام إلى الخيمة وشرب من زمزمية ماء، ثم مدها إلى شويرت الذى هز رأسه نافيًا، وراح يثنى جذعه على شكل دوائر.

"الدور عليك المرة القادمة"، قال برترام وخلع ثيابه. "عندئذٍ تستطيع أن توفر لعب العيال هذا. يظهر إن كل صواميل دماغك مفكوكةً يا ديتر! حذاء رياضى جديد وترييننج سوت"! بشبشب الحمام والكلسون تهادى إلى حبل الغسيل المشدود بين الخيمة وعمود الكهرباء، ثم ألقى فوقه بالقميص والجوارب والبنطلون الكاكى. وضع الحذاء المبلول عند المدخل، ثم أخذ يبحث عن الشنطة التى يحملها على الظهر.

راح شويرت يهز ساقيه وذراعيه. "ويقولون: لمدة ثلاثة أيام ينبغى على المرء أن يغرى الشبوط بالطعم. كلام فارغ. فى اليوم الثانى يأكل الطعم بكل سذاجة".

يرتدى برترام بلوفراً فوق ملابسه محاولاً التوازن على قدم واحدة وفى يديه جوارب نظيفة.

"هه، أيها الصياد العظيم! كم الساعة الآن"؟ يسأله شويرت، ثم يبدأ تمرينات التنفس.

يخطو برترام بقدم حافية على العشب، ويمسح الأصابع فى القدم الأخرى ثم يرتدى جورباً. دخل الخيمة وصاح من الداخل: "كان عليك أن تسافر إلى صاحبتك مانكا، وليس إلى هنا"!

"ماذا جرى؟ أنا فى أحسن حال"، قال شوبرت مزيحًا الغطاء عن مدخل الخيمة. "هل تشعر بالجوع يا بيتر"؟

"كنت أظن أنك اشتريت علبة كاملة"، قال برترام. "كنت تريد أن تشترى علبة أفلام".

"وهو ما فعلت". يزحف شوبرت تجاه الحصيرة التى ينام عليها.

"حوالى ساعة كاملة. حوالى ساعة كاملة وأنا أصارع السمكة بدون صورة واحدة، لأن سعادتك كنت نائمًا".

"كان عليك أن تقول شيئًا". شوبرت يرتب الكيس الذى ينام داخله. "فأنا لست مراسلاً رياضياً".

"أنت تهتم فقط بالـ ... لكن هذا لم يعد يهمك. لم يعد يهمك ولا حتى بهذا القدر". بين الإبهام والسبابة لم تزد المسافة عن سنتيمتر واحد.

"غير صحيح"، قال شوبرت.

"ولا كلمة. أنت لم يعد فى دماغك سوى هذه المرأة، والحصول على شهادة تثبت أنك كنت ملاحقًا سياسياً. هذه هى الحقيقة".

"إذا لم تكن لدى رغبة، ما كنت سأجىء إلى هنا ، لكن شكلك وأنت بتبحلق ..". وقهقه شوبرت. "لما انطلقت صفارة السنارة بعد أن شبكت السمكة". شد سوستة كيس النوم لأعلى. "لقد صرخت: إنذااااار. صرخت بصوت عالٍ جداً"!

"كما كان يحدث على الحدود مع ألمانيا الغربية"، قال برترام.

"هل كانت الصفارة تنطلق هناك أيضاً"؟

سحب برترام نفساً من أنفه، وشبك ذراعيه تحت رأسه."هناك كان عندنا حيوانات على كل لون: أرانب وثعالب وأيائل ووعول وخنازير برية وغُرير - على كل لون".

"وأنا كان نصيبي هذا"، قال شوبرت ونقر بطرف إصبعه على عينه الزجاجية.

"ما يدهشني أن الحيوانات لم تفهم. لقد كانت ترى ما يحدث لغيرها، وكيف كانوا يتمزقون. مع أن حدس الحيوانات قوي. إنها تشعر حتى بالزلازل قبل أن تقع".

"هل استغنوا عنك لذلك"؟

"ماذا"؟

"رتبتك كانت كبيرة، أليس كذلك"؟

"في كل مرة يستدعونني، كنت أحصل على نجمة أخرى، ولكن ماذا يعني ذلك؟ الآخرون كانوا في الفرقة القتالية".

"لماذا"؟

"كنت أعتقد أننا جئنا هنا لنصطاد يا زيوس".

ضحك شوبرت ونقر مرة أخرى على العين الزجاجية. "آخر واحد قال لي يا زيوس ندم عليها فيما بعد". ضرب بيده سقف الخيمة. تساقطت قطرات من الماء، وأضاف: "ندماً عظيماً".

"أنت تتصرف كالأطفال"، وأمسك برترام بيد شوبرت.

"نعم" أجابه شوبرت، "عجوز وطفل".

"وعاطفي".

"وكل مـا تريد. على كل حـال ليس لك ذكـر في ملفـاتي. عليك أن تشعر بالفرح أكثر، على الأقل عند الصيد".

ترك برترام يد شـوبرت. "المومس"، تابع كـلامـه، "التي تمص دمك. هي تسعدك، أليس كذلك"؟

"هي ..".

"موم .. عاهرة صغيرة، أصغر من بنتك كوني".

خبط شوبرت مرة أخرى على السقف.

"زيوس"، قال واستدار إليه. راح يشد كيس النوم حتى غطى ظهره، ثم واصل قائلاً: "ألا تستغرب ماريانا أنك تسافر كثيراً إلى برلين"؟

"لم يكن هناك شيء"، قال شوبرت بعد وصول موجة إلى الشاطئ، ثم أخذ يدندن بعض النغمات لفريق "يلو سابمارين". من الشاطئ الآخر تناهت إلى سمعهم أبواق سيارات. "هيا يا بيتر"، أضاف. "إننا نعرف بعضنا تماماً". وبيده أعاد شعره إلى الوراء. "ربما لم يكن كل هذا سيئًا بالنسبة لنا".

قهقه برترام عاليًا. "بالتأكيد برج من عقلك طار"!

فقال شوبرت: "أنت تتكلم كأنك رجل عجوز. بدلاً من أن تبحث لك عن واحدة، فإنك تتمخض وتلد تخاريف لا يريد أحد أن ينشرها".

"إيه؟ فجأة أصبح ما أكتبه تخاريف قذرة"؟

"أريد أن أقول من الأفضل أن تبحث لك عن امرأة".

"أصبح فجأة تخاريف قذرة"؟

"يا بنى آدم .. خليك هادى ..".

"أنا أسألك إذا كان ما أكتبه قد تحول فجأة إلى تخاريف قذرة. أتتذكر أشياء أخرى تماماً، حماساً حقيقياً، أم أنا مخطئ"؟

"لابد أن تعترف بأن هذا ..".

"إيه"؟

"ليس طبيعياً تماماً".

"ليس طبيعياً"؟ ارتكز برترام فى رقدته على مرفقيه. "ولماذا كنت تريد أن تشترى التخاريف القذرة التى أكتبها؟ لماذا صورتها؟ لماذا قلت إنه انتصب عند القراءة؟ لم يعد يؤثر فيك ما أكتب"؟

"كلام فارغ"! قال شوبرت.

"ربما يكون زيوس هو الذى لم يعد طبيعياً تماماً؟ لماذا تدفع لعاهرتك إذا كانت لا تطلب أبداً"؟

"إنها تستحق"، قال شوبرت.

"هل تريد أن أقول لك لماذا تستحق؟ لماذا تدفع لها"؟

"أريد علاقة واضحة. هذا هو كل شيء. هي هناك، وأنا هنا، ثم نتقابل. هي تحصل على نقودها، ثم ننفصل".

"أود لو أحصل على خيالك"، قال برترام. "أولاً: تريد الصغيرة كسب بعض المال. ثانياً: أنت تطلب منها أشياء، أشياء يسيل لها اللعاب. أقول هذا من واقع معرفتي بك، أم أنا مخطئ يا زيوس"؟

الرياح تعصف بسقف الخيمة. برترام يرفع رأسه ثانية.

"سيان ما تفكر فيه يا بيتر"، يقول شوبرت.

"أى شيء آخر يمكن أن أعتقده بالنسبة لشخص يقرأ تخاريف قذرة"؟

قال ساخطاً: "يا سلام عليك يا بيتر"!

فى اللحظة التالية ارتفع جذعهما معاً.

"هيا"! صرخ برترام. انطلقت الصفارة من السنارة.

بعدها بقليل تتبع شوبرت السمكة سائراً مع التيار تجاه مفاعل الطاقة.

"اترك لها الخيط، إنها تبتعد! هه، هه، هيييه"! هتف برترام مصفقاً. سمع خشخشة الخيط وهو ينساب من البكرة. فيما عدا الأزيز المنبعث من خطوط الكهرباء وهدير عدة سيارات على الضفة الأخرى كان الهدوء يعم المكان. عندما استدار كان شوبرت يجرى باتجاهه.

"سأجرى إلى المفاعل يا ديتر"، صاح برترام، "أريد أن أرى دوامة، دوامة كبيرة! حاجة تملأ العين"!

فى اللحظة ذاتها تحركت البوصة وكأن الحياة عادت إليها. مد شوبرت كلا ذراعيه إلى الأمام، فانساب الخيط إلى نهايته.

"بنت الناصحة"!

أحضر برترام الشبكة الصغيرة ذات اليد الخشبية. قرفص شوبرت على الشاطئ بذراعين ممدودين، بينما وصلت أطراف البوصة إلى الماء. راح يجذب الخيط مديراً البكرة.

"غير معقول! هل السمكة بهذه الخفة؟ أم أنها تخلصت من الشص"؟ نهض شوبرت من وضع القرفصاء، وترك الخيط يسحبه عكس التيار. لم يعد الطقس بارداً. شيئًا فشيئًا تراءت الضفة الأخرى وحواجز الطريق وكشافات السيارات.

فجأة صار الخيط مشدوداً. طرف السنارة منغمس فى الماء . ضم شوبرت شفتيه، ونفرت العروق من جبهته وسوالفه، ومن تحت ذقنه أيضاً.

"عظيم"! صاح برترام. ""هذا هو الكلام، لابد من الصراع"!

تنفس شوبرت بصعوبة، وتقوس عوده من الإجهاد.

"هذا هو أجمل شيء، أن تشعر بها، شد حيلك يا ديتر! ماذا ستطلق عليها"؟

"بيج بن"، قال شويرت وهو يصر بأسنانه محاولاً أن يبتعد فى خطوات صغيرة عن الشاطئ. أخذ الشبوط يتأرجح يميناً ويساراً، ولكن شويرت نجح فى احتواء مقاومته العنيفة.

"لدينا بيج بن بالفعل، سمها ضربة معلم"، هتف برترام دون أن يرفع عينيه عن الماء. "ضربة معلم تسمية حلوة، أليس كذلك؟ هى إذن ضربة معلم".

ظهر الشبوط على السطح. "هيه"!، صاح شويرت. "يا سلام عليك يا ديتر"! صرخ برترام متحمساً. "على وشك الهبوط، اجهز"!

بدا الأمر وكأن السمكة تخلت عن مقاومتها. موجات صغيرة تدافعت إلى الشاطئ.

سحب شويرت سمكة الشبوط. حاول بساعده أن يزيح خصلة من شعره عن جبينه اللزج، إلا أن أنفه اصطدمت بالسمكة. قال: "يع"! ثم لمع ضوء الفلاش.

"ماذا بك؟ لماذا قلبت وجهك هكذا"؟ تساءل برترام.

لم يُجِبْ شويرت. الشبوط يرتطم بالميزان. "١٥ وخمسة من عشرة، وستة من عشرة"، قال شويرت ثم انحرف جانبًا حتى يخلى مكانًا لبرترام. راح يراقبه وهو ينحنى على الميزان لقراءة المؤشر، ثم وهو يرفع السمكة قليلاً لينظر أسفلها قبل أن يعيدها.

"٥١ وخمسة من عشرة"، قال برترام. "غير معقول. ٥١ وستة من عشرة". وقفا جنبًا إلى جنب ناظرين إلى الشبوط. تقدم برترام خطوة إلى الأمام: "الرجل ليس عبيطًا. غير معقول. ضربة معلم"!

"أشعر بالغثيان" قال شوبرت. "الرائحة عفنة".

"كلام فارغ"، رد عليه برترام. "هيا تغلب على قرفك". يفرد المقياس المترى على السمكة. ٩٤ . ألا تستطيع على الأقل التقاط صورة؟ ٤٨ . ماذا حدث لك"؟ تناول برترام مرهم الجروح. "نسينا الماء". يشير إلى الخياشيم، ثم مر بأصابعه داخل فم الشبوط.

راح شوبرت يدلك قلبه، ممسكًا آلة التصوير بيده اليسرى.

"لن يصدقك أحد يا ديتر، فعلاً. مَن يرَ الصورة سيعتقد أنك استلفت السمكة من أحد، استلفتها منى".

"أو العكس".

"كيف"؟

"الكاميرا لا تظهر تاريخ التقاط كل صورة". انقلب وجه شوبرت وحوله بعيداً، ثم فح متألمًا: "آه على حظى النحس".

"تقصد ..".

انهار شوبرت قاعداً.

"ماذا، ماذا حدث يا ديتر؟ هل تشعر بالغثيان"؟

تمدد شوبرت على العشب. "لابد أن أتمدد"، قال ثم رقد على ظهره. "الوخز مؤلم".

"ماذا"؟ سحب برترام الشبوط إلى الجانب. "ماذا حدث"؟

"سينقضي الأمر بعد لحظات"، قال شوبرت. عض على شفته السفلى، ثم راحت يده تدلك جسده تحت القميص. "أبعدها من هنا، من فضلك يا بيتر. رائحتها عفنة".

نزل برترام المنحدر وفي يده السمكة. تعثر عدة مرات، ولكنه كان يستقيم.

عندما وصل الماء حتى ركبتيه ترك الشبوط يسقط. هبط أمامه حتى وصل إلى القاع. خبطه برترام بأصابع قدميه، وانحنى، لكنه لم يلبث أن نهض.

"ديتر"!، صرخ برترام. لم ير سوى الخيمة وحبل الغسيل المشدود وعليه جواربه المبلولة. "زيوس"!

عكس التيار سطعت أشعة الشمس بعد أن اخترقت الضباب. الآن يستطيع المرء أن يفرق بين ألوان السيارات على الضفة الأخرى.

" يا متسلق الجبال، أنت"! صاح برترام. "يا متسلق الجبال"! وفجأة انحنى دافعًا الشبوط أمامه كأنه قارب صغير. شعر بالماء يعتصر خصره، وبالطمي والأحجار تحت أقدامه. صرخ عاليًا.

انجرفت السمكة مع التيار. سار برترام راجعًا في اتجاه الشاطئ وذراعاه مفرودان. عندما كان يقطع الأمتار الأخيرة قبل الشاطئ

استدار مرة أخرى. اعتقد أنه لمح ثانية بطن الشبوط الأبيض فى الانعكاسات الضوئية لشمس الصباح.

جفف برترام يديه فى البلوفر، وجرجر قدميه بين الحصى والزلط حتى وصل إلى السنارة. خشخشة خفيفة تصدر عن شبشبه، ثم صعد التل.

ركع طويلاً بجانب شويرت على العشب، ثم نجح أخيراً أن يوسد رأس صديقه على حجره، وأن يغلق عينيه وفمه. ما زالت آثار أسنانه العلوية واضحة على شفته السفلى.

"إيه يا زيوس"!، قال برترام، وبإحدى يديه راح يتحسس جبينه وخده، وباليد الأخرى العين الزجاجية.

الفصل السادس عشر

علب

جينى، المتدربة على التمريض، تتقابل مع المريضة ماريانا شوبرت بالقرب من مستشفى فيرشوف فى برلين. يتبادلان الحديث حول رجل ميت. مايك، الجرسون الشاب، يقوم بخدمتهما. سيجارة جينى تحترق فى المنفضة. قيم زائلة وأخرى خالدة.

"لماذا تحكين لى هذا"؟

"اعتقدت أنك تريدين أن تعرفى ..".

"لا أصدقك".

"هذا شأنك أنت"، قالت جينى.

كانتا تجلسان متجاورتين على البار. الجرسون الشاب كان قد انتهى من صنع القهوة ومن إعداد كأس جين تونيك لجينى. بعد ذلك جمع الكراسى من الموائد. عبر ستارة اختفى فى الداخل، ولم يظهر

إلا بين الحين والآخر حتى يفرغ المنفضة. شعره كثيف أشقر يميل إلى الاحمرار. بدا شاحبًا ومنكسراً، أو ربما منهكًا فحسب. لا يكاد ضوء النهار يتسلل من النافذة بسبب السقالات أمام المنزل التى يتدلى من أمامها غطاء طويل من المشمع. كانت الساعة حوالى التاسعة صباحاً.

قالت جينى: "من المفروض أنك تعلمين".

"ماذا"؟

"أن ما أقوله صحيح".

"لا".

"قال إن بينك ..".

"اسمعى .."

"لم يكن بيننا شىء"، قالت جينى وهى تدهس السيجارة التى دخنت نصفها. "ولهذا حكيت لك ذلك، حتى لا تفكرى فى الأمر، وتعتقدى أنك الســ..".

"لم أعد – أريد كل ذلك. لم أتحدث عنه أبداً، ولا مع بنى آدم واحد. لأنه لا يهم أحداً. تحشرين أنفك فيما لا يعنيك".

تناولت جينى رشفة، وقالت: "متأسفة". بقيت فى الكأس قطع ثلج. "اعتقدت ..".

"إنك تجمعين تخاريف وتحاولين تكوين حكاية ..".

"لماذا اتصلت بى إذن؟ كان بإمكانك أن ترمى الجواب فى الصندوق وينتهى الأمر".

لبرهة أغلقت المرأة عينيها، ثم أرسلت النظر عبر الكتفين إلى الفراغ.

"أعطتنى الشرطة أشياءه، هذا واحد". ورفعت إبهامها الأيمن. "اثنان: لقد وجدت الخطاب فى حقيبة سفره، لم يكن عليه طابع. لا أعرف واحدة اسمها جينى ريتر فى برلين. العنوان كان غريبًا علىّ. تناولت دليل التليفون واتصلت بك".

"أردت أن تعرفى من هى جينى ريتر".

"لا". وألقت المرأة نظرة على أظفار يديها. "لم أرد أن يرسل متوفى جوابًا".

"ولكن فيما بعد ..".

"عن هذه الأشياء لا يتحدث المرء فى التليفون. كان عليك أن تعلمى هذا كممرضة. أردت أن أخبرك بما حدث لزوجى".

"ألم تتعرفى على صوتى"؟

"وحتى! من يخطر على باله شىء كهذا؟ كما أننى لم أكن أعرف اسمك بالكامل".

"ألم تشعرى بالفضول وأردت أن تعرفى ما بداخله"؟ سحبت جينى المظروف الرمادى من جيب الجاكيتة ووضعته بين فنجانى القهوة.

"مكانك كنت سأشعر بالفضول. أنا أريد دائمًا أن أعرف الحقيقة". تشعل لنفسها سيجارة وتنفخ في عود الثقاب مطفئة إياه.

"لم أعد أريد ذلك"، قالت المرأة وأرسلت البصر جانبًا عندما ظهر الجرسون.

"واحد تاني"، قالت جيني ورفعت كأسها الفارغ.

"وحضرتك؟ قهوة"؟

"لا، شكرًا. أو ماء، من غير شيء، ماء من الحنفية، ممكن"؟

"طبعًا"، قال الجرسون. ولبرهة أشرق وجهه. صمتا حتى وضع الجين تونيك لجيني، ثم ذهب إلى الخلف بكوب فارغ.

"ماذا تعرفين عني"؟ سألت المرأة بصوت منخفض.

"اسمك الأول ... ماريانا".

"هل أعجبك ذلك، رجل بعين زجاجية؟ أتخيل أنك ... لو أردت".

"لم يكن ديتر سيلفت نظري – وبعدين"؟

"ولا شيء. لم يكن ليلفت نظرك ..".

"كان سيكسر ساقه عندما اصطدم بثلاثة كراس في طريقه إلى الشباك، بدلاً من أن يزيح الكرسي من طريقه، لكنه سرعان ما نهض .. بسبب المعطف .. كوره على حجره، وعندما جاءت قائمة الطعام لم يعرف أين يضعه. كان دائمًا قلقًا في مكانه – يأتي بكم هائل من حركات

لا لزوم لها، أتفهمين؟ هذا غير حديثه بصوت خافت حتى أن النادلة كانت لابد أن تسأله ماذا يعني. كان يجلس بحذر، محملقًا في طبقه حتى لا تتقابل نظراتنا، وعندما انتهى دفع على الفور ثم انصرف".

"تفضلي"، قال الجرسون. "ليست مثلجة، فقط باردة". كان يتحدث بلكنة أهل سوابيا(١).

"شكراً"، أجابته المرأة.

"شيء آخر"؟

"شكراً جزيلاً". راحت تبحث في شنطة يدها. تردد الجرسون وظل واقفًا، ثم بدّل المنافض وانصرف.

أمسكت جيني بكوعها. "الأربعاء التالي تقابلنا مرة أخرى. ظننت أنه يتردد كثيراً على هذا المكان، وهو ظن أنني أجلس دائمًا هناك. عزمني على الأكل. حدث كل شيء بالصدفة".

أدارت جيني معصمها الأيسر حتى اصطدمت ساعتها بكأس الجين. "إذا أمسكتُ بسيجارة، كانت ولاعته تشتعل. إذا واصلت الحديث انطفأت، وانتظر الفرصة التالية. كان يساعدني على ارتداء الجاكيتة، ويُبقي الباب مفتوحًا. عندما لاحظت مقصده قلت له إنني نشأت في برلين الشرقية، في فريدريشسهاين".

(١) سوابيا: منطقة تقع في ولاية بادن - فورتيمبرج بجنوب ألمانيا (الغربية سابقًا) (المترجم).

"أى مقصد"؟

"كان يعتقد أننا هنا جميعًا من الغرب لأننا نجلس فى الغرب، لهذا ذكرت ذلك. إما أنه لم يعرف أين يقع حى فريدريشسهاين، أو

"لم يكن يحب برلين. لم نزر برلين أبدًا، ولا حتى قصر "سانسوسى". كان يفضل دريسدن، والأبنية ذات طراز الباروك الإيطالى، وهناك كانت الجبال أيضًا، جبال الألب الحجرية الرملية. بالتأكيد حكى لك أنه يتسلق الجبال". قربت الكوب إليها وأخذت قرص أسبرين من العلبة وتركته يسقط فى الماء.

"لم أجد الموضوع أهمية" قالت جينى وهى تهرش فى كلا ساعديها فى الوقت نفسه. "شربنا كأسًا معًا، وفجأة عرض علىّ ثلاثمائة. لا يريد منى أكثر من أن يرقد ويستيقظ بجانبى".

كلتا المرأتين ترمقان قرص الأسبرين الذى كان يتحرك فى قاع الكوب وكأنه سمكة صغيرة.

"كان يعرف أننى سأصبح ممرضة".

"كنا نطلق عليهن فيما مضى "ملائكة الفنيك". كل العاملين فى المستشفيات كانت تفوح منهم رائحة الفنيك".

"قلت له: سأصبح ممرضة، إلا أنه ابتسم، وكأنه لا يصدق".

"يبدو بالفعل أنه لم يصدق. ألم تشعرى بالإهانة؟ لماذا لم ترفضى"؟

"نعم"، أجابت جينى. "كان علىّ أن أفعل". راحت تتأمل الستارة، ثم نظرت إلى الرف الموضوع عليه زجاجات العرق وإلى الجدار ذى المرايا،

ثم رجعت بعينيها إلى الكوب حيث كان القرص يفور ويكاد يستقر في وضع رأسي.

"هل أعجبك"؟

"عندما لاحظ أنني أفكر في الأمر عرض عليّ خمسمائة. لم أشعر بالخوف".

"ولكن في المرة الأخيرة ..".

"لم يكن للأمر علاقة بالخوف". تحسست يد جيني كأس الجين تونيك.

"لا تريدين التحدث عن ذلك"؟

"لقد فعلت، لكنك لا تصدقينني".

"كل ما قلته إنه كان عنيفاً".

بللت جيني شفتيها من الكأس: "شاذاً، وليس عنيفاً".

"نعم"؟

"شاذ".

"ماذا فعـ .. ماذا حدث"؟

"كالمسحوق الفوار"، قالت جيني مشيرة بذقنها تجاه القرص. الشيء الوحيد الذي كنت أريده بعد ذلك - كنت أريد أن أرى وجهه. عندما يذهب لزيارتك، عندما نتقابل في المحطة، أو عندما أفتح باب

حجرتك ويكون هو جالسًا على فراشك، عندما أسأل إذا كنت تأكلين في العشاء سجقًا أم جبنة. أردت أن أرى وجهه".

"أردت ابتزازه"؟

"تخيلت ما كان يدور في رأسه".

"وبعدين"؟

"الرعب".

"كنت تتمنين ..".

"أن يصيبه الرعب، نعم".

أومأت المرأة، ثم هزت رأسها. "ملاك الفنيك كـ ... هه -".

"لست هكذا، وأنت تعلمين ذلك أيضاً".

"حدث هذا بالصدفة. كان يريد ذلك. لماذا لا تصدقينني"؟

"حسب كلامك اجتمعتما خمس مرات. يعني قبضت خمس مرات".

"لا"، قالت جيني. "آخر مرة لا".

"لقد أخذت نقوداً منه".

"لا علاقة لهذا بذاك. ليس من الضروري أن تهينيني".

عام القرص على السطح. تفتتت بعض القطع والتصقت بالحافة. من الكوب تناثر الرذاذ على المظروف.

"نعم، والآن قد هرب منك. فطس أثناء صيد السمك. عندما وجدوه، كان قد فات الآوان".

"أعرف"، قالت جيني. "أخبرونا في القسم. كان يحكي كثيراً عن صيد السمك. كان لا يتوقف عن الحكي. كان يستطيع الحكي".

"كان مدرساً".

"كان يريد أن يشرح لي الشرق كله".

"كان يشعر بالمرارة".

"أعرف، بسبب العين، لأنهم لم يركبوا له العين بطريقة مضبوطة".

"ماذا"؟

"طبعًا. كان يكره ألمانيا الشرقية لأنهم لم يستطيعوا هناك أن يركبوا العين بطريقة مضبوطة، على الأقل عينه هو".

"بسبب العين"؟

"وأيضًا بسبب اسم الشهرة".

"كان ذلك بعد الحرب. عثروا على ذخيرة ... لهذا لم ..".

"أعرف حكاياته، كلها، من المدرسة المسائية حتى مجموعة الرسم والدراسة، ثم كيف طردوه".

"من غير سبب، من غير سبب على الإطلاق"!

"وأنه كان مرغمًا على العمل فى مناجم الفحم، كى يثبت حسن سيره وسلوكه، ولماذا لا يريدونه كمعلم، أو على الأقل فى الوقت الحالى، وكيف يضطهدون ابنتك، وأن "كونى" هى الأولى التى أدركت ما ستؤول إليه الأمور، وحكاية العلب، وكل هذه الأشياء".

"ماذا، وما هى حكاية العلب هذه"؟ وظلت المرأة ممسكة بالكوب وفيه القرص الذائب.

"هكذا أطلق على الأمر، بسبب مجموعة العلب الصفيح ... عندما كان ديتر يبيت هنا، فى شقة ابن أخيك، شارع ليزلوتة هيرمان، كان يعرض مجموعة العلب التى يملكها. أخى كان كذلك بالضبط. كان يستبدل كل شىء من أجل العلب، حتى الفلوس".

"علب بيرة فارغة"؟

نعم، بالطبع. ألم تتحدثا أبدًا عن ذلك؟ كان يعبث بمحتويات الزبالة فى ميشندورف، لذلك لا يستطيع الآن أن يقلع عن هذه العادة. ليس هناك علبة من غير حكاية. الآن أصبح كل شىء خردة لا قيمة لها. الآن يمكن الحصول عليها من كل كشك. هذا ما قاله بلسانه، لكنه -كما يبدو- لم يكن مقتنعًا أبدًا بذلك".

"تتحدثين عن زوجى"؟

"ربما ينطبق هذا الكلام عليه أيضًا"

"تحدثتما عن هذه المواضيع"؟

"طوال الليل. ذات مرة قال: انظرى، أليس هذا رائعًا"؟ كان الفجر قد طلع. لم ننم دقيقة واحدة. تناول يدى وراح يقبلها بحذر، قبلة هنا، وقبلة هناك، حتى أطراف الأصابع. فجأة وجدت نفسى أتثاءب. شعرت بفمى يتسع ويتسع، ولم أقدر على فعل شىء لإيقافه. أثناء ذلك راح ينظر داخل فمى. طوال الوقت. لم أستطع أن أضع يدى أمام فمى، فقد كان يمسك بها. اعتذرت، لكنه قال: يمكنك أن تكررى ذلك كلما شئت، ثم واصل تقبيل يدى. كان كل شىء فى يعجبه".

"لماذا تحكين لى ذلك"؟

"حتى تصدقينى. حتى تتأكدى من أننى لم أكن أحسب حساب كل شىء. ربما كان على أن أخمن العواقب، عندما يحكى شخص ويحكى، ولا شىء غير هذا. لا يمكن أن تكون النهاية جيدة".

"أحيانًا كانت أبراج دماغه كلها تطير"، قالت المرأة.

ضحكت جينى، تناولت كأسها ثم وضعته مرة أخرى.

"ولكن ... لماذا تضحكين إذن"؟

"كيف"؟

هزت جينى رأسها.

"إذا كان قد حكى لك كل هذا – ماذا تريدين أكثر"؟

"أنت لا تفهميننى". وضعت جينى يدها على ساعدها.

"فى متـرو الأنفـاق جلست أمـامنا تركيـة، ٢٠ سنة ربما، ومـعـهـا خمسة أو ستة أكياس تسوق. كَفّاها ضخمتان، كأنهما جاروفان. من خلالهما استشف ديتر قَدَرَ امرأةٍ مُسخرة للعمل، ولم يستطع أن يهدأ أبداً. هذا بالضبط هو ديتر".

"ركبتما معًا مترو الأنفاق"؟

"نعم، لماذا"؟

فى الكوب لم يتبقَّ من القرص سوى حلقة بيضاء على الحافة.

"انتبهى"! قالت المرأة. "هنا! ستسقط حالاً".

أبعدت جينى السيجارة من حافة المنفضة ثم دهستها.

"هل ما زال يؤلمك"؟ وأشارت جينى بالإبهام ناحية الثدى.

"لابد أن أتواجد هناك فى العاشرة، أشعة. لابد أن أنصرف".

"نعم"، قالت جينى وأمـأت. "ليس من الضرورى أن نودع بعضنا". واتكأت جانبًا.

"أثنى دائمًا مؤخرة الحذاء". تصيدت أصـابعها الحذاء، فلامس رأسها كتف المرأة. حتى عندما ضغطت وجنة جينى على خصرها، بقيت مستقيمة فى جلستها ولم تحرك ساكنًا.

"إنه حذاء جيد"، قالت جينى عندما ظهرت ثانيةً. "ولكننى أدوسه من الوراء دائمًا، كسل فظيع. هل ستمشين"؟

"إنهما خطوتان فحسب".

أومأت جينى. "هل تشعرين بالتحسن - بعد الأسبرين"؟

"يا إلهى"! قالت المرأة وهى تنزل من على كرسى البار العالى الخالى من المساند. "هذه الكراسى ليست لى"! وجدت نفسها تستند رغماً عنها على فخذ جينى. "عندك زر فوق أوشك على الوقوع".

"شكرا"، قالت جينى عندما وقفتا متواجهتين.

"عليك ألا تنحنى كثيراً هكذا"، قالت المرأة. "والأفضل ألا تنحنى إطلاقًا".

أومأت جينى مرة أخرى وتتبعتها ببصرها حتى انغلق الباب.

"ها - وبعدين"؟ سأل الجرسون الذى وقف هناك فجأة.

"هل ارتحت الآن"؟ راح يمسح طاولة البار. رفع المنفضة ثم وضعها فى الموضع نفسه. ظلت جينى جالسة فى مكانها.

"لا أفهم معنى هذا كله! ماذا استفدت من ذلك"؟

أحنى جذعه وخفض رأسه حتى يتطلع إلى وجهها.

"جينى! أنا أتحدث معك. لم تصدق المرأة كلمة مما قلته. ماذا يعنى كل هذا الكلام الفارغ"؟ أخذ يتفرج عليها وهى تنقر على العلبة مُخرجةً سيجارة، فأسرع إليها بالولاعة.

"أنتَ ظننت أننى سأحكى كل شىء"، قالت جينى وهى تنفخ الدخان جانبًا. "لم تترك مكانك وراء الستارة لأنك لم ترد أن يفوتك شىء".

"تخاريف"، قال الجرسون. "هل دعوتها على الأقل"؟

"أتعرف ماذا يسمون ذلك يا مايكى؟ أنا أسميه تلصصاً". وضعت جينى السيجارة على حافة المنفضة، ثم فتحت المظروف الرمادى وألقت نظرة داخله.

"هذه الوظيفة لا تناسبك"، قال الجرسون. "لقد قلت لك ذلك على الفور. لا تناسبك".

أجابت عليه: "ليست وظيفتى".

"أنت فعلاً تخرفين"، قال دون أن ينظر إليها. تورد وجهه ولمعت جبهته وطرف أنفه. "إما أن تتحملى، أو تتخلى عن الأمر. عندئذ لن تكون وظيفتك، فهمت؟ ولماذا تجلسين هنا، على البار، إذا كنت تريدين ألا أسمع شيئًا"؟ وضع كأسًا أخرى من الجين تونيك أمامها. "كانت المرأة تفضل أن تجلس تحت، على أى مائدة عادية، فى حالتها هذه".

شرعت جينى تحصى الأوراق النقدية بكلتا يديها. "أتريد أن تعرف ماذا كان يفعل"؟

قلب الجرسون المظروف الفارغ على طاولة البار. "هل هذا خطُّه"؟

"محتمل. محتمل يكون هذا خطه". تثاءبت جينى وأحصت الأوراق النقدية للمرة الثانية. "لا تريد أن تعرف إذن يا مايكى"؟

"كريم جداً"، قال الجرسون. "خمسمائة؟ كان يمكنك أن تنتظرى حتى يدفنوه، على الأقل حتى ذلك الحين".

دست النقود فى شنطتها. "أحتاج إلى حذاء جديد"، قالت وتثاءبت مرة أخرى.

"يا ربنا! غير معقول ما تقولينه يا جينى"!، صاح الجرسون.

"أنا أشترى لك عشرين حذاء، ما شئت من أحذية"!

مسح يديه فى المنشفة. "أنتِ تعبانة"؟

"لا"، أجابت. "ولكن هذه العتمة هنا".

"فنجان قهوة آخر"؟

"لا"، قالت جينى وظلت تنقر بطرف إصبعها على السيجارة حتى لم يعد الفلتر على حافة المنفضة.

"أنا على ما يرام. أشعر فعلاً بأننى فى حالة طيبة". بحذر قربت الكأس المملوءة إلى فمها وشرعت تحتسى، بينما كان الجرسون يتطلع إليها واضعاً يديه فى وسطه.

الفصل السابع عشر

ديون

كريستيان باير يحكى عن إجازة قضاها فى نيويورك مع مَنّى، صديقته الجديدة. زيارة مفاجئة. رجال ومال ومياه.

بعد خمسة أيام فى المدينة لم نكن شاهدنا إلا تمثال الحرية ومركز التجارة العالمى ومتحف التاريخ الطبيعى. درجة الحرارة بلغت فى الحادية عشرة - وفق ما شاهدناه على شاشة التليفزيون - ١٠١ درجة فهرنهيت. حسب معادلات التحويل المكتوبة فى الدليل السياحى "بيديكر" فإن هذا يساوى ٣٨.٣٣ درجة مئوية. كل شىء حار ورطب، حتى قاعدة الحمام. الكتب تتموج صفحاتها.

جهاز التكييف معطل. الجهاز مثبت على النافذة اليسرى، فوق الفراش الكبير بالضبط. يبدو كأنه ظهر جهاز تليفزيون قديم. بسببه حصلنا على تخفيض قدره ٢٥٪ على هذه الشقة المملوكة لألبرتو، المهندس الإسبانى. الجدار الأيسر مكسو بالمرايا حتى السقف، لهذا

نستطيع دائمًا أن نراقب أنفسنا ونحن نسير في طريقنا إلى الحمام أو إلى باب الشقة الذي نصل إليه بالدوران حول المائدة الكبيرة ويتجاوز ركن المطبخ.

ترقد هَنّى على بطنها مُديرةً رأسها. بيدها اليسرى تثبت شعرها على قفاها. أردافها بيضاء، وكذلك شريط رفيع تحت الكتفين. واضعًا كلتا الوسادتين وراء ظهرى رحتُ أقرأ بصوت عال من مجلة "جيو" مقالة عن اليهود في كراون هايتس.

"نمت"؟ سألتها.

تحرك هَنّى رأسها وتقول: "لا".

كلانا يحلم أحلامًا غريبة. الليلة الماضية كان بالأحرى شعوراً، أو موقفًا: المرتبة، سريرى، مدينة آسيوية ساحلية في المساء أو الليل، الأضواء تغمرها. كل شيء تحتى يموج بالحياة، سيان أين أضع رأسي: تحتها دائمًا حياة. المكان يعج بالأصوات والكلام، جزء منه موجه إلىّ. لم أتخلص من الحلم حتى عندما ذهبت إلى دورة المياه. لم أهدأ إلا في الصباح التالي، وكأن السرير تحتى قد نعس أخيراً.

"هل أفتح الشباك"؟ أسألها. رأس هَنّى يتحرك.

"هل يعنى هذا: لا"؟

"لا"، قالت وفمها على الملاءة. كل ليلة، عندما تمر عربة الكنس الآلى، ينطلق جهاز إنذار من إحدى السيارات. أستطيع تمييز تتابع

الإشارات المُنذرة، ثم الهدوء الذى يعم لثانيتين قبل أن تتتابع من البداية مرة أخرى. أيضًا يهتز سلم المطافئ فى بعض الأحيان. أما خزان المياه على السطح المقابل لنا فهو غير محكم. يصدر عنه صوت كالخطوات. فى الصباح تتساقط القطرات فوق جهاز التكييف. ربما يسقى أحد فوقنا النباتات. بسبب السلك الشبكى على النافذة – الذى يمنع دخول الذباب – لا يستطيع أحد أن يتكئ ناظرًا إلى الخارج.

"أتريدين شرب شىء"؟، سألتها.

"أكمل القراءة"، جاوبتنى.

"انتهيت. هل أعمل شايًا"؟

"لا أريد شايًا. بالأمس سكبت الشاى كله".

"ليس كله".

"إذن ليس كله"، قالت هَنّى وأدارت رأسها ناظرة إلىّ. "لماذا لم تقل شيئًا عندما حدث ذلك"؟

"الأمر ضايقنى"، قلت مقلبًا فى صفحات مجلة "جيو".

"المرء يشعر وكأنه ناقص، وكأنه مبتور".

"يا إلهى! من الممكن أن يفكر المرء فى الأمر بطريقة أخرى"!، صاحت وهى تستدير على ظهرها، ثم قعدت. "هل الأمر بهذا السوء بالنسبة إليك؟ أسبوع كامل بدون إرهاق وضغط عصبى، ثم إنك تريد أن تحيا على الخبز والماء"!

"نعم. المرء يشعر وكأن سره انكشف".

"هذه مشكلتك"، قالت هَنّى. لفت شعرها حول يدٍ، وبالأخرى راحت تتصيد التوكة من تحت السرير. النصف الأسفل من ثدييها أبيض. "أنا آسفة"، قالت، "ولكن هذه بالفعل مشكلتك. على كل حال لم يغلقوا حساب كارت الائتمان عندى! وما زال لدى بعض المدخرات، وإلى أن تنفد فإننى أريد أن نستمتع بالخروج معًا، وأن نستقل سيارة ليموزين ضخمة فخمة، وأريد مطاعم بشموع على الموائد، وجرسونًا يشرح لى قائمة الطعام، ومنظرًا خلابًا. وفوق ذلك أريد أن أطير بالهليكوبتر، وأن أذهب إلى أوبرا متروبوليتان، وأحصل عليك أنت أيضًا فوق البيعة، كما أريد مياهًا معدنية إيطالية".

نهضت هَنّى. قرفصت أمام الثلاجة، وبكوعها أبقت الباب مفتوحًا ثم أخذت تشرب. كانت تشرب فى نَفَس واحد وهى ترفع الزجاجة، إلى أعلى، إلى أعلى، حتى رأيت الملصق الأزرق. تركت الباب ينغلق ثم وضعت الزجاجة على الأرض بجانب الأخريات. "وبعدين ..". نظرات هنى تتفحصنى من فوق إلى تحت. "أريد أن أشعر بالسعادة مرة أخرى. لا تقل شيئًا، أرجوك. أعرف أنك لست ماكينة. أردت أن أقول ذلك فحسب. الكلام مسموح، أليس كذلك؟" تناولت قبعتها المجدولة من القش وتأملت نفسها فى مرآة الحائط. "ثم أن الحياة هنا ليست غالية كما يبدو. ثم أنها مانهاتن"! شدت حافة القبعة بكلتا يديها. "ما رأيك"؟ تلبس الصندل ناظرة إلىّ. "اعتراضات أخرى يا مستر يونيفرسوم"؟

"أنت أيضًا مفلسة".

"سأشترى لك بابيون. بابيون وربما بدلة سموكنج. كانت رخيصة جداً، وتفصيلة حديثة". تسحب من تحت مائدة التليفزيون مضرب البيسبول الذى يملكه ألبرتو، ثم تضعه على قدمها، وتضغط بظهر يدها اليسرى على خصرها. "الصبى كان اسمه ماذا؟ دوناتلو"؟

قلت لها: "تعالى هنا". حيثما رقدت كان بطنها مطبوعًا على الملاءة الرطبة.

"دوناتلو"، قالت وغيرت القدم التى ترتكز عليها. "لا ينقص إلا الجوارب".

"سنذهب إلى كل مكان، إلى أى مكان تريدين"، قلت لها، "إذا أنت ..".

"شعره طويل، وله كرش ظريف ..". تنفخ هَنّى بطنها إلى الأمام. "هكذا. ليس مثلك، ولكن هكذا".

عندما نهضت هزت رأسها. "لازم أروح"، قالت وأعطتنى مضرب البيسبول. "لإنجاز شىء. للحمام".

تسرع فى صندلها إلى التواليت. تترك القبعة. مقابلنا، فى الشباك العالى، كان هناك كرسى أبيض من البلاستيك بظهر كالمروحة، وبورقة موز على القاعدة. أدفع بالمضرب ثانية تحت التليفزيون، وأستلقى بعرض السرير. أسمع صوت بولها وهو يتقابل مع الماء فى التواليت. الباب موارب.

نادراً ما نخرج من البيت قبل الواحدة أو الثانية. إذا لم نتحمل، ندخل محلاً تجارياً. الجو لا يتلطف فى المساء. تظل الحرارة كامنة فى

الأسفلت، في الأحجار، أما محطات مترو الأنفاق فهي الجحيم، وفي كل مكان تفوح العفونة. أسمع السيفون، وبعد برهة الدش.

تعرفت إلى هَنّى عندما كنا نبحث عن أحد يكتب نصائح حول كيفية التعامل مع الحيوانات الأليفة، وعمومًا عن أحد لديه معلومات عن كل ما هو مدهش في عالم الحيوان. كل أسبوع تكتب هَنّى لنا عمودين. مرة عن القطط، مرة عن الديدان، مرة عن الطيور المهاجرة أو عن العناكب. قلت لها إننى أريد السفر إلى نيويورك، فقالت: "وأنا أيضًا".

عندما دق الباب، أغلَقَت الدش. لبرهة يسود الصمت في المكان. بعد الدقة الثانية ارتديت بنطلون الرياضة، وسرت إلى الأمام ناظرًا في الحمام. هَنّى تقف تحت الدش مغلقة عينيها. تهمس: "أقفل الباب". أظل ماسكًا بأكرة باب الحمام وكأننى أريد أن أحبسها، وأنتظر.

"Sir? Excuse me, Sir?" صوت رجل، واضح ورفيع.

I'm Robert Vanderbilt from Palmer Real Estate, Sir, would" you please open the door, please?" العين السحرية في الباب. "مستر"، ينادي.

"Mister ... Bayer. I have to take some photos of Mr. Sullivans apartment, Sir. I'll pass my card under the door, okay, Sir?"

كارت روبرت ج. فاندربلت يظهر أمام أصابع قدمي.

"Sir, would you please open the door, please?"

أفشل في نزع السلسلة المثبتة على الباب لاعوجاج المجرى المعدني. لابد أن أحركها ببطء وعلى نفس المستوى. عند أقل غلطة تبقى

محشورة، ولابد من إعادتها حيث كانت. أحاول مرة ثانية، وفى النهاية مرة ثالثة. كنت أعتقد أننى الوحيد الذى يسمع صوت احتكاك السلسلة بالمجرى. عندئذٍ أدع روبرت ج. فاندربلت يدخل.

"اللعنة، ماذا كنتم تفعلون"؟ هنّى ترمش بعينيها. تنتشل التى - شيرت من الحقيبة. تمسك بالإبهام والسبابة المنشفة الملفوفة حول خصرها. منشفة أصغر لفتها كالطربوش فوق رأسها. "ماذا حدث"؟

" روبرت ج. فاندربلت"، أقول. "وسيط لبيع غرفة ألبرتو".

"ماذا يفعل"؟ تجلس على السرير، عيونها محمرة.

"يحاول بيع شقة ألبرتو".

"وأنت صدقت"؟ تسقط المنشفة من على حجرها، فتتناولها وتغطى فخذيها.

"أزاح لى كارته من تحت عقب الباب". أشعر بالعرق ينساب على ظهرى وتحت ذراعى، بل وعند القدمين.

"لماذا لم تتصل تليفونيًّا وتسأل عما إذا كان ذلك مسموحًا له، وإذا كان مسموحًا لك؟ هل تعرف ماذا يريد أن يفعل ألبرتو بشقته، وأى رجل هذا"!

"ماذا حدث"؟ أسألها وأجلس. "كان هذا رجلاً لطيفًا يهتم بأمر الشقة. لا شىء غير هذا".

"نحن هنا فى نيويورك، وأنت تفتح الباب لرجل غريب ، وتتركنى أنا واقفة فى الداخل وكأننى غير موجودة على الإطلاق. تتبادلان الحديث و ..". تغلق عينيها وتضغط بأناملها على الجفون.

"هنّى".

"... أو على الأقل تسأل إذا كنت أحتاج شيئًا". تسحب المنشفة من على رأسها وتلقى بها خلفها. الكيلوت على طرف السرير. "على الأقل كان يمكنك أن تدق الباب وتسألنى إذا كان كل شىء على ما يرام".

"وأى شىء لن يكون على ما يرام"؟

"ماذا! كل شىء مُلقى هنا، الفلوس، الملابس، جواربك ... كان يمكنك أن تنتظر على الأقل حتى أنتهى من ارتداء ملابسى".

"مستر فاندربلت انصرف، والموضوع انتهى".

"هو أنت كذلك! كل شىء عندك انتهى ومر. وماذا لو رجع؟ أو لو كان يتجسس؟ لو كان قد جاء إلى هنا فقط من أجل ذلك"؟

"إذن فلم يجد شيئًا".

"يا إلهى"! وتنتظر لبرهة إلى السقف، ثم تحدق فىّ. "على الأقل الآن يمكنك الاتصال".

"ألبرتو هو الذى أرسله، وإلا فكيف له أن يعرف اسمى؟ لقد سمعتِه وهو ينادينى"!

"كيف تريد أن تعرف كل شىء بهذه الدقة - "ألبرتو هو الذى أرسله"؟ ويعدين؟ لماذا لم يصور الحمام؟ إذا كانت شقة تهمنى، فأنا أريد أن أعرف كيف يبدو الحمام"! تكور الوسادتين وتضعهما خلف ظهرها، ثم تشد ركبتيها إلى جذعها. "أنت لا تستطيع حتى وصفه! كل طفل يسأل نفسه هذا السؤال، إلا السيد المدير".

أحضر لها من المائدة كارت الرجل وكاميرا البولارويد. تجفف شعرها بالمنشفة.

"انظرى إليه"، قلت لها وطلبت رقم ألبرتو.

"وما هذا"؟، تسألنى.

"نسيها. أو لم يعرف كيف يستعملها. المرايا عاكسته أثناء التصوير".

"ماذا؟ تركت رجلاً صينياً يلتقط الصور فى كل ركن هنا؟ لا، لا أصدق"؟

"لقد قال وهو واقف بالخارج إنه يريد أن يفعل ذلك، ولابد أن يفعل ذلك! إذا كان يريد بيع شىء فلابد أن يكون لديه ما يفرح الناس عليه"! هَنّى تمسك الآن البولارويد بكلتا يديها. تليفون ألبرتو مشغول. أذهب إلى الثلاجة. أضع زجاجة الماء "بليجرينو" على المائدة، ثم أحضر كأسين وزجاجة عصير تفاح. "فيما عدا أنه صينى - هذا إذا كان صينيًا - لم يلفت نظرك أى شىء آخر"؟

"نسيت أن تشفط كرشك".

"إنه يرتدى بدلة غامقة وقميصًا أبيض وكرافتة زرقاء"، أقول وأعطيها كأساً ملآنة.

"طبعاً. لقد تبادلتما الحديث وتفاهمتما جيداً. شكراً. خسارة أنه انصرف، أليس كذلك"؟

أُعيد الزجاجتين إلى الثلاجة. أثناء السير آخذ رشفة، ثم أجلس أمام التليفون.

"قضى سنتين فى تكساس. الماء سيصبح شحيحاً هناك".

"فى تكساس؟ ماذا يفعل صينى فى تكساس"؟

"ولم لا"؟ أطلب الرقم من جديد. "هناك يحرقون حتى الصبار كي تحصل الحيوانات على شيء يؤكل. الناس تستلف تماثيل القديسين من الكنيسة، ثم يحملونها في الحقول كي يروا بأنفسهم مدى سوء الوضع. رءوس الحيوانات أصبحت تبدو كالجماجم. الدمار والخراب حل بكل المزارعين".

"اسمع! هل تعتقد أن صينياً سيصبح مزارعاً فى تكساس"؟

"لم أدع ذلك. أنا لم أقل سوى إنه ترك تكساس، وإنه عاش هناك سنتين، وإن الجفاف دمر المزارعين. عندما تجف الأرض فإن سوق العقارات يصبح راكداً. على الأقل هذا الجفاف أمر واضح".

"أى أمر"؟

"أمر واضح"، أكرر. "أمر لم يتسبب فيه أحد. لا يستطيع أحد أن يتهمك بأنك السبب. إما أن يصيبك الأمر أو لا يصيبك. لا يستطيع أحد أن يتهمك بالجهل أو الفشل. كل السخط ينصب – إذا انصب – على الرب الحبيب، أو على العذراء مريم ، أو أى قديس لديهم، ولكن عموماً فإن الأمر يكون واضحاً".

"هل قال لك ذلك"؟

"كان يصور ويحكي طوال الوقت. كان التصوير صعباً بسبب المرايا. المرء يأخذ انطباعاً خاطئاً تماماً عن الغرفة والمقاييس. لم أكن أعرف أين أقف. سيان فى أى مكان، كنتُ أظهر فى الصورة".

هَنّى وأنا نشرب فى اللحظة نفسها الكأس حتى آخرها. فخذاى يلتصقان بالكرسى، وساعداى بالمشمع.

"هل كان يطردك من مكان إلى آخر"؟

"آخ، لم يفعل أى شىء. كان ينتظر فقط. عندئذٍ كنت أفهم أننى أقف فى المكان الخاطئ. إنهم أكثر منا تهذبًا. أعتقد أنه هرب بسبب الديون".

"بسبب الديون"؟

"هكذا شعرت من كلامه". أحشر السماعة بين أذنى وكتفى وأطلب الرقم للمرة الثالثة. وضعت هَنّى البولارويد على ركبة، وعلى الأخرى الكارت.

"ماذا يعنى حرف الجيم قبل فاندربلت؟ جينج، جانج، جونج؟ لا، ليس جونج. ربما جن"؟

"وربما جيرهارد" أقول لها. نتبادل النظر. "ربما يبيع ألبرتو فقط لأنه مديون. لن يبيعوا بأقل من ٢٢٠ ألف دولار، وبالتأكيد أكثر. مبلغ سيصلح أمورهم".

"ألم تقل إن الصينى مديون"؟

"فى البداية اعتَقَدَ أنه يمكنه التعايش مع الديون، على الأقل هذا ما قاله. عندما يصله إنذار بالدفع، كان، ببساطة، يمزقه، ولكن ذات صباح جميل استيقظ وهو يفكر فى كل الإنذارات بالدفع. تكرر الأمر فى

الصباح التالى، والذى يليه. لم يعد يستطيع أن يقاوم التفكير فى الإنذارات. أول فكرة كانت تخطر على باله هى الديون. خاصة إذا كان بمفرده. لم يستطع أن يجمع المبلغ، هذا هو الأمر ببساطة. عندئذٍ هرب".

"عمّن تتكلم؟ عن الصينى"؟

"كل مراقب إدارى يكلف دافع الضرائب ٦٠ ألف مارك فى السنة، وهل تعرفين كم يجمع رجل مثله؟ واحد وأربعة من عشرة مليون مارك. تخيلى الرقم. واحد وأربعة من عشرة مليون"!

هَنّى تحرك الهواء بالكاميرا البولارويد. أنتظر حتى يفرغ الصوت النسائى من الكلام فى جهاز الرد الآلى عند ألبرتو ثم أضع السماعة.

"إيه! قل شيئًا"! تصيح هَنّى. "إنه لا يرفع السماعة أبدًا. أرسل النظر عبر النافذة إلى الموز الأخضر، ثم أطلب الرقم من جديد.

"الصينى قال إنه هرب من تكساس بسبب الجفاف، وإنه الآن يعيش فى نيويورك ويريد بيع شقة ألبرتو؟ هل هذا صحيح"؟، تسألنى هَنّى. "وبالمبلغ يصلح الاثنان أمورهما؟ أعتقد أنك فهمت شيئًا ما خطأ، أو أن الأمور اختلطت عليك، أو أن هذا الرجل من العصابات، ويحفظ حكاية سخيفة جداً". تلقى نظرة قصيرة على الصورة، ثم تواصل التهوية. "أم أنه يعنى بالماء الفلوس".

"الفلوس، كيف"؟

"نعم، ربما. ربما يستخدمون هنا تعبيراً مشابهاً لما نقوله بالألمانية: الواحد غرقان فى المياه، أو أنهم قفلوا المحبس عليه، على المستر جينج جانج جونج"؟

"ممكن نتصل به". أنتظر سماع الصفارة بعد الصوت النسائى، ثم أقول إن روبرت فاندربلت كان هنا وصور الشقة كلها، وإننا نأمل ألا نكون قد تصرفنا خطأ.

"هل أنت راضية الآن"؟ أمد يدى نحو الكأس، لكنها فارغة.

"هذا أقل ما ينبغى. فعلاً".

" فاندربلت رجل لطيف جداً ووسيم"، أقول لها فى طريقى إلى الثلاجة. "لم يفعل لنا شيئاً، ولا أقل شىء".

"إذا كان هذا رأيك"، تجاوبنى هَنّى.

"لو كنت امرأة كنت سأقع فى حبه".

"لكنك لم تكن ستعجبه"، قالت هَنّى دون أن ترفع نظرها من على البولارويد فوق ركبتها. "جوفانى، ربما، هذا محتمل. ج مثل جوفانى".

من زاوية عينى ألمح صورتى فى المرآة. يمكننى أن أسأل هَنّى لماذا قالت لى بأن أغلق باب الحمام لأنها لم تكن تريد أن يدخل أحد، ويمكنها الرد بأنه كان علىّ ألا أفتح، ولكن ربما يكون الشجار حول هذه التفاهات نوعاً من الترف.

نفضت هَنّى الوسائد، ثم تمددت. البولارويد الآن بجانبها. تشد التى- شيرت الذى يصل إلى فخذيها. واضعة يدها فوق رأسها تمسح

بنصف كم اليد الأخرى عرقها فوق الجبين. فى تلك الأثناء ينحسر التى- شيرت مرة أخرى.

تنادى: "كريستيان"؟

"نعم".

"ولا شىء. كنت أريد أن أعرف فقط إذا كنت هنا".

"حالاً"، أقول واضعًا الكأس فى الحوض، ثم أذهب إلى الحمام. قبعتها على غطاء التواليت. لا أعرف أين أضعها، فأرتديها. أضغط على السيفون حتى لا تسمع الأصوات المنبعثة عند الارتطام بالماء.

بكلتا يدى أفتح صنبور الدش واضعًا رأسى مائلاً حتى لا تبتل القبعة. ما زال باستطاعة المرء هنا أن يفتح صنبور الماء البارد أو الدافئ، حسب احتياجه، وأشرب منه.

الفصل الثامن عشر

الصباح الذى أعقب ذلك المساء

فرانك هوليتشك يحكى عن صباح فى فبراير. باربارا والتطورات الأخيرة في كابوسها. محاولة فرانك للتسرية عنها. انريكو فريدريش وليديا والصور.

استيقظت بسبب تخاريف باربارا. ترقد على ظهرها وساعدها على جبهتها. الفجر ينشر ضياءه. باربارا تعانى من كابوسها مرة أخرى. ربما أكون رمشت بجفونى دون أن ألاحظ، أو ربما تقلبت فى السرير، لهذا اعتقدت أننى مستيقظ، أو أنها بدأت ببساطة تتحدث. إنها تفعل ذلك يومًا بعد هذا الحلم. تتصل بى إذا كنت غير موجود، سيان أين. تسير الأمور كالتالى تقريبًا: هى تجلس فى السيارة أمام عجلة القيادة، ثم تتخطى امرأة تقود دراجة. عندما تعطى باربارا إشارة إلى اليمين وتنظر فى المرآة الخلفية لا ترى للمرأة أثرًا. لا تفكر باربارا فى الأمر كثيرًا إلى أن تصل إلى الإشارة التالية فتجد رجلاً صارخًا يمد ناحيتها

يداً ملطخة بالدماء ويحاول أن يشدها من السيارة. يداه تجنفان في الهواء ثم تهشمان الزجاج. باربارا ترى نفسها ملقاة بجانب ماسورة العادم. تحاول رفع رأسها، ليس فضولاً أو خوفًا، ولكن حتى يتمكن الرجل من ضربها على نحو أفضل. تريد أن تبدأ اليوم من أوله، تريد أن يكون كل شيء غير حقيقي. "من فضلك، من فضلك"، تتضرع باربارا في الحلم، "ليكن حلمًا، حلمًا فقط". مع أنها تعلم أنه ليس حلمًا، وأن اليوم لا يمكن بالطبع أن يبدأ من جديد. كل شيء يبقى على ما هو عليه، والرجل يصرخ: "جريمة قتل"!، و "قاتلة"! تُلتقط الصور لباربارا، من المارة، من الشرطة، من السيارات العابرة. ترى صورة البحث عنها على ملصق كبير معلق على المصعد. ليس لها سوى الانتظار حتى القبض عليها.

كم من مرة سمعت ذلك – من المعجزات أنني لا أحلم أنا نفسي بهذا الحلم. عندما أرى صليبًا أمام الشجر على حافة الشارع، أو أكاليل مستندة على عمود النور، أفكر على الفور في حلم باربارا.

تثني ذراعها الآخر أيضًا وتضعه فوق عينيها. أقترب منها وأسحب بشفتي شعر إبطها الأيمن. على طرف اللسان أشعر بالطعم اللاذع لمزيل رائحة العرق. لقد نمنا متأخرين، وهو ما لم نعد نقدر على تحمل تبعاته، كلانا، على الأقل خلال أيام الأسبوع.

"وأنت تدعي أن هذا ليس مشكلة، فهو أمر يحدث كثيراً"، تقول باربارا. لا أرى إلا طرف أنفها وفمها الذي يبقى مفتوحًا قليلاً. تتحنح بصوت خافت.

"إذا أسرعنا – هكذا قلت – لن يلاحظ أحد شيئًا، كل ما علينا هو أن نسرع. على أن أجلس خلفك على الدراجة. هكذا حاولت أن تقنعني، دون أن تهتم بـ .."، تعض على شفتها السفلى، "دون أن تهتم بالجثة".

"وماذا عن الرجل الذي يضربك؟ أين هو"؟ أرى عرق عنقها ينبض.

"لا أعرف"، تقول باربارا. "إنه هناك. في مكان ما. إنه يعرف كل شيء". نبرات صوتها مستسلمة تماماً.

أمر بلساني فوق أسناني حتى أتخلص من طعم مزيل رائحة العرق. "هل تأتين في الحلم معي"؟ أقبل نهدها الأيمن. لم ترد باربارا، فأقول: "ليس لطيفًا أن يعتلي الرجل امرأته أثناء الكابوس. ليس هذا عتابًا" ثم أضيف: "لأنها في هذا الوضع تفتقد إلى روح الدعابة. ربما أرمز أيضًا إلى المساعدة والعون. أليس هذا ممكنًا"؟ تصمت، ولا يبدو عليها أنها تلاحظ أنني أداعب ضلوع صدرها، ثم تهبط يدي إلى الخصر حتى تصل إلى أعلى الفخذ.

تقول: "إذا كنت ترقد في المستشفى، وربما في الجبس من الرأس حتى القدم، وتبحلق في السقف عالمًا أنك قتلت إنسانًا ..".

"لكنك لم تعودي تقودين سيارة"، أرد عليها. "منذ أكثر من عامين. لا شيء ولا أحد استطاع أن يقنع باربارا أن تجلس ثانية خلف عجلة القيادة منذ دهست غُريرًا. هذا الامتناع يعقد أمور حياتنا. حتى تصل إلى مدينة دورن تحتاج إلى ثلاثة أرباع ساعة، هذا إن لم يفتها الأوتوبيس. يغضبني أنها تغمي عينيها. لا يمكن أن يعني هذا شيئًا طيبًا أبدًا. إنها تغوص وتتشرب هذا الحلم.

"أنت دهست غُريراً"، أقول لها. "غريراً! بل ربما لمسته فقط، وربما يكون قد تعافى وأصبح له الآن أحفاد"!

"إذا كان هذا رأيك"، تقول باربارا. "إذا كان هذا رأيك، فربما يكون صحيحاً".

أداعب بطن ذراعها من أعلى حتى الكوع الذى أمر عليه بحركات دائرية، ثم أواصل حتى المعصم، من هناك تنتقل يدى إلى ذراعها الآخر، وبحركة سريعة دائرية تستريح يدى تحت إبطها الأيسر، ثم تمسد نهدها. تهبط يدى إلى ركبتها بجانبى.

تقول باربارا: "أنت ترقد هناك، تتحلق فى السقف، الوقت لا يمر، أو يمر ببطء شديد لا يستحق الذكر، مع أن الوقت هو الشىء الوحيد الذى يخطر على بالك، الشىء الوحيد الذى يفرق بين الحياة والموت".

"كنت تحلمين، والآن استيقظت"، أقول لها وأضع رأسى على نهدها الأيمن، وأمر بإصبعى على الآخر فى حركة دائرية.

"وماذا إذا لم أستيقظ؟ إذا اتضح أنه ليس حلماً"؟ أشعر ببرودة فعل جسمها عندما تتحدث. تسألنى: "ماذا ستفعل معى عندئذ"؟

"عندئذ أتزوجك مرة أخرى. أم ماذا فى رأيك ينبغى علىّ أن أفعل"؟

أرتكز على باربارا، بطنى على بطنها، وأمد يدى إلى المنبه. يتزحلق الغطاء وينحسر عنا. أعود بالمنبه فى يدى، فأعدل من وضع الغطاء وأستلقى على ظهرى. يصطدم صدغى بكوعها. أود أن أطلب منها أن

تسحب ذراعها. أريد أن أدفعه بعيداً. يغيظني أن باربارا لا تبالي بي، إلا أنني لا أقول شيئاً وأنسحب على طرف السرير بعيداً عنها.

إذا نهضنا الآن سيكون صباحاً عادياً، نأخذ دشاً، ونتناول الفطور. باب غرفة نومنا مغلق، وإلا كنت سأسمع أورلاندو وهو يعلق كيس الخبز على مقبض باب الشقة. أضبط المنبه على السابعة وأبقيه في يدي. على الأقل عشرون دقيقة. إذا أسرعنا عندئذ، يمكننا أن ننجز كل شيء في الوقت المناسب.

تقول: "قبل أن تلاحظ أنك لا تستيقظ، تفكر أنك ربما كنت شخصاً آخر تماماً، أن ما يحدث مجرد خطأ، إنني ألعب الآن هذا الدور. إلا أنك تلاحظ عندئذ أنك لا تستطيع الاستيقاظ، أنه لا يمكنك الخروج من هذا البدن".

"بابس! ما هذا الذي تقولينه"؟

لم يكن الأمر بهذا السوء أبداً. الشقوق في السقف تسير متوازية مثل حواف ورق الحائط، إلا أنها متعرجة. الورق مطلي باللون الأبيض، لكن سطحه غير مستوٍ، لذلك نشأت أشكال على الورق: مرة يرى المرء خطاً ونقطة ووجهاً، مرةً أخرى أعمدة منحوتة، أو لولباً من الصلب، ومنه تنمو زهرة كبيرة متفتحة تلتف على نفسها، أوراقها طويلة منكسرة وساقها قصيرة، شبيهة بالزهور في ورق الحائط. الزهرة تلتف خارجة، ومن الممكن أن يكون ذلك تمثالاً، بشعر مجعد كثيف وفم فزع يهم بالصراخ.

"سأنهض الآن"، أقول لها. "علينا ببساطة أن ننام مبكرًا". بالأمس زرنا أحد أصدقاء باربارا القدامى، إنريكو فريدريش. تريد باربارا أن أجد وظيفة لإنريكو ككاتب خطب، حتى يخرج من أزمته، ولكن مستحيل. سكير وثرثار، متشاعر يكتب حتى على الجدران وورق الحائط كي لا ينسى أفكاره العظيمة.

أسألها: "من أين تعرفين زوجته، ليديا هذه"؟

"ليست زوجته"، ترد باربارا بعد برهة.

"لكنها تسكن معه".

"لا. رأينا بعضنا مرة بالصدفة في المتحف البيولوجي".

"ولماذا كنتما تتشاجران"؟

"من قال إننا تشاجرنا"؟

"المرء كان يشعر بذلك. عندما ذهبت إلى الحمام دبت بينكما خناقة".

"طبعًا أنت تعرف أحسن مني، إذا كنت في الحمام ..".

"لا أفهم"، أرد عليها. "كيف تتحمل هذه المرأة إنريكو. الأمر يشبه المعجزة إذا نظرنا إلى سلوكه وشكله".

"هناك أسوأ"، تقول باربارا.

دائمًا تدافع عن إنريكو. المجتمع هو المسئول عن كل شيء في رأيها. زرناه معًا مرتين، وفي المرتين وجدت نفسي مرغمًا على التفرج

على هذه الصور، إنريكو وباربارا على جسر مطل على بحر البلطيق. أكره هذه الأوضاع المتكلفة. لهذا ليست لى صور مع باربارا إلا نادراً، باستثناء صور الزفاف والصور الرسمية. لا يمكن تجنب ذلك.

لا أريد أن أعرف أى علاقة كانت تربطهما فى الماضى، لكننى لا أستطيع من أجل خاطرها تعيين سكير كاتباً للخطب. لن يمر عندئذٍ سوى بخبرة سيئة جديدة، وأشعر أنا برقبتى مثل السمسمة. "أتعرفين ما هى مشكلة إنريكو"؟ أسألها. "أنه لا يعانى من أى مشكلة يمكن أن يكتب عنها قصائد أو روايات، ليست لديه مشاكل حقيقية. يحسدوننا فى العالم كله، يحسدوننا على مشاكلنا. كلهم يريدون استبدال مشاكلهم بمشاكلنا. هذا ما يعكر صفو إنريكو. يريد أن يعانى".

فيما مضى، عندما نرجع إلى البيت بعد زيارة قمنا بها، كنا نتعانق بمجرد أن نكون وحدنا. فيما مضى، كنا نقول لأنفسنا أحياناً إن حالنا طيب وأننا سعداء، وإننا لا نستطيع تقدير سعادتنا، وإننا أصحاء، وإن حظنا كان كبيراً. عندما كنت أستيقظ ليلاً ولا أسمع صوتاً ينم عن باربارا، كنت أتحسس بيدى نحوها أو كنت أشعل الضوء، بل شعرت ذات مرة بالغيرة من إنريكو. بالأمس كانت باربارا هى الغيورة. ربما لذلك تشعر اليوم بالاحتياج إلى تشجيعى ومواساتى.

أريد أن أحكى شيئاً يجعلها تفكر فى أمر آخر، ولكن لا يخطر على بالى شىء يتناسب مع موقفنا. أرسل النظر إلى السقف حيث أرى التمثال يتحول ثانيةً إلى لولب حديدى. فى الطلاء أحاول التعرف على خريطة العالم، هناك فى المواضع الخشنة. الهند تقع أمام فلوريدا،

لا يتناسب ذلك مع المقـاييس، لكن الرسم واضح، بالأسـفل البـلاد الإسكندنافية، وفى بحر البلطيق تقع أستراليا.

"هل تتذكرين كاندلاريا"؟ أسألها. "وصدى صفارة الباخرة الذى كان يرجع من المدرجات الجبلية ثم يخفت شيئًا فشيئًا؟ هل تتذكرين كيف أننى اعتقدت ذات صباح أنها تمطر، وكل ما هناك هو أن الجبل حجب الشمس، وفى المساء لم يكن المرء يعرف أين ينتهى البحر وأين تبدأ السماء، اللون الرمادى الفضى يغطى كل شىء، لا فرق".

"لم يكن اسمه كاندلاريا"، تقول باربارا.

"ماذا إذن"؟ أسألها. لم ترد، فقلت: "أنا متأكد أن المكان الذى سكنا فيه اسمه كاندلاريا".

من أجل أتفه الأشياء نتشاجر. فى الأسبوع الماضى حول درج جواربى. باربارا تعتقد أننى رميت فردًا من جواربها الجديدة التى اشترتها للاسترخاء. أقول لها إننى لم أرم جوارب مفردة، بل أزواجًا فقط، وتحديداً تلك التى لم أعد ألبسها منذ سنوات لقبحها، أو لأنها تهرأت أو بهتت وحال لونها. هذا هو المضحك فى جوارب الاسترخاء، تقاطعنى باربارا، إنها تبدو قديمة ورثة رغم أنها جديدة. الزوج من جوارب الاسترخاء ثمنه ١٥ ماركًا. أسألها: ما هو جورب الاسترخاء؟ ترد قائلة كيف إذن أدّعى أننى لم أرمها إن كنت لا أعرف حتى شكلها، أكرر إننى لم أرمِ إلا أزواجًا من الجوارب، وإننى كنت سأعرف جواربها على الأقل من مقاس حذائها. على رف الشباك فى الحمام أجد ورقة

مكتوبًا عليها: "جوارب استرخاء - بدون (ثم بخط أصغر) خيوط مطاطية، ملمس مريح، أجريت عليها اختبارات لتحديد المواد الضارة وفقًا للمعايير البيئية Tex Standard 100" . فى اليوم التالى كنت أريد أن أقول لها إنه - إذا لم تستطع أن تجد الجوارب - لا يتبقى سوى إمكانية واحدة، ألا وهى أن أكون أنا الذى رميتها، مع أننى لا أستطيع تفسير ذلك، لأن معنى ذلك أن تكون قد وضعت جواربها مع جواربى؛ إنها فى نهاية الأمر هى التى تضع الغسيل دائمًا فى الدولاب. ترد باربارا إنها وجدت الجوارب. عندما سألتها لماذا لم تخبرنى بذلك من قبل، نظرت إلىّ غير مصدقة، وكأنها لا تستطيع أن تفهم كيف أوجه لها مثل هذا السؤال، مع أن تعبيرات وجهها يمكن أن تعنى: "لقد قلت من قبل: أنت لا تصغى إلىّ". هذا وحده هو السبب فى نصف مشاجراتنا، أن تقول إننى لم أصغِ إليها، وأنا أقسم أننا لم نتحدث حول هذا الأمر. لست أطرش!

ينطلق رنين المنبه. أغلقه. الصوت الوحيد الآن هو صوت طائرة هليكوبتر. أخيراً أقول لها: "بابس، لابد أن ننهض".

"فرانك"، تقول. كوعها الأيمن يشير ناحيتى. "إذا اكتشف المرء ذات مرة أن ذلك ليس حلمًا، إذا لم يستطع المرء أن يستيقظ، ووجد نفسه قد بات مُسنًا خلال ساعات قليلة، وإذا شعر أنه عاش بما فيه الكفاية، وانتظر بما فيه الكفاية أيضًا ولم يعد يريد الانتظار، عندما يمشى المرء إلى الشباك وينظر إلى الخارج فيشعر باللامبالاة، سيان إن رأى شيئًا أو لم يرَ، إن كانت الدنيا نهاراً أو ليلاً، إذا أدرك المرء أنه لم يعد هناك فرق واحد، فرق واحد لم يعد، عندئذٍ يكون المرء قد عاش المعجزة الوحيدة التى يمكن أن يأمل حدوثها. عندئذٍ يمكنه القفز".

"الساعة السابعة"، أقول لها. "لابد أن ننهض، بابس، هل تسمعين"؟ أقعد وأزحف حتى نهاية السرير، ثم ألبس شبشبي وأسير إلى الشباك. تحولت مياه القناة إلى جليد. قوارير بلاستيكية زرقاء وصفراء وخضراء فاتحة مرشوقة في الجليد، وأيضًا الغصون السفلى من شجرة صفصاف. الشارع على الضفة الأخرى مغلق أمام المرور؛ لهذا لا أرى سيارات. قالت لنا السمسارة إن الإنسان لا يؤجر شقة فحسب، بل حياة أخرى: الجيران، المرور، المنظر.

أضغط جبهتي على الزجاج كي أرى الشارع أمام البيت. الشارع خالٍ. ليس سوى زوج من طيور العقعق يقفز أمامي على شجرة الكستناء من فرع إلى آخر. أحاول تركيز فكري فيما سوف أفعله الأيام القادمة. يوم السبت الحفلة المسرحية، يوم الأحد يزورنا والد باربارا مع صديقته الجديدة ويشربان معنا قهوة العصر.

"إما أن تبلّغي إجازة مرضية، أو تنهضي الآن"، أقول لها. سأسخن لك ماء، هه"؟ باربارا لا ترد. ربما لم تسمعني على الإطلاق.

"هل ستبقى معي"؟ تسألني.

"لابد أن أسافر إلى مدينة إيرفورت".

"ليس هذا ما أقصده"، ترد علي. "هل ستبقى معي في كل الأحوال"؟

"بابس! وماذا سأفعل غير ذلك"؟

"ومن سينتخبك وزوجتك بهذا الشكل"؟

"يا إلهى. ماذا حدث لك؟ أنت مستيقظة، مستيقظة"!

"لا تصرخ"، تقول باربارا. تتمطع. الذراع الأيسر يصل حتى حافة السرير، الأصابع المتدلية تلامس السجاد الموكيت. أخيراً أستطيع النظر فى عينيها. ترفع باربارا رأسها وتنظر إلى، ثم تنكمش على نفسها من جديد. لا أدرى ماذا أقول لها حتى تقوم وتدخل الحمام، بل لا أعرف أنا نفسى ماذا سأفعل الآن. العقعق يطير بعيداً، واحداً تلو الآخر. لبرهة يتأرجح الغصن الذى كانا جالسين عليه، ثم يبقى كل شىء ساكناً، كما فى صورة فوتوغرافية.

الفصل التاسع عشر

معجزة

إنريكو فريدريش يتلقى زجاجة مارتيني هدية. يحكي لباتريك عن ظهور ليديا فجأة، واختفائها فجأة. أثناء ذلك ينافس نفسه في الشرب حتى يقع سكران طينة. باتريك يصمت وفي النهاية يسأله سؤالاً شائكًا.

"لابد أن المرأتين تقابلتا من قبل"، يقول إنريكو وهو يفك الورق المغلف لزجاجة المارتيني، ثم يفرد الورق ويطبقه، ويسحب الدرج الأسفل الذي يضع فيه الأكياس البلاستيكية. "أنت صورت فرانك ألف مرة. طبعًا تعرفه". يصطدم الورق بالحافة العليا. يضغط إنريكو على الورق ويغلق الدرج. "قبل انتخابات مجلس الولاية تمشّى في السوق ووزع وردًا. أقلع عن التدخين، لكنه لا يستطيع الاستغناء عن مضغ اللبان". تمتد يد إنريكو إلى الفتاحة. يمسك بمنشفة مواعين. "كناك"، يقول فاتحًا الزجاجة. "أعشق هذا الصوت. ثلج"؟

"لا"، يقول باتريك. لامساً الثلاجة بظهر الكرسي راح يقرأ الشخبطات التي تملأ ورق الحائط كله. إنريكو ملأ الكأسين حتى منتصفهما.

"ليديا تتحدث عن نوع من الطيور لا يحتاج من ألاسكا إلى هاواي سوى خمسين ساعة. تسمح لي". إنريكو يشير إلى الثلاجة. "اعتقدت في البداية أن باربارا عضو في جمعية صداقة، ما كان يُسمي في الماضي رابطة ثقافية أو "أورانيا" أو شيئًا من هذا القبيل. كن يجمعن فئران مدببة البوز، فئران ميتة. الله أعلم ماذا كن يردن إثباته".

يتكئ باتريك إلى الوراء مرة أخرى.

"هي عادة"، يأتي صوت إنريكو من عند الحوض. يخبط قالب مكعبات الثلج على الحافة الداخلية، ثم يقلبه على أحد الأطباق. "ولكن ليس أكثر من اثنين". معظم القوالب تقع على الأطباق المتسخة.

يجمع إنريكو القوالب ويكومها على الطبق ويمنع سقوطها بيده إلى أن يضع الطبق على منتصف المائدة الخشبية. "كل هذه الأطباق والمواعين ورثتها عن جدتي".

يملأ باتريك كأسه بالمياه المعدنية، ويقول: "في صحتك".

"في صحتك"، يرد إنريكو متناولاً قوالب ثلج.

"وهذا"؟ يسأل باتريك.

"زوجان من الجوارب السوداء، فرشاة أسنان، مقص ومبرد أظفار، أربعة مناديل ورقية، تذكرة سفر مستعملة، وماركان وخمسة فنكات".

ينقر بظفره على كأس البطولة الزجاجى بينهما. "لم تنسَ أكثر من هذه الأشياء". أرسل إنريكو بصره عبر باتريك إلى المنزل المقابل حيث اشتعل الضوء فى نافذتين.

"كان فرانك يريد أن يقرع الأنخاب فى صحة رفع الكلفة بينهما والتخاطب بـ أنت لا حضرتك. ربما اعتقد أن ليديا كانت خجولة لأنه نائب يجلس فى برلمان الولاية فى إيرفورت. فى صحتك مرة أخرى يا صاحبى. اقرع الكأسين"!

يمد باتريك يده.

"كان ينظر إلى ذراعيها. كلما قصت شيئًا كان يسترق النظر إلى ذراعيها. كانت ترتدى الفستان الأسود، الواسع من ..". يصف ربع دائرة تحت الإبط. "فيما بعد عندما ذهب إلى التواليت قال: يا عينى على رِجليها! قال ذلك هامسًا". استدار إنريكو إلى الباب. "هيا يا كيتى، تعال، ماذا هناك؟ إنه يقبع الآن هناك ويتفرج. أطلقت عليه – هه! اجلس! أسميته كيتى. يشخر عندما ينام، ولكن لا تصدر عنه أصوات فى اليقظة". يداعب القط تحت الذقن. لون فرائه رمادى مختلط بحمرة. "هل تلاحظ أن النهار يطول"؟

يهز باتريك رأسه. يمر بلسانه على أسنانه خلف الشفاه المزمومة. يتأمل من جديد ورق الحائط بالشخبطات. يصب إنريكو فى كأسه من جديد ويمسك بالزجاجة عاليًا. يمد باتريك له كأسه المليئة حتى منتصفها.

"فى صحتك"، يقول إنريكو. "تخيل التالى: ليديا تقف هنا وتقلب كل شىء، ثم يتصل فرانك ويعرض على هذه الوظيفة. علىّ أن أكتب فقط ما أفكر فيه، كتابة شخصية. هذا هو المهم، قال لها على التليفون. هه، كيتى"!

يحرك إنريكو أنفه يسارًا ويمينًا. "تعلمنا تحية الإسكيمو". يتشممه القط ثم يشيح بوجهه.

"سألته كم سأكسب من هذه الوظيفة، سألته أمام ليديا ويابس كى يكون كل شىء واضحًا. أخبرنى. عندئذٍ قلت: أترون، أنا رجل بجد، أستطيع أن أكسب نقوداً كثيرة. عندها قبلتنى ليديا".

بمجرد أن تتوقف المداعبة والتمسيد يضغط القط على اليد المرتاحة على عنقه، أو يمد كفه ناحية ذراع إنريكو.

"وهكذا، كما كانت ليديا واقفة هناك، هكذا انصرفت. كانت واقفة هناك مع الحقيبة، ذلك الشىء الأخضر الذى كان على دولاب غرفة النوم لديكم. كنا نريد أن نقتسم الإيجار، مؤقتًا. هذا ما كان. عملت شايًا. اشترت أصصًا أكبر للنباتات، ورشاش النباتات والنخلة. أقول نخلة، لكن لها اسمًا آخر صحيحًا، ومن أجل ساق النبات هذه كان علىّ أن أنزل خصيصًا إلى القبو وأحضر إطارًا خشبيًّا أسندُ النبات عليه وأثبته. كانت تعرف كمية الماء التى يحتاجها كل نبات، وكم مرة. كل يومين كانت تدير الأصص. هل أشعل الضوء"؟ إنريكو يقبل القط بين الأذنين. "تخيل يا صاحبى لو كانت ليديا ردت على التليفون. ليس من الحتمى أن الأمر

كان سيتغير، ولكن لو كانت هى على الخَط. لا أعرف، ولكن ماذا كنتِ ستقول"؟ ضحك إنريكو وشرب كأسه حتى الثمالة.

"كان الأمر سيكون أفضل كثيراً. أقصد، لا علاقة للأمر بك، أنا أقصد الموقف فى حد ذاته! تخيل الموقف! عبثى تماماً. أعذرنى يا صاحبى، ولكن ليس لى ذنب فى الموضوع". بيد يفتح الزجاجة ثم يرفعها. "أم أننى فى رأيك لى ذنب فى الموضوع؟ ألا تريد"؟ يصب إنريكو لنفسه. القط يقبع الآن ساكناً على ذراعه الأيسر. "كانت الحياة جميلة هنا، انسجام كامل. باب الشقة المزعج جاء واحد وأصلحه، ثم أعقبه السباك وأخرج الهواء من الدفاية. فجأة أصبح كل شىء على ما يرام. أنا أكتب، ليديا تقرأ، وكيتى يترك كفًّا من كفوفه يتدلى على المسند مطلقًا شخيره. ومن المطبخ ينبعث شذا الكعك. لا أحتاج إلى أن أحكى لك، معجزة حقيقية، هكذا اعتقدت. هل أقول لك شيئًا آخر؟ لا تفهمنى خطأ يا صاحبى. ليديا كانت أول شخص، أول شخص على الإطلاق، يستحسن ما أفعله. انتظرت ذلك طويلاً، أن يقول لى شخص: هذا حسن، أو هذا سيئ. ليس هذا اتهاماً لك، ولكننى بحاجة إلى إنسان يقول لى: ما تكتبه جيد". يمسح إنريكو بكفه المسطح على ورق الحائط المليء بالشخبطة. "كلها أفكار"، يقول. "وعندما أتى فرانك ومعه بابس - لابد أن المرأتين تقابلتا من قبل. كلاهما كثير الأسفار، لأن فرانك - كنائب شاب - تتاح أمامه فرص عديدة، هناك برنامج خاص للنواب الشبان، يسافرون إلى بلاد عديدة، حتى أستراليا. سألته عن الهدف من وراء ذلك. يعتقد أنه يستفيد من ذلك، أن الرؤية تتغير عندما ينظر المرء

إلى الصـورة بأكملها من الجانب الآخر، آسـيـا واليابـان، وهذا الكلام. حكى أشياء لا حصر لها. يعتقد دومًا أننى من الممكن أن أستفيد من حكاياته، لكتابة قصص أو ما أشبـه، هكذا يتخيل فرانك الأمور". يمر إنريكو بظفر إبهامه على الحز الطولى المحفور فى كأسه، ثم يديره إلى الحز التالى ويكرر الحركة.

"فى أسـتراليا ابتلع أحد نواب البرلمان الشبان أثناء تناول الطعام الحشـو، حشو أحـد أسنانه. لمدة ثلاثة أيام لم يذهب إلى التواليت لأنه كـان يخشى أن ينكش فى خرائه بحثًا عن الحشـو. وذات يوم كـانوا يسافرون بالأتوبيس فى منطقة جرداء تربتها حمراء لا ينمو فوقها سوى بعض الأعـشـاب. نزل، وجـعل السـائق يواصل رحلتـه. عندمـا عـادوا لإحضاره، كان ينكش بالفعل فيما أخرجه. قصص كثيرة مثل هذه كان فرانك يحكيها. أو معلم الفصل الذى كان يكسر أجنحة الملائكة المعلقة على شجرة عيد الميلاد قبل مجيء العيد، لأنه كان ماديًا ويرى فى الملائكة استفزازًا للعقل. لابد أن المرأتين تقابلتا من قبل. إذ إنهما تشـاجرتا عندما كان فرانك فى التواليت. اعتقدا أننى لن ألاحظ شيئًا. خمنت أن الغيرة هى السبب، لكنها لم تكن. ليديا قالت إنها تفهم بابس. بالطبع لم تقل بابس، ولكن الدكتورة هولتشيك. بقيت طوال الوقت تخاطبها بـ"حضرتك". قالت ليديا إنها تفهم بابس، لكنها لا تستطيع أن تدعى أنها كانت تبحث عن غُرير، بالتأكيد لم تبحث عن غُرير. ولكن إذا دهس إنسان أحدًا وقتله، إذا لم يكن هناك على أى حال ما يمكن إنقاذه، فعلى الإنسان ألا يدمر حياته أيضًا. ليديا قالت إنها تفهم بابس. عندئذٍ بدأت

بابس فى الصراخ متهمة ليديا بالكذب". وضحك إنريكو ضحكة صبيانية. "ليديا كذابة، كذابة. وعندما دخل فراتك عاد كل شيء إلى ما كان عليه. لم تنطقا بكلمة. هل أُشعل الضوء؟ ماذا حدث؟ أنت غاضب يا صاحبى"؟

تطلع إنريكو فى وجه باتريك الذى كان يرتشف من المارتينى، ثم صب لنفسه. "أحيانًا يتتبع الرجل ببصره امرأة، لأنه رأى ساقيها أو وجهها من الجانب أو شعرها، ولكن عندما تستدير المرأة أو تتحدث ... أما ليديا، الرجل يحب أن ينظر إلى كل شيء فيها، وكلما أطال النظر كان ذلك أفضل. يا أخى، قل شيئًا! أى رجل سيفرح عندما تقف امرأة مثلها أمامه فجأة، أليس كذلك"؟

أفرغ الكأس فى جوفه بدون ثلج أو ماء.

"أستطيع تخيل حالتك الآن يا صاحبى، ولكن لا يحق لك أن تغضب منى. هه! ليديا هربت منك. وجاءت إلىّ. هذا صحيح. السؤال هو: هل كان صحيحًا أن تهجرك وتأتى إلىّ؟ أجبنى"؟ ومد إنريكو رأسه إلى الأمام قائلاً: "أليس هذا ما حدث؟ نعم أم لا"؟

يضع إنريكو الكأس الفارغة على شفتيه، ثم يرفعه ببطء إلى أن تتساقط عدة قطرات فى فمه المفتوح عن آخره.

"أنت تفكر أنى لازم أشرب. إذا لم أشرب لن أتحدث، هه؟ إذا كان هناك شيء لازم أعمله فهو الكتابة، الكتابة يا صاحبى، وإذا أردتُ كانت ليديا بقيت هنا". أحاط الكأس بكلتا يديه ومط شفتيه. "هل تريد أن أقول لك لماذا ذهبت؟ أنا أعرف، أعرف جيداً".

استدار القط على حجره. انحنى إنريكو إلى الأمام حتى لمس بأنفه بين الأذنين.

"إنها لم تشعر بها، بالمعجزة، هذا هو السبب، والمشكلة".

قفز القط من حجر إنريكو إلى الأرض وظل راقداً بجانب الباب الموارب. شبك ذراعيه على المائدة ناقلاً بصره من كوع إلى آخر. "بكل بساطة لم تشعر بها". زم شفتيه وهز رأسه ببطء. "لم أُعد الزجاجة إلى مكانها. تركتها تحت حامل المناشف. مسحت الحمام ووضعت شيئًا من منظف "مايستر بروبر" في الدلو. كنت أريد أن أسكب كل ما تبقى في الزجاجة ولم ألاحظ أن الكثير ما زال بها. نسيتها. الواحد لا يراها عندما يقف أمام الحوض، لا يرى الزجاجة، فالمناشف تحجبها".

"لا أفهم حرفًا"، قال باتريك وهو يهز بقايا المارتيني في كأسه بحركة دائرية.

"نظفنا معاً، بسبب زيارة فرانك، ليديا المطبخ، وأنا الحمام. عندما يقف الواحد عند الحوض ويغسل يديه، لا يرى الزجاجة". باتريك يقترب منه. "هذا يهمك سماعه يا صاحبي، مضبوط"؟ يصب إنريكو في كأسه.

"وقفت في الحمام أمام الحوض. كل أشيائها اختفت، فرشاة الأسنان، الكريم، السبراي. كانت ما زالت في البانيو. بعد الحمام وضعت كل شيء في الشنطة، حتى المنشفة المبلولة. لم أسألها إلا: هل لابد أن يكون ذلك الآن؟ هل لابد أن تتصرفي في منتصف الليل؟ تركَت ورقة مكتوباً عليها متى وكيف أسقي الزهور، ووضعت المفاتيح على

الورقة، وفتحت الثلاجة: الفلفل الرومى هنا، والسمك الملفوف المُخلل ... هى هى هى ... بالسكر" ضحك إنريكو بصبيانية. من بين الأسنان أصدر لعابه هسيسًا. "بالسكر ومنزوعة الجلد ... هى هى هى. تركت الماء يتساب على يدى، كى أهدئ نفسى، بينما كانت هى واقفة متكئةً على إطار الباب. أغلقت الحنفية وجففت يدى، ببطء، ببطء وعناية، كأننى جراح. ليس من اللازم أن أشرب. إذا كنت لا أريد، لا أشرب. عندما وضعتها على الحامل بجانب المنشفة الأخرى، ركزت تفكيرى، ومع ذلك لم تكن المنشفتان فى وضع سيمترى، نزلت فوق زجاجة التنظيف تماماً، فأوقعتها. ثم، حدث ما حدث يا صاحبى". تثاءب إنريكو. "الآن أنت تصغى، أذنك كبرت فجأة". بكلتا يديه يرسم أذنًا كبيرة فى الهواء. "كان الأمر غريبًا، غير معتاد إطلاقًا. ولا حتى ساحر كان يستطيع الخروج من المأزق، ليس دائمًا، لأن الأمر يتوقف على الحظ". شرب إنريكو جرعة. "انحنيت، ورفعتها، المنشفة يا صاحبى، وهكذا اعتدلت زجاجة المنظف مرة أخرى، ولكنها ظلت تتأرجح. وقفت بهدوء. ببطء رفعت المنشفة إلى أعلى، وسحبتها كما يسحب الساحر المنديل من قبعته. لم تعد زجاجة المنظف تهتز. أردت أن أقول شيئًا، شيئًا يبعث على الأمل، لأن ما حدث علامة طيبة، بالنسبة إلى ليديا وإلىّ، معجزة، ما حدث يغير معنى كل شىء". تناول إنريكو الكأس مرة أخرى ومر بظفر إبهامه على طول الحز المحفور. "هل رأيت ذلك؟ سألتها، ولكن لا إجابة، تيار هوائى فقط، الأكرة تتحرك، بهدوء، كما تغلق الأبواب دائمًا، ثم باب الشقة، تراك، وبعد ذلك سمعت وقع خطواتها على الرصيف. راحت الرغاوى تنفثئ، الرغاوى التى لم تنزل مع الماء، أنت تعلم ما أقصده. كانت تريد

دائماً رغاوى كثيرة. عليك أن تنظر جيداً، عندما تنفثئ الفقاعات. فى كل لحظة تنفجر مئات من الفقاعات، تسيك، تسيك، تسيك" ، قال إنريكو. "هذا هو آخر ما سمعته من ليديا". شرب الكأس حتى آخر نقطة ووضعها بقسوة على المائدة.

عندما رفع رأسه مرة ثانية لم يتعرف سوى على استدارة الكتف الأيسر لدى باتريك ومنبت ذراعه الذى تميزت حدوده أمام النوافذ المقابلة المضاءة والضوء الباهر من أعمدة الأنارة. رأى خيال النباتات والمسند الخشبى فى أصيص الزهور وعلى يمينه منظر الرشاشة الجانبى.

حاول أن يميز بين الأشياء على المائدة: كأس البطولة الزجاجية التى ربحتها ليديا بدت وكأنها كأس آيس كريم، وفرشاة الأسنان فيه بدت كملعقة الآيس البلاستيكية، الحز الطولى فى كأسه كأنه ترس أو عجلة روليت، وإبهامه هو السن. السطور المكتوبة على ورق الحائط التحمت وتشابكت وتحولت إلى حبال سميكة، إلى متاهة.

لاحظ إنريكو أن الدنيا أظلمت فجأة، ولكن السبب هو - هكذا فكر - أن باتريك يحول بينى وبين الشباك، إنه يكبر أمامى ويتضخم. هذا الاستنتاج برهن له على أن عقله لا يزال يعمل بدقة، وأنه ما زال بكل خفة يستطيع إيجاد علاقة بين الأشياء، لا يزال يستطيع أن يكتب عن كل شىء، عليه فقط أن يريد. بجانب كرسيه رأى القط الذى لم ين يلعق أحد كفوفه، ثم يمسح بكفه على رأسه. إنه يريد وصف هذا أيضاً، كيف ينظف قطٌ نفسه، ويريد أن يصف شخصاً يقف عند متبع الضوء فيُقال

له: تزحزح قليلاً، أنت تحجب الشمس. راح إنريكو يضحك بصبيانية دون أن يصدر عنه صوت. تحسس جيوبه باحثًا عن قلم. لا يحتاج إلا قلمًا وورقًا. كان يريد أن يكتب عن كل شيء، عن العالم كله. تزحزح جانبًا، هذا ما سيكتبه، لا يريد أكثر من هذا. إذا كنت أستطيع الضحك هكذا، قال إنريكو لنفسه، فيمكنني أن أكتب: لا تحجب عني الشمس. لو كان لدى قلم وورق لكتبت الآن. سمع إنريكو اسمه يتردد، وسمع اسم ليديا. اختفت عجلة الروليت من تحت ظفر إبهامه. لو كان ثمة مكان على ورق الحائط ... لم يعرف أى سؤال استدعى الكلمات التى راح شخص يصرخ بها فى أذنه، وهل هو عطر ماء الحلاقة أم أنه النَفَس الذى كان يلامس وجهه. بالطبع نمتُ مع ليديا. كل شخص يجيء عليه الوقت ويغلبه النوم فينام، حتى ليديا، وأنا أيضًا، من غير نوم يموت الإنسان، قلت لنفسى، ولكن لابد أن أكتب، ما يهمنى فى المقام الأول أن أكتب، وحتى عندما شعر إنريكو بهذا الألم فى الرقبة وعندما اصطدمت جبهته بالمائدة، حتى عندئذٍ لم يستطع أن يتوقف عن وصف العالم. إنه ببساطة لا يستطيع أن يتوقف عن الكتابة.

الفصل العشرون

أطفال

إدجار كرونر يحكى عن رحلة مع دانى على طريق قديم للسيارات. المرأة تقود السيارة، أو عندما يحب الاثنان القيادة. حكايات حقيقية وأخرى مُختلقة. الحب الحقيقى يستطيع الانتظار.

لم تتخل دانى عن مكانها أمام عجلة القيادة. جلست من البداية وحتى النهاية أمام عجلة القيادة، وحتى أثناء تموين السيارة بالبنزين أخذت تلعب بعض تمرينات ثنى الركبة دون أن تترك مكانها أمام باب السائق المفتوح. فى الأسبوع الماضى قصت شعرها قصيراً جدًّا دون أن تسألنى عن رأيى فى ذلك. كانت متوترة لأنها لم تجد عملاً، وأيضاً بسبب تينو الذى يزداد التعامل معه صعوبة يومًا بعد يوم. عندما ودعته راح يصرخ بهستيرية ويركلها بقدمه. لم يرد أن يقضى عند أبيه أسبوعين فحسب. تبخرت كل مدخراتى بعد أن اشتريت المطبخ الجديد من "إيكيا". فى كل شهر نحتال بكل الحيل حتى نصل إلى نهايته، ورغم كل

ذلك لم ترد أن تستغنى عن سيارتها البليموث القديمة، هذا الطراز الذى يتيح للسائق أن يجلس على كنبة عريضة فى الأمام، وحيث يجد حاملاً يضع عليه علبة المشروبات الغازية، لم ترد أن تستغنى عن "جيمى الابن" فى مقابل "جيمى"، السكودا القديمة.

دانى ليست سائقة سيئة، سريعة بعض الشىء ربما، غالبًا ما يصيبنى الغثيان عندما أجلس بجوار السائق، وهذا الجزء من الطريق السريع القديم كان جحيماً، خبطة بين كل لوحين من الألواح التى تغطى الطريق، تعذيب أصلى. وكأننى أرى فيلمًا تعليميًا: العجلات ترتطم بحافة الألواح المطلية بالزفت، الارتطام يصل إلى المقعد ثم إلى العمود الفقرى. الخبطات تؤلم ألمًا فظيعًا فى فقرات الرقبة على وجه الخصوص، ومباشرة تأتى الخبطة التالية من العجلتين الخلفيتين، والنتيجة: تتلف بعض الأعصاب، ويقصر المرء ثلاثة سنتيمترات، بالإضافة إلى الخبطات، ضايقنى أن دانى ما زالت تتناول حبوب منع الحمل، مع أننا اتفقنا على إنجاب طفل. قالت إنها ما زالت صغيرة إلى حد ما بسنواتها الـ ٣٤ أو الـ ٣٥ . أجبتها قائلاً: "كما تريدين يا دانى." ماذا أقول لها إذا كانت قررت أن تؤجل الموضوع؟ هناك دائمًا أسباب، ليست هذه هى النقطة، ولكن دانى بدأت مرة أخرى تقول إن من الأفضل أن نبقى بلا أطفال، "من يعرف يا إدى إذا ظللنا نحب بعضنا بعد عامين؟"

بعدها بكت واعتذرت، فاحتضنتها وسألتها: "عن أى شىء تعتذرين؟"

كانت تفرط فى قراءة الكتب النفسية، هذه هى المشكلة، فى البداية كانت كتب ميلر، ثم ك.ج. يونج. دائمًا لديها مثال جديد، مثال ينطبق على الحالة فعلاً، كما تقول، قلت لها إنها تضيع وقتها فحسب بهذه الخزعبلات، ولكن الكلام لا يفيد، لابد أن تقتنع هى بذلك.

أنحنى إلى الأمام . لبرهة أعتقد أن طائرة تصحبنا من جهة اليسار، ثم يتضح أنها مجرد وساخة على الزجاج، فى تلك اللحظة تسألنى: "هل تعرف آخر أخبار لوكاس؟"

دانى شهدت تعميد لوكاس وأخيه التوأم، اختارها توم وبيلى لتكون إشبينة ابنهما لوكاس، أما آخر أخباره فهو أنه قام بتسمير دبه القماش على السرير. عندما رأته بيلى صفَعته ، لأول مرة، فى اليوم التالى حاول لوكاس الإمساك بالببغاء، لكنه استطاع الهروبَ، والآن كتبوا أوراقًا ملونة وثبتوها على أشجار القرية كلها، وفيها يتساءلون: من رأى هربرت، الببغاء ذا الريش الأصفر المائل للاخضرار، مرة أخرى شرحت بيلى للأطفال قصة المسيح، أما توم فإنه يبنى معهم بيتًا للعصافير دقوا فيه كل مخزونهم من المسامير.

لأن دانى لم تبتسم على الإطلاق توقعتُ أن تبدأ مرة أخرى فى الحديث عن ك.ج. يونج أو ميلر، قلت إن بيت العصافير فكرة جيدة، ضغطت على الولاعة المثبتة فى السيارة ثم راحت تشرح لى أهمية السنوات الأولى فى عمر الطفل، فالأخطاء التى تحدث عندئذٍ لا يمكن إصلاحها إلا بجهد هائل - هذا إذا تم إصلاحها على الإطلاق. هناك معلمون عديدون يستنفدون أعمارهم فى التربية والتعليم بلا طائل،

كان هؤلاء المعلمون سيرتاحون كثيراً لو أن مزيداً من الآباء كانوا آباء أفضل، أسألها من تقصد بهذا الكلام، إن ما يهمها - تقول - أن نفعل كل شيء بوعي تام، إذا أنجبنا طفلاً في يوم ما، أمر بيدي على فخذها في الجزء الذي ينتهي فيه بنطلونها القصير، وضعت داني يدها على يدي. عندئذٍ تقول إن أخطاء كثيرة ارتُكِبَت في حق تينو، "لأنهم دللوه حتى أفسدوه"، أرد عليها. "لا، ليس لهذا السبب." إلا أننا لم نواصل التحدث حول هذا الموضوع.

بالرغم من أن داني قد هدأت السرعة إلا أن الخبطات تزداد سوءاً، لا حول ولا قوة للمرء أمامها . تفاحة صغيرة تتدحرج بين قدمي من حيث لا أعلم ، عندما التقطتها كان ملمسها يشبه التفاح المشوي في الفرن، متغضنة ودافئة، ثم انزلقت أوراق السيارة وبرزت من مكانها تحت حاجب الشمس، أقول لها إن عليها أن تتجاوز هذا الغبي أمامنا ثم تلزم الحارة اليسرى، ولكن على اليسار كانت السيارات تزدحم خلفنا مضيئةً أنوارها الجانبية، وجدنا أنفسنا مجبرين على العودة إلى الحارة المليئة بالمطبات، وضعت التفاحة المشوية على حامل علب المرطبات.

أصابع داني تعبث بعلبة "لاكي سترايك"، ثم قربتها من فمها ونجحت في تصيد سيجارة بشفتيها، سألتني والفلتر بين الأسنان إذا كنت أريد أن أدخن أنا أيضًا، وأنزلت زجاج شباكها قليلاً، "لا أشعر بأنني على ما يرام"، قلت لها.

"لقد تخيرنا يوماً ما يعلم به إلا ربنا!" قالت وهي تمر بإبهامها تحت حزام الأمان، ثم مطته وتركته يعود إلى وضعه، أعتقد أنها لم تدرك في

تلك اللحظة كم أحب هذا المنظر، أخذت أتأمل يدها اليمنى التى أمسكت بها السيجارة، كان يمكن رؤية العروق فى ظهر يدها، لكن ليس بوضوح كبير، أما الزغب الأشقر على ساعدها فلا يلاحظه المرء إلا عندما تلوحها الشمس.

طلبت منها مرة أخرى أن تبقى على الحارة اليسرى بقدر الإمكان، وأن تقف عند محطة البنزين القادمة، أبطأت السرعة، تهيأ لى أننا السيارة الوحيدة التى تسير ببطء دون أن تتجاوز السيارات الأخرى، ولكن قبل أن نصل إلى محطة بنزين فإن الأمر لا يستحق أن نتجاوز أحداً، دهست دانى السيجارة وأنزلت زجاج الشباك عن آخره، ثم تركت يدها اليسرى متدلية وكأنها تتأمل أظفارها فى المرآة العاكسة، على الأقل الآن كان يمكن لهذه الإجازة أن تصبح جميلة، الألواح على الطريق ستنتهى فى لحظة ما، كما أن هدفنا قد اقترب، اعتقدت أننى سأقود السيارة بعد محطة الوقود، وعندما أسوق بنفسى لا أُصاب بالغثيان. عندئذٍ ستقترب دانى منى، وتخلع صندلها الجلدى وتضغط بأصابع قدميها على الزجاج الأمامى مُقربةً ساقها اليسرى كى أمسدها، لدى الأمل فى أن تعثر على عمل فى أكتوبر أو نوفمبر، قلت لها: بدلاً من أن نغير الواقى من الصدمات، فمن الأفضل أن نشترى سيارة جديدة. وجدت نفسى أتفرج على دانى وهى تمر على محطة وقود دون أن تتوقف، عندما مررنا عليها قالت إن المرء ما زال يدفع فى السيارات الألمانية ثمن حمام السباحة للعمال، أما السيارات الفرنسية والإيطالية فإنها لا تصلح لشىء، واليابانية لا طراز ولا شخصية لها. فجأة رفعت قدمها من على دواسة البنزين، فاندفعتُ إلى الوراء، ثم مرةً أخرى حدث ذلك عندما خفَّضَت السرعة.

قلت لها: "حمام السباحة – كلمة أربطها أكثر بأمريكا." أغاظتنى الطريقة التى مطت بها شفتها السفلى، وكيف وضعت علبة الفانتا على الحامل مائلة وكأنها فارغة. مسحت بظهر يدها على فمها، وضغطت بالعلبة على رقبتها، ثم دحرجتها على فتحة الصدر، وأمسكت بها فى النهاية على الكتف. "هذا لا يغير من الوضع شيئًا." تكلمت دانى بخفة مبالغ فيها، قلت لنفسى إن الجالس بجوار السائق يجد نفسه دائمًا فى موقف سخيف، كما أن تهدئة السرعة فجأة تضر السيارة بالتأكيد. إنها تُطيل أيضًا فى إعطاء الإشارات الضوئية. أما محطة البنزين القادمة فتبعد كما يبدو ٦٤ كيلومترًا. الزجاج الأمامى المبقع بأجزاء الحشرات المتناثرة يحتاج إلى غسيل. شعرت بالغثيان. الحارة اليمنى كارثة. أردت أن أفعل شيئًا، أن أقول شيئًا، ولكن دون أن أسألها إذا كانت ربما لا تمانع فى أن أتولى أنا القيادة، لم يكن الوضع يبعث على المرح بأى حال من الأحوال. رحت أتخيل موقفًا كالتالى: أن أرتكبُ حماقة وأحكى لها شيئًا يثير استفزازها على الفور، فإذا شرعت فى الحديث عن نظريات ك.ج. يونج، عن "المطابقة والسببية". كنت أنوى أن أحسم الأمر بصورة نهائية وأقول لها إننى أعتبر ذلك كلامًا فارغًا ، وإننى لن أصغى فيما بعد لمثل هذا الهراء. أردت أن أنصحها بأن تهتم بالموسيقى. إنها على كل حال شىء حقيقى، أو بالفلك.

سألتها: "هل حكيت لكِ عن رحلتى بالقطار؟" من الطريقة التى قالت بها: لا، لاحظت أنها متعجبة، لأننى قمت بالرحلة قبل ما يقرب من أسبوع. على كل حال بدأت أحكى عن ولد وبنت لم يتوقفا عن العدو فى

الممر جيئة وذهاباً. قامت الأمان بوضع حيوانين من القماش - بنجوين وضفدعة ضخمة - على المقعدين المقابلين لي على الجانب الآخر، ثم عادت المرأتان إلى مكانهما في نهاية العربة، وجدت نفسي أفكر رغماً عني في التوأم توم وبيلي، وكيف يتصرفان حتى أضيف إلى الموقف كل التوابل اللازمة.

"طوال الوقت لم يتوقف الطفلان عن الصراخ"، أكملت حكايتي. "حاول رجل ذو رأس أصلع وصوت عالٍ أن يهدئهما. زوجته كانت مستغرقة في النوم، أو تظاهرت على الأقل بذلك. بعد وقت قصير غادرا العربة، ثم تبعهما آخرون عندما بدأ الطفلان يفتحان غطاء صندوق الزبالة ويغلقانه، مما أصدر صريراً فظيعاً. لم يظل جالساً إلا رجل عجوز بدين راح يسب الطفلين، فتوقفا برهة، ثم واصلا الدوشة والهيصة. سار العجوز في الممر هازاً رأسه حتى وصل إلى المرأتين."

"كم يبلغ عمرهما؟"، سألت داني. قلت لها إنه يصعب عليّ دائماً أن أقدر عمر الأطفال، ربما في العام الدراسي الأول. "قصدت المرأتين"، أضافت داني،"حوالي ٢٥"، أجبتها، ثم صمت لبرهة.

كانت سيارتنا تخرج من مطب لتدخل في آخر. كنا نسير خلف شاحنة قلاّب عملاقة لفنا عادمها بغلالة حجبت عنا الرؤية.

"ثم لعب الطفلان "لعبة الهجوم" - هكذا أطلقا عليها"، قلت مواصلاً الحكاية. "كان على البنت أن تجري في الممر، والولد يجري وراءها ويمسك بها، ثم يطيح بها أرضاً. بعد ذلك يتبادلان الأدوار، وعندما كان الدور على الولد وقف العجوز بينهما. قال الولد إنه يريد عندما يكبر أن

يدخل الجيش حتى يخنق أعداءه. كان ينطق بمثل هذا الكلام بينما راح العجوز يسب ويلعن ويقول إنه لن يفعل فى الجيش أبداً ما يريده، بل على العكس، فى الجيش تحديداً يسود النظام.

أمسك بالصبى من ذراعه وهزه، ثم سمعت العجوز يسأله: "ماذا تريد أن تفعل فى يوغسلافيا؟ "هنا توقفت مرة أخرى عن الكلام. وجهت دانى إلى نظرة قصيرة، لأول مرة خلال الرحلة كلها، "ماذا تريد أن تفعل هناك، سأل العجوز. راح الولد يكرر: أخنق أعدائى!"

"وبعدين؟"، سألت دانى.

"تركه العجوز يجرى" .

"وأنتَ؟" تجاوزت دانى الشاحنة القلابة ثم رجعت إلى الحارة اليمنى ومعها عادت المطبات، مع أننا نسير على سرعة ٦٠ على أقصى حد.

عندما أدركت ما يدور فى رأسها قلت لها: "الصبى عنده ست أو سبع سنوات ..."

"ومسموح له كل شىء ...؟"

"دانى ..."، صحت ولم أعرف ما أقوله. لقد تحولت بالموضوع إلى منحى آخر تماماً.

"غير معقول"، قالت هامسة، وزفرت ببطء من خلال أسنانها فأصدرت فحيحاً. عدلت من وضع مسند الظهر عندى لمجرد أن أفعل شيئاً. "لم يخطئ الولد فى كلامه"، قلت لها. "وطالما لا يريد أحد أن يفعل

شيئًا، فستستمر المذابح لتنظيف البلد كلها وتنقيتها عرقيًا. ليس من المعقول أن نتفرج على ما يحدث." كم من مرة شرحت لها رأيى فى هذا الموضوع، وكنت أعتقد أن ما أقوله يبدو معقولاً. أردت أن أطلب منها أن تقف أو تسير فى الحارة اليسرى لأننى أشعر بغثيان فظيع. بدلاً من هذا كانت سيارة وراء الأخرى تتجاوزنا، وأخيراً لاحت لنا التفريعة التى ننتظرها.

دانى تسير الآن على طريق كالحرير، وضعت يدى على ركبتها وسألتها إذا كانت تريد سيجارة. لم تنبس بكلمة. رأيت على ظهر يدى آثار الحرق الذى نجم وأنا أُخرِج الخبز من الفرن، لم يتبق منه سوى نقطة حمراء. بالتأكيد ستضع دانى يدها فى لحظة ما على يدى. طائرات شراعية تحلق الآن فوق الحقول.

أجمل شىء أستطيع تذكره هو أننى نظرت فجأة إلى النعل الداخلى اللامع لصندلها الجلدى، ثم رأيت على دواسة البنزين قدمها الحافية وأصابعها المطلية. لوهلة اعتقدت أن هذا يفسر سبب تقدمنا الآن بسرعة وبلا عوائق.

عندما بدأنا نتحدث مرة أخرى، كانت كل كلمة تتسبب فى شجار. قالت إنها لا تستطيع التعرف علىَّ، إنها لا تصدق أبداً أن شيئًا كهذا يمكن أن يصدر من فمى. لقد عقدت الدهشة لسانها. اعتقدتُ أنها ستجهش الآن فى البكاء والعويل، إلا أنها أضافت بمرارة: "هل تُعيد علىَّ ما قلت؟" قلت لها إنها تأخذ الأمور مأخذاً سهلاً، سهلاً جدًا. نظرت دانى

بعناد إلى الأمام. قالت إنها كانت لفترة طويلة تفكر مثلى، لكن هذا خطأ كبير. "سنة ٨٩ لم تكن ستتكلم هكذا أبدًا، أبدًا!" مرارًا وتكرارًا كانت ترفع يدها عن عجلة القيادة ثم تعيدها وكأنها لاعبة جمباز أو حاملة أثقال، مكررةً أنها لا تستطيع أن تصدق أن الذى يطلق الكلام هكذا على عواهنه هو أنا.

زودنا السيارة بالوقود، وراحت دانى تلعب تمارين الركبة بينما قمت أنا بالمهام الأخرى. أثناء العشاء كنا نقرأ الجريدة أو نحملق فى قطعة الزبد الموضوعة بيننا. فى الصباح التالى رجعت إلى البيت.

بقيت الأربعة عشر يومًا وحدى فى البيت الصيفى على بحيرة شارموتسل، على أية حال لم يكن بإمكاننا أن نستعيد ما دفعناه. بمجرد استيقاظى من النوم كنت أرتب سريرى وأنظف الغرفة على الفور حتى لا يتسخ شىء. لم أغادر البيت إلا للسباحة، بل واشتريت مرتين زهورًا لأننى وجدت زهرية فى دولاب المطبخ.

حاولت أن أفكر بهدوء فى علاقتى بدانى وتينو، ولكن ما خطر على بالى كنت أعرفه من زمان. إننى أرى أنه من الطبيعى أن يرغب الإنسان فى طفل من صلبه، ولكن ليس معنى ذلك أننى لن أعتنى بتينو. حتى اليوم الأخير كنت أعتقد أن دانى ستأتى على الأقل لتوصلنى.

فى البداية انتقلت مع تيرى وتينو إلى أبيه، يعنى إلى زوج أختها. ظللت آمل لمدة طويلة أنها ستتصل بى فى عيد ميلادى. على الأقل من أجل أشيائها الكثيرة فى الشقة: جهاز الووكمان والكتب وسى دى المغنية ماريا كالاس والوحش الرمادى، كرسيها المبطن المفضل – وكل الأشياء

التى اشـتـريناها مـعًـا - طقم المطبخ والحصـيـر والأبجورتـين وكرسى البـحـر، لم أكن أسـتطيع أن أتصل بـهـا وأقـول: "آلو دانى، اليـوم عـيـد ميلادى. ألا تريدين أن تهنئينى؟"

شعـرت بالغـضب تجـاه بيلى وتوم لأننى كنت دومًـا أتخـيل أنهـمـا نصـحـاهـا أن تفـارقنى. بعـد نصف عـام، فى أواخـر ينـاير، فُصلت من عملى. لم يتخيل أحد فى الصحيفة أن الفصل يمكن أن يطولنى، أنا فقط كنت أعرف أنهم يقصدوننى فى المقام الأول عندما تحدثوا عن "أننا لابد أن نصبح قـادرين على المنافسـة". كـافة قـرارات الفصل - حتى فـصل مراسل صـحفى خـارجى سيئ مثلى - لم تتـخـذ من أجل صـالح أغلبـيـة العـاملين فـحـسب، بل أيضًـا لصـالح اقتصـاد البلد كله، أى لصـالحى أنا أيضًا فى نهاية الأمر.

لم يكن ينقص إلا هذا الجزء حتى تكتمل الصورة البائسة التى كنت أراها منذ رحيل دانى؛ لذا كـان منطقيًّا أن أوفر الجهد والتعب، وألا أرفع قضية أمام محكمة شئون العمال.

فى البداية لم أجد الأمر سيئًا، أن تنقضى فترة البحث عن عمل بما فيها من فقدان ماء الوجه. كنت قد سئمت الوجوه العكرة المتهكمة التى كـانت تعـرفنى من قبل. لم أحـزن إلا من أجل بِت. العـمل مـعـه كـان فى بعض الأحيان لطيفًا ومسليًّا.

أردت أن أستفيد من الوقت فبدأت فـى قراءة كتاب شتوريج "الموجز فى تاريخ فلسفات العالم"، إلا أننى تعثرت فى القراءة قبل أن أصل إلى أفلاطون. عندئذٍ قررت أن أقرأ رواية روبرت موزيل "رجل بلا سمـات" -

الأجـزاء الأربعة اقتنيتها منذ فـترة طويلة – لكنني فقــدت الرغبـــة بعد ثمانين صفحة. مع نادى اللياقة البدنية أبرمت عقداً لمدة نصف عام بمبلغ ٤٤٩ ماركًا، إلا أننى لم أذهب بعد الأسبوع الثانى، بل لقد توقفت حتى عن استذكار الحصة اليومية من المفردات الأساسية للغة الإنجليزية من كتـاب لانجنشـايت الملقى بجـانب سـريرى. لم يعد يخطر على بالى أى شىء يمكن أن أتحدث عنه. عندما ألقى نظرة إلى الوراء لا أعـرف مـاذا كنت أفعل خلال ثلاثة أربا ع ذلك العام، غير أننى أشتريت مكنسة وأننى كنت أتقـابل أحـيانًـا مع أوته، لم أسـتطع السـيطرة على أمـورى، دون أن أعلم لماذا.

كنت أعتقد أننى الوحيد الذى يلاحظ أن الأرض تدور. لم يفـهم أحد عن أى شـىء أتحـــدث، مـع أننـى منذ وقت طويل وأنـا أتـأمل فـى هـذا التـعـبـيـر. الأرض تدور، ولا يسـتطيع المرء سـوى انتظار أن تواصل دورانها، وفى تلك الأثناء يتغير المنظور، أى أن المرء يرى الأشياء أحيانًا بطريقة مغايرة، إلا أننى لسبب لا أعلمه كنت أرى دائماً الأشياء نفسها.

وفجـأة حصلت على عمل كنت قد تقدمت إليه برسالة عـادية من تلك الرسـائل التى ينسـاها المرء بمجرد إرسالها. "فريدريش شولتسـه، برلين مـارينـدورف، شـركة النقل الدولية" – لديهم فـروع جـديدة فى كريميتشـاو وجـوتيبـورن. مـرتين فـى الأسـبوع أسـافـر الآن إلى فـرنسـا ومـعى خل ومسـطردة من مدينة ألتنبورج لسلسلة أسـواق ليدل. يتيح لى عملى وقتًا كافيًا كى أحلم بـامرأة اسـمـها دانى لم تقص شـعرها، تعـيش الآن مع زميل سابق لى، مصـور من صحيفة باير هـجرته زوجته، رأيته مـرة عند توم وبيلى. لا يناسب دانى.

ربما كـان لابد أن يحـدث كل شيء على هذا النحـو. أريد فـقط أن تلاحظ دانى فى يوم ما أن مكانها ظـل شاغراً، أننى أحبـها فعـلاً، هى ولا أحد غيرها، حتى وإن لم أعرف فى بعض الأحيان ماذا ينبغى أن نفعل معًا، أو عن أى شىء سنتحدث. أنا على كل حال أعتبر ذلك شيئًا ليس شاذًّا: أن أحب شخصًا واحدًا فقط، وألا أحب غيره، حتى وإن كان المرء لا يعيش مع هذا الشخص، بل ولا يقابله.

قبل عدة أسابيع رأيت سيارتها "جيمى الصغير" فى موقف سيارات المركز التجـارى "كاوفلاند". لم يكن هناك أحـد فنظرت داخل السيارة ، لم يتغير شىء، وكأننى سأركبها الآن، فقط التفاحة لم تكن موجودة.

أتخيل مـاذا كان سيحدث لو أننى كنت السائق، ولو أننى لم أخترع حكاية الطفلين تلك ... كانت دانى ستقترب منى، وستضع رأسها على كتفى، وتخلع صندلها، وترفع قدمها وتضع كعبها على أقصى يمين التابلوه. كان شعرها سيسقط على ذراعى، بينما كانت أصابع قدميها المطلية ستضغط على الزجاج الأمامى. كانت ستنعس لأنها منهكة تماماً، وفى المساء كنت سأقود السيارة حتى شاطئ البحيرة، وهناك أقبلها على عينيها هامساً: دانى، انظرى أين نحن الآن.

الفصل الحادي والعشرون

إبر

مارتين مويرر يستقبل فى شقته الجديدة أول زائر.
من سيتزوج فضيلة؟ أسماك فى الزجاجة
والسلطانية. سير حياة. تنظيف سطح بلكونة.
من تنتظر؟

"فينى، فيدى، فيتشى"، يقول طاهر[1] راجعاً برأسه إلى الوراء وهو يضحك. يظل واقفاً على آخر درجة من السلم، ويغطى زجاجة المياه المعدنية الكبيرة لمارتين الذى يسند بظهره باب الشقة ليظل مفتوحاً.

"من أين جئت؟ العزال كان من أسبوع."

"شوف!"، يقول طاهر.

(١) طاهر هو أحد اللاجئين المسلمين من البوسنة والهرسك الذين هربوا إلى ألمانيا منتصف التسعينيات بعد تفكك يوغسلافيا واندلاع الحرب الأهلية هناك، وهو يحاول أن يتحدث ألمانية سليمة، لكنه يخطئ. (المترجم)

"لا، اثنان؟ وواحدة أخرى!" راح مارتين يتأمل الأسماك من الشق الفاصل بين الزجاجتين.

قال طاهر: "إذا تركتهم فى الزجاج سيكبرون جدًا ... nobody ... لن يعرف أحد كيف دخلوا فيها."

يرتدى طاهر قميصًا باهت اللون على صدره تمساح صغير، وبنطلونًا أسود يلمع عند حواف الجيوب، وقفازًا قديمًا وعلى الذراع جاكتة.

" طوالى يا طاهر، على طول." مارتين يغلق باب الشقة. "هل تعجبك؟" "هات"، يقول طاهر. يذهب بالزجاجة إلى الأرفف على الحائط، ويزيح السيارات الصغيرة والأحجار، ثم يسحب إلى الأمام زجاجة على شكل سفينة. "عندما تكبر الأسماك لابد أن تفعل هكذا."

"الزجاجة ... الزجاجة يا طاهر، وليس الزجاج."

يضع طاهر الزجاجة بالعرض على الرف. يلمس الغطاء المعدنى الأزرق فلين زجاجة أخرى.

"وماذا أعطيها لتأكل؟"

يستدير طاهر ويترك سبابته تقفز على ظهر يده. "ما اسم هذا؟"

"آه"، قال مارتين، "براغيث، لغاية يوم الاثنين؟ هل محل الأسماك ..."

كلاهما يرتعبان. تتدحرج الزجاجة على الرف الأسفل وتقع بلا صوت تقريبًا على السجادة.

"ما حصلش حاجـة"، يقـول طـاهـر وينحنى على الزجاجة . "ما حصلش حاجة".

كان مارتين يقف على ورق الصحف بجوار حذائه الرياضى مرتديًا جوربًا وبنطلون جينز يصل حتى أسفل الركبة. عند الشباك أمسك بفرشاة مسطحة، وراح يغسلها فى برطمان مملوء حتى منتصفه ضاغطًا بالفرشاة على قاع البرطمان.

"يمكنك أن تساعدنى. كنت أريد أن أعرفكما ببعض، أنت وشتوبير. لديه امكانيات أكثر بكثير، بكثير!"

أمسك طاهر بالزجاجة بين إصبعين مؤرجحًا إياها، ثم قال: "كان لازم ألعب شطرنج".

"كنت ستكسب هنا أكثر من ١٥ ماركًا – كم يتقاضى الواحد الآن مقابل لعب الشطرنج؟ أخى، بت، كان هنا أيضًا، هو الوحيد الذى لديه أشياء تناسبك".

"إيه ده؟" يسأل طاهر.

"محلول بديل للتربنتين".

"لا. تيك تيك تيك. clock .. أأأ .. ساعة؟

"فظيع، مش كده؟ كأنها قنبلة زمنية. اعتقدت أنك الكهربائى"

"أنا مش كهربائى".

"ليس أنت! أنا أنتظر الكهربائى، الذى سيعمل لى هذا، واعتقدت

"آه، آه"، يقول طاهر هازًا رأسه.

"صوت كأننا فى محطة محولات كهربائية." يصدر مارتين أزيزًا ويحاول أن يغطى على الصوت. "وفوق ذلك هذه التكات. إذا كانت هذه هى التكنولوجيا الحديثة ... إذا لم يصلحوها لن ندفع، **no money**، بكل بساطة." يجفف مارتين الفرشاة فى لباس متهرئ. "هذه الشقة كانت شقة البواب، ليس إلا. عليك أن ترى المنظر عندهم تحت. مبنية على طراز "اليوجندستيل" ، طابقان ، فخامة لا توصف . كان كل هذا روضة أطفال ، لكن سوء الإدارة أفسدها، وهنا على السطح شقة البواب، لها مدخل خاص".

يلقى طاهر الجاكيت على كتفه ويمسكه بإصبعه. يتبعه إلى الممر.

"لتينو، إذا جاء مرة. الباب مدهون أيضًا." يضغط مارتين بأنامله على الأكرة. الستارة محشورة بين المصراعين. "صغيرة قليلاً، ولكن ماشى الحال." يفتح الشباك ويهندم الستارة، ثم يخرج ويفتح الباب المقابل.

"أنام هنا، لا شىء تتفرج عليه. لا يتكلم شتوبير عن هذا الموضوع، ولكنه بالتأكيد دفع ما لا يقل عن مليون لهذين الدورين. مقابض النوافذ، كلها مصنوعة خصيصاً، جميلة، مش كده؟ كان شتوبير يخشى يوماً أن يقوم البواب العجوز فى يوم ما بتفجير هذا كله، لم يكن يسمح لأى أحد بالدخول عنده. أتعرف كيف كانت هذه الشقة تبدو قبل ستة أسابيع؟ لن

تستطيع أن تتصور ذلك. انظر هنا." في الحمام يغلق مارتين غطاء التواليت. "لم يكن بالإمكان وضع بانيو أكبر، ولكن المهم أن هناك بانيو. أضغط هناك، ضوء إضافي. والمرآة! قمت باختيارها بنفسي ووضعت له الفاتورة في صندوق البريد. لابد أن يدفع أجرتي أنا أيضاً، والآن أفضل شيء .. هل تغلق الباب؟"

في المطبخ يغلق مارتين باب البلكونة على الآخر، ثم يزيح بقدمه إسفينًا خشبيًا تحت الباب. "- عندما ينتهي العمل هنا ... بلكونة مع شقة، وليس العكس. تفضل يا سيدي!" يأخذ الزجاجة من طاهر. "حتى لا تلقيها على رأس أحد"، يقول ويضعها على المائدة.

تحتم على مارتين أن يتناول من الدولاب السلطانيات البلاستيك الثلاث كي يصل إلى أكبرها. وضع فيها ماءً باردًا ثم راح يهزها. ألقى الماء ثم فتح غطاء زجاجة الماء المعدنية. صاح قائلاً: "لا تسمع هنا إلا صوت العصافير. أشجار الصنوبر نادرة في هذه المنطقة. الطحالب أيضًا. الصنوبر والطحالب." يمسك مارتين بالسلطانية في وضع مائل وكأنه يملأ كأس بيرة. ينساب الماء إلى حواف السلطانية. ببطء يرفع الزجاجة إلى أعلى.

"كنت أعتقد أن فضيلة عندك ، ربما" . طاهر يبقى واقفا عند باب البلكونة.

"فضيلة؟ إنها خطيبتك أنت." مارتين ينزل الزجاجة. "أنا لا أعرفها على الإطلاق. كيف لها أن تعرف أن

"أنا أحكي كثيراً عنك." يطوح طاهر رأسه إلى الوراء ويضحك. "نتكلم كثيراً عنكم يا بني آدم".

"عنك، إذا كنت تقصدني. عنك، عنكما، عنكم." يُنزل مارتين سمكة من الزجاجة ثم يدير غطاءها ويحكم إغلاقها. "على الزجاجة رهن، ٣٥ فنكاً".

"نحن نتكلم عن فضيلة وأنت – ليه لأ؟" يعلق طاهر الجاكتة على مسند الكرسي. من المحفظة يخرج صورة بالألوان، ثم يمسح بيده على المائدة ويضعها أمام مارتين.

شابة حافية ترتكز على حائط مطلي، ترتدي بنطلون جينز باهتًا وقميصاً من الفلانل، وشعرها مقصوص على موضة الأمير إيزنهرتس. عظام وجنتي فضيلة ملفتة النظر، ونظرتها جادة.

"هل تشبه؟"

"من؟"

"أسألك أنت يا بني آدم!"

"حسب تسريحة الشعر والطول"، يرد مارتين، "تشبه المغنية الفرنسية ماري ماتيو."

"لا، جوليت بينوش. لا تضع ألواناً حتى تنظر جميلة".

"حتى تبدو جميلة".

"شايف طولها؟ صغيرة، هكذا!" يصنع طاهر بأصابعه مسافة قدرها عشرة سنتيمترات. "هكذا!" واتسعت أصابعه وكأنها مؤشر. "ليس أكثر".

قدم فضيلة اليمنى موضوعة على اليسرى، ركبتها مثنية.

"حذاء صغير جدًا، مثل جوليت بينوش".

"هل عند الصغيرة حذاء؟"

"لا أعرف"، ويضحك طاهر.

"اعتقدت أن فضيلة فى برلين؟"

يتأمل طاهر الصورة. "نسكن شارع لايبتسج. ماما فى برلين".

"المرة الأخيرة كان العكس." يفتح مارتين باب الدولاب. "وأبوك؟"

يضحك طاهر ضحكة قصيرة.

"هل هو أيضًا هنا؟"

"تبحوه".

"أبوك؟ كيف؟"

طاهر يضحك، ويضع قبضته على سرته، ثم يسحبها حتى ذقنه، قائلاً: "شقوا بطنه."

"أنا قصدت ... لم أقصد ... أنا آسف." يزيح مارتين علبة بها شرائح خبز محمص، وكيساً به مكرونة وآخر به حبوب موزلي وثمار توت مجففة. "أين حدث ذلك؟"

"في المستشفى، في بريتشكو."

"سنذهب فيما بعد لنأكل شيئًا، موافق يا طاهر؟ أم تريد شيئًا الآن؟" يشير مارتين إلى علبة مرسوم عليها بودنج بالشيكولاتة، وعليها كريمة صفراء.

"من غير طبيخ!"

طاهر يهز رأسه.

"أنت معزوم. أنت أول ضيف يزورني هنا. سنذهب، موافق؟"

"موافق"، جاوبه طاهر.

"أنت جوعان؟"

"آه."

"عندما أنتهي من كل شيء هنا سأعمل حفلة، عندئذٍ ستجيء ومعك فضيلة، موافق؟ هل ما زال الريحان صالحاً؟"

مارتين ينقر على الكيس من الأسفل.

يصطدم طاهر برجل المائدة، تهتز المياه وتصل حتى الحافة. "ليه مش جواز مع فضيلة – ليه لأ؟"

كلتا السمكتين البرتقاليتين تلمسان بفمهما قاع السلطانية. السمكة الزرقاء تسبح ببطء. يفرم مارتين أوراق الريحان. "إذن أنت لا تبحث عن فضيلة؟" قال ناظرًا له.

"أنا أبحث عن فضيلة. فضيلة ..." بقبضته اليسرى يحاول طاهر الإمساك بناموسة. ببطء يسحب أصابعة على كفه الآخر.

"لا شيء"، يقول مارتين.

تتفرج أصابع طاهر ويشير إلى البقعة بين الوسطى والبنصر. يلقى بالناموسة فى السلطانية. "كنت أعتقد أنكما مخطوبان؟ أنت قلت إنكما مخطوبان، والآن تسألنى إذا كنت أريد الزواج منها!" يضع مارتين كيس الريحان فى الثلاجة. "هل تعتقد فعلاً أنها ستأتى اليوم؟ أن فضيلة ستأتى إلى هنا؟"

"أعتقد."

"من أين حصلت عليها، الأسماك؟"

يضع طاهر الصورة فى محفظته. "واحد كسر حوض سمك، خناقة كبيرة بين الكل. كل واحد أخذ ... هذه ..." يحرك أصابعه.

"... هذه ما زالت تعيش، وتلعب فى الماء."

"أيوه، تلعب فى الماء."

"كسر حوض سمك؟"

"آه." يدس طاهر المحفظة في جيب الجاكيت. فتات من الريحان يلتصق بحافة السلطانية.

"سأجن من هذه التكات من صندوق المنصهر. أم أنه يُهيأ لي فقط يا طاهر؟" كم الساعة الآن؟" يشير مارتين إلى معصمه.

يمسك طاهر بمعصمه الأيسر ويدير الساعة إلى أن يرى الميناء. عقرب الثواني ينط ثم يرجع إلى مكانه.

قال مارتين: "أنت بحاجة إلى بطارية جديدة. تحتاج بطارية. هل تساعدني في البلكونة؟ هناك خطورة إذا فعلت هذا وحدي. أريد أن أكنس المظلة فوق البلكونة."

"هل هذا هو أنت؟" يأخذ طاهر صورة من على الصندوق الذي يحفظ فيه الخبز.

"عرفتني؟ إلى أقصى اليمين، هذا الذي يقرفص، كان عمري عشرين سنة." يدور مارتين حول المائدة. "هذا، قابلته أثناء العزال. وهذا"، ينقر عليه، "نسي الصورة عندي، ديمتريوس، يوناني." يسحب مارتين من الثلاجة زجاجتي "كلاوستالر"(*). "دعك من كل الذين في الصورة، كلهم، ولا واحد فيهم أصبح شيئًا."

"ماذا لم يصبح شيئًا؟"

(*) كلاوستالر: ماركة بيرة خالية من الكحول. (المترجم)

"واحـد باحث في الفن، والآخـر باحث في تاريخ الفن. تشـرب كلاوستالر؟ منذ ثلاث أو أربع سنوات ظهر فجأة، ديمتريوس، بدون أن يتصل بي قبلها أو يخبرني بمجيئه. دق الجرس، فتحت، ورجع هو برأسه بين كتفيه. هكذا كان يبتسم دومًا، برأس مُلقاة إلى الوراء." مارتين يقلده. "كان يحمل حقيبة ضخمة، وعلى بسطة السلم وضع شنطتين كبيرتين." ممسكًا بزجاجة كلاوستالر في كل يد رسم مارتين دوائر كبيرة في الهواء أمام وجه طاهر قبل أن يضع الزجاجة على المائدة. "هذه هي 'حلقتنا الدراسية' عندما كنا نجمع محصول التفاح. ديمتريوس له أصابع مثل عازف الجيتار أو الكمان، الأنامل متصلبة. كان يقرض أظفاره." مارتين يعض على أظفاره. "يقرض، فاهم؟ كان يتحدث الإنجليزية والإسبانية والفرنسية والإيطالية وبعد عام في معهد هيردر في لايبتسج الألمانية أيضًا، وطبعًا اليونانية، وكان يتحدث الروسية أيضًا، وكما هو الحال عند الشيوعيين – أبوه كان معتقلاً سياسيًّا في جزيرة ماكرونيزوس. آخر مرة رأيته سنة ٨٨، سنة البكالوريوس. آنذاك كان ينوي الزواج، فتاة دانمركية، ومعها يعود إلى الوطن، إلى اليونان. كان يريد التفرج هنا في متحف المدينة على الرومان القدماء، مثل جيدو دا سينا وبوتيشلي، إلى آخره. ثم طلب مني كوب ماء. في السابق كان يطلب نصف كوب. في صحتك يا طاهر."

"ليه؟"

"في صحتك. لأنه كان يريد أن يعاني، من أجل الشيوعية، من أجل العلم، من أجل ..." مارتين يشرب. "ببساطة من أجل كل شيء. الحقيبة والشنط كانت محشوة عن آخرها بالمواد، على حد تعبيره. قال إنه يريد

إرشاد الرفاق الثوريين، في كل مكان، وحيثما كانوا. لم يكن يعرف هنا أحداً غيري. قلت له إن قيام ثورة في ألمانيا أمر لا أعتبره محتملاً ولا مرغوباً فيه، عندئذ راح يعاني مرة أخرى وقال: كثيرون يفكرون مثلك، ولكن هذا ليس صحيحاً. في اليوم التالي ذهبنا إلى المتحف، ثم إلى المحطة. كنا نتبادل حمل الحقيبة. كان من الممكن أن تكون قنبلة بداخلها. لم أسمع عنه بعد ذلك شيئاً على الإطلاق. لا تعجبك البيرة؟"

"وهذا؟"

"جاسوسنا. ظهر هنا بعد أسبوعين من جنازة أندريا، زوجتي، لكي يسأل عن حالي. في لايبتسج لم نكن نتكلم مع بعضنا في الفترة الأخيرة. حتى اليوم لا أعرف لماذا تركته يبيت هنا. ليس هنا، في الشقة القديمة في ليرشنبرج. آنذاك انفعلت لأنه لم يكلف نفسه حتى عناء نزع الملاءة عن السرير. كما أنه لم يغتسل. في الحقيقة كنت غاضباً من نفسي لأنني قمت بخدمته. لست سريع التصرف. كنت أريد ألا أراه ثانية أبداً، أبداً، وإذا حدث ذلك، كنت أنوي أن أقف أمامه قائلاً: هنا مكان لأحدنا فقط، إما أنا أو أنت. أخذت أتمرن على هذا حتى أعد نفسي لتلك اللحظة." مارتين يشرب من الزجاجة.

"هل عندك؟"

"هذا غادر لايبتسج من زمان".

"مارتين الآن يسوع المسيح، ويحب الكل".

"وطاهر يصوم لله وتفوح من فمه عفونة".

"رائحتي كانت عفنة؟"

"نعم. لهذا قدمت لك أقراص نعناع. للهواء فقط." يحرك يده أمام فمه ثم يشير إلى بطنه. "ليس من أجل هذا. هل تفضل المياه المعدنية على البيرة؟"

"وهذا، هنا؟"

"هذا فقد وظيفته وبدأ يشرب، أو فقدها لأنه يشرب. طلق امرأته قبل ذلك. العام الماضى تقابلنا فى برلين. لم يتغير، أقصد أن ما قاله هو ما كان يقوله فيما قبل، أيضاً لم يقرأ غير ما اعتاد على قراءته، لكنه أصبح يشرب يوميًا. "برلين باردة زى الرصاص"، هكذا كان يردد: "زى الرصاص" - تعبير يعنى أن الجو بارد جدًا. رمموا البيت الذى يسكن فيه، شارع كناك، بيت خلفى لا يطل على الشارع. كل شىء جديد، حتى المواسير. كانت هناك حفر فى الأرضية فى كل مكان، حفر كبيرة؛ ولأنه سكير فقد وقع مرة فى إحدى هذه الحفر، ووجد نفسه فى الطابق الأسفل حيث كاد يتجمد من البرد. المستأجرون الآخرون كانوا قد تركوا البيت منذ وقت طويل. ناس مثلنا لا يشرفون أحداً، فعلاً." يسير مارتين إلى الحوض ويغسل زجاجته. "هذه الواقفة بجانبى ألقت برسالة الدكتوراه فى صفيحة الزبالة ولم تتمها. كانت أميرة جماعتنا. حتى فى بيت الطلبة كانت تمسح فمها أثناء الطعام بمنديل من القماش وليس مثلنا فى مناديل ورقية. الأساتذة الجدد جاءوا بمعارفهم إلى الجامعة. تعمل الآن مرشدة سياحية فى إيرفورت، وهذه الجميلة، السمراء، هذه الآن مطلقة وعندها طفلان، وتعيش مع أمها فى قرية بالقرب من تمبلين، أما الآخرون فلا أعرف عنهم شيئًا. هيا، لا تعذب نفسك." مارتين يأخذ

من أمامه زجاجة الكلاوستالر ويغلقها ضاغطًا على السدادة الفلينية. "هؤلاء أيضًا لا يأكلون بشهية"، قال منحنيًا على السلطانية. "لابد أن يتعودوا أولاً على البيئة الجديدة."

أحضر مارتين حذاءه الرياضى، ثم جلس فى المطبخ على كرسى منخفض وشد لسان الحذاء وفك الرباط قليلاً.

"كان من بين أساتذة ومدرسى الجامعة من يهتم فعلاً بأمرنا، أو على الأقل بالدراسة. هؤلاء كانوا يريدون إنقاذ ما يمكن إنقاذه ويريدون أن يتواصلوا معنا. كانوا مثلنا، لم يعرفوا اليونان أو مدينة هيلدسهايم إلا من الصور." يثنى مارتين قدمه واضعًا كعبه على حافة الكرسى المنخفض، ثم عقد رباط الحذاء عقدتين. " من أجلهم أشعر فعلاً بالأسف لأننا لم نفلح. **I feel sorry for them**، فاهم؟"

يعيد طاهر الصورة إلى مكانها فوق صندوق الخبز.

"والآن، هل تساعدنى؟" يذهب مارتين بالكرسى إلى البلكونة. يشير إلى أعلى. "هذا مصنوع من البلاستيك المتموج، إذا كان هذا اسمه. يصبح شفافًا عندما يكون نظيفًا. الوساخة متجمعة فى التجويفات. غصون شجر، أوراق إبرية، وقذارة. كل هذا ينزل من شجرة الصنوبر. عندما أرى ما يجمعه شتويير من طحالب كل يوم – إنه يفتخر افتخاراً عظيمًا بالطحالب. لم ينظف أحد هنا منذ سنوات طويلة. عليك أن تسندنى، فقط تسندنى." يهز مارتين السياج الحديدى المحيط بالبلكونة حيث ما زالت حوامل أصص الزهور مثبتة عليه، ثم يجر الكرسى ناحيته. "أمسكنى من هنا." يمسك بحزامه. "الأفضل بيديك الاثنتين، هكذا. الأول

هنا ..." يسحب من خلف الدلو الملىء بمشابك الغسيل جاروفًا لعبة ومكنسة يدوية. "الأول هذا، ثم هذا."

يخبط مارتين بكف يده على حوامل المظلة. "المرة القادمة الدور عليها. أكلها الصدأ." بإظفر الإبهام يكحت بقايا طلاء أبيض. "نبدأ؟"

طاهر يضحك. يركع مارتين على الكرسى القصير، ثم ينهض ببطء متشبثًا بحامل الأركان. يخطو خطوة نحو السياج الحديدى. "أمسك جيداً يا طاهر!"

يسحب مارتين قدمه الأخرى. "طاهر، هيّا، أمسك جيداً!" ببطء بالغ ويظهر منحنٍ يستدير مارتين.

"ماذا حدث؟ أين الجاروف؟"

"إنها تمطر."

"الجاروف!" يمسك مارتين بالذراع بين أسنانه، ثم يمد رأسه فوق المظلة.

"هذا حقل زراعى! كله على بعضه! شوف! مزبلة حقيقية!" صوت مكتوم يصدر عن أول خبطة فى هذه الحديقة الغناء. "حقل زراعى مثمر!"

يتتبع طاهر حركات مارتين. يتطلع إلى عضلات السمانة وإلى الحذاء الرياضى الذى يتجول ببطء على السياج.

يكرر طاهر: "إنها تمطر".

يثب مارتين على أطراف أصابع قدميه. "سأجعلها تمطر زبالة وإبر صنوبر. سترى كيف ستصبح هذه المظلة البلاستيكية منفذة للضوء. هذا

هو ما سيعطى الشقة كلها جمالاً." يده اليمنى تظهر ثانية تحت المظلة وتضرب عدة مرات فى الهواء. "المقشة!"

يناوله طاهر يد المكنسة.

بعد لحظة يظهر رأس مارتين تحت المظلة البلاستيكية. شعره مبلول، الوساخة تلتصق بذقنه وأنفه. يقفز إلى أرضية البلكونة. "هه؟ إيه رأيك؟ الوضع الآن تغير تماماً." آخ، لم أُنزل كل شيء؟" يخبط بالجاروف الصغير من أسفل على السقف. "الآن يمكنك أن تعد الإبر الصنوبرية، كل واحدة تقع على السقف!"

"الآن الصوت عالٍ جدًّا".

"عند المطر فقط"، يقول مارتين ماسحًا بكمه جبينه مروراً بالأنف إلى الذقن. "أحب سماع صوت المطر على السقف. شوف فى غرفة الجلوس إذا كان المطر دخل من الشباك، فاهم؟"

عندما عاد طاهر كان مارتين قابعًا عند الحائط. فى الحديقة يرمى شخص بلعب أطفال بين الشجر. صوت نسائى يصيح عدة مرات: "كله اتسخ! كل لعب الأطفال اتسخت!"

عندئذ ظهر توماس شتويبر. يسير بحذر فوق الطحالب ملتقطاً اللعب. بيد يحمل جراراً بثلاث عجلات، وشاحنة قلابة، باليد الأخرى يجمع قوالب بلاستيكية مختلفة الأحجام ، وفى كل مرة تخبطه العجلة اليمنى الخلفية للجرار فى كعبه. الصوت النسائى يعلو ثانية. فجأة يستدير شتويبر.

"ولكن ليس على الطحالب!" يزأر رافعًا يديه المدوتين. يسقط منه قالب أحمر. يلتصق قميصه بكتفه. ينحني محاولاً أن يلتقط القالب بأصبع واحد. يعيد الكرة عدة مرات، إلا أنه يفشل. ينهض، ثم يطوح يديه عدة مرات قبل أن يرمي الجرار على سلم الفراندا، ثم يتبعه بالشاحنة. يلقى بكل الأشياء الأخرى إلى أسفل، ثم يمسك بالقوالب ويرميها عبر السياج.

"هو مجنون"، يقول طاهر "مجنون خالص."

من وضع القرفصاء يرمق مارتين السقف حيث يغطى صوت هطول قطرات المطر على كل ما عداه. إبرة من شجرة الصنوبر تطل جانبًا، مسافة ضئيلة، ثم ترجع إلى الخلف. بين الحين والآخر تقفز إبرة صنوبر تحت المطر، ثم بجانبها إبرة أخرى. بين لحظة وأخرى تتساقط الإبر.

"يا إلهى!" صاح مارتين "أترى؟"

غطت الإبر السقف تماماً. أكداس من الإبر تغمره.

"ألا ترى هذا؟ تيك تاك، تيك تاك." يحرك مارتين إبهامه يمينًا ويساراً.

"أيوه. كأنها سمكة صغيرة." يستند إلى إطار الباب "متى يجيء كهربائى؟ تنتظر؟"

"لا"، أجابه مارتين بعد برهة "يمكننا أن نذهب الآن." ثم نهض ببطء مستنداً بظهره إلى الحائط.

الفصل الثانى والعشرون

ما فات مات

حديث فى موقف سيارات المستشفى فى لوزن.
رناتا ومارتين مويرر يحكيان حكاية إرنست مويرر القصيرة. الدكتورة هوليتشك تسجل ما يقولانه.
مستقبل *الحب*. زوجة متوفية فى حادث، وصعلوكة *عاشقة.*

"كيف؟" تتساءل رناتا مويرر، وتأخذ نفسًا وكأنها تريد مواصلة الحديث، ثم تحبس أنفاسها. بين ركبتيها يداها الملتصقتان. "لا، لم تكن مفاجأة لى. لقد توقعت ذلك. لا يحتاج المرء إلى أن يكون عرافًا، فعلاً، ولكن ..." نظرت جانبًا. "يعنى ... الأمر غريب فعلاً ألا يتحرك أحد قبل أن تقع الواقعة، أن مثل هذه القوانين ..."

"أعرف"، قالت د. هوليتشك. "ولكن لابد أن نلتزم بالتعليمات، كما أن ... ما هو البديل فى رأيك؟"

يبتسم مارتين. "لابد أن يقع الطفل فى البئر حتى يستطيع أحد انتشاله".

"على كل حال"، تقول رناتا موير، "هذا الدرس حفظناه الآن".

رجعت بكتفيها إلى الوراء واعتدلت فى جلستها. "ولكننى لم أعرف أى مصيبة يريد أن يفعل. كنت متأكدة من حدوث شىء، مثلما ينتظر المرء كلمة "آمين" من المصلين فى الكنسية." شربت جرعة من الماء المعدني ووضعت الكوب أمامها على المكتب. "بل إننى أرى الأمر الآن منطقيًا. كان لابد أن يحدث شىء فى منتهى السخافة، شىء ليس له علاقة حقيقية به، شىء آخر لا يتناسب مع المخطط، مع النظام، سمه ما شئت، مع القوانين، وإلا فلن يفعل أحد شيئًا؛ لهذا السبب وحده أنا سعيدة أن إرنست فعل تلك الحماقات، وأن أحدًا لم يصبه ضرر. كان رجلاً طيباً".

سأل مارتين: "كان رجلاً طيباً؟"

"بالفعل كان طيبًا!"

"تقولين كان، إرنست ما زال حيًا".

"طبعًا ما زال حيًا. ومع ذلك يمكننى أن أقول إن إرنست كان رجلاً طيباً. ما هو الفظيع فى ذلك؟"

"لا شىء"، رد مارتين.

"إنسان طيب – كما يقول الروس. هل تفضل ذلك؟ مارتين غير راضٍ عنى فى الفترة الأخيرة."

دون أن تستدير سحبت د. هوليتشك الجاكتة التريكو من مسند الكرسي ولبستها فوق معطف الأطباء ذي الكم القصير الذي كانت ترتديه، والذي كان أكبر من مقاسها بنمرة أو نمرتين.

"في السابعة والعشرين تزوجت للمرة الثانية"، قالت رناتا مويرر. "كان إرنست يحب الأطفال جداً. مارتين كان في الثامنة وبت في السادسة، لم أكن أريد إنجاب أطفال أكثر. وافق على ذلك، رغم أن ابنه من زوجته الأولى كان قد توفي. كان لإرنست شرط واحد فقط، وهو ألا يكون لنا علاقة بزوجي الأول. إذا أرسل لنا هانز جوابات، كنا نعيدها إليه، حتى الطرود. كنت أرى أنني لابد أن أفعل ذلك من أجل إرنست. لم يكن مسموحاً له بعلاقات مع ناس من الغرب."

"زوجك الأول من ...."

"كان يعتقد"، قال مارتين، "أننا سننتقل إليه إذا تمكن من الفرار إلى الغرب".

"من يبتعد عن الأطفال، يكون قد اتخذ قراراً ضدهم – هذا كان رأي إرنست دائماً. في البداية ظننت أن إرنست يرغب في فقط لأنه مكلف بهذا، حتى لا نلحق بزوجي في الغرب، لكنني لم أكن أريد الفرار، لقد كنت معجبة به أيضاً، كما أنه لم يكن مخطئاً تماماً في رأيه".

"في أي شيء لم يكن مخطئاً؟"، سأل مارتين.

"أنت تعرف ما أقصد. ليس من الضروري أن ..." حملقت في لوح المائدة أمامها. "المال في بعض الأحيان أسوأ من الحزب. بالتأكيد

لم يكن العيب فى أشخاص مثل إرنست، لا، وإذا أردت أن تغير شيئًا، فلا يمكن أن تنسحب من كل شيء، عليك بالانضمام إلى الحزب. ربما كان سلوكه صحيحاً ... أليس من المسموح أن أقول ذلك؟"

"والدتك ..."

"طبعًا، طبعًا"، قال مارتين. "لا أقصد أن ... أنا آسف، ولكن ..."

"لا يمكن لناظر مدرسة أن ينسحب وينكفئ على حياته الخاصة، لا يمكنه أن يفعل ذلك فى أى مكان فى العالم. هناك أشياء لابد أن يقوم بها المرء، حتى ضد إرادته."

"ليس هذا محل خلاف"، يقول مارتين ثم يلتفت إلى د. هوليتشك. "ماذا قصدت عندما قلت إنه الآن ... هل أعطيته ... مهدئًا؟"

"لم نفعل شيئًا حتى الآن، لقد جاء إلينا بحالته هذه الليلة الماضية." أخذت تشد الجاكتة التريكو.

"وماذا تعتقدين ..."

"لا أستطيع أن أقول أى شىء".

"لكن ..."

"لا شىء. الدور الآن على طبيب مكتب الصحة ثم يجىء قرار المحكمة الابتدائية، عندئذ سنرى. كل ما أعرفه أنه ليس حالة منفردة. هذا هو كل شىء".

سيظل هنا؟"

"عدة أيام، بالتأكيد".

"أيام؟"، تسأل رِناتا مويرر.

"وبعد ذلك؟ هل يمكن ..." وخرس مارتين عندما هزت رأسها بالنفى، ثم قال: "فهمت".

"كل شىء واضح"، قالت رِناتا مويرر. "علينا ألا نتظاهر بشىء. أنا أعرف مشكلته، وهذا ما يجعل الأمر صعباً، هذا هو أسوأ ما فى الأمر. إننى أعرف تماماً حالته من الداخل، من هنا، أعرف تماماً".

"معذرة"، قالت د. هوليتشك عندما سمعوا طرقات، ثم فتحت الباب الموارب، تحدثت بصوت خافت وهى تومئ برأسها. كان شعرها ذيل الحصان - المربوط بثلاث حلقات من القطيفة على مسافات متساوية - يتأرجح كالبندول على ظهرها.

"ما رأيك فى المكان؟" همست رِناتا مويرر.

"على الأقل جددوه"، أجاب مارتين.

"نعم، كل شىء يلمع".

"معذرة"، قالت د. هوليتشك وهى تجلس. "قاطعت كلامك ..."

"عايشت ما حدث خطوة خطوة." ترسم رِناتا مويرر عدة درجات فى الهواء. "يوماً بعد يوم، لكننى كنت أعتقد أن الأمر سيتحسن يوماً ما." وأنزلت يدها، "لقد تغلب الآخرون أيضاً على أزمتهم".

"كانوا يلعبون به الكرة، ثم يتخلصون منه"، قال مارتين. "كان يتركهم دائمًا يفعلون به ذلك. كلما كانوا يريدون شيئًا، لم يكن يقول أبدًا: لا".

"كان يقول لا، يا مارتين. لم يكن الأمر هكذا. لو لم يكن يقول لا ..."

"لكنه تركهم يلعبون به الكرة، مرة بعد أخرى."

"عندما بدأت أحداث سور برلين سنة ٨٩ كلفوه أن يكتب رسالة إلى بريد القراء"، قالت ريناتا موير.

"وكتب الرفيق موير ..."، قال مارتين.

"لم يكتب إلا ما كان يؤمن به. كتب عن المجر سنة ٥٦ وربيع براغ سنة ٦٨ وأن المظاهرات لا تغير شيئًا، وأن على المحرضين ألا يتوقعوا الرأفة، وعندما جابوا أيضًا هذه المنطقة حاملين الشموع واللافتات، اكتشفت أنهم كتبوا على إحداها: لا رأفة مع موير. في الصحيفة لم ينشروا سوى صورة واحدة فيها هذه اللافتة. تملكني الخوف، لكنني أعجبت بشجاعته عندما ذهب إلى المدرسة في اليوم التالي. اعتقدت أنهم سيقفون يومًا ما أمام باب بيتنا، عندما سألني مارتين إذا كنت أود أن أسافر معه إلى لايبتسج، على الأقل لأتفرج على المدينة، طرده إرنست من البيت ومنعه من دخوله مرة أخرى، وماذا يفعل مارتين، ماذا يفعل مع أخيه بت؟ أهدونا رحلة بالأتوبيس إلى إيطاليا. في فبراير ٩٠ سافرنا بطريقة غير شرعية إلى إيطاليا."

"بمناسبة عيد زواجهما العشرين. خمسة أيام، فنيسيا، فلورانسا، أسيزي"، قال مارتين. "حتى يغيرا الجو، ويخرجا من دائرة أفكارهما".

"وبعدين؟" سألت د. هوليتشك عندما توقفا عن الحديث.

"هذا لابد أن تحكيه أنت يا ماما."

"لولا رحلة إيطاليا، ولولا رسالة بريد القراء، كان الأمر سيكون مختلفًا. على الأقل هذا ما أظنه أحيانًا. ذات يوم فصل زوجي معلمًا لأن تلميذًا سخر من الحزب الحاكم وكتب على كراسة الواجبات: البولشفية تأتي من الشرق. اتهموا المعلم أنه كان على علم بذلك - في نفس الكراسة كان التلميذ قد نقل الدعوة إلى آخر اجتماع لأولياء الأمور. كان ذلك في عام ٧٨، أو في هذه الحدود. آنذاك عقد الحزب الديمقراطي المسيحي(*) اجتماعًا في دريسدن، وكان مكتوبًا على لافتاته: من الشرق يأتي النور، أو السلام، سيان، عندئذ كلفوا إرنست أن يفعل شيئًا، التكليف جاءه من فوق، من القمة! لم يكن زوجي بالشخص المهيج أو المحرض، وهذا المدعو شويرت بالذات .. يسافر معنا إلى إيطاليا."

"زيوس؟" سألت د. هوليتشك، وهي ترمش بعينيها.

ريناتا مويرر تومئ برأسها.

"آه. أليس هو الذي مات من سنة أو سنتين؟"، سألت د. هوليتشك.

(*) المقصود هنا "الحزب الديمقراطي المسيحي" في ألمانيا الشرقية الذي تأسس عام ١٩٤٥ وكان منضويًا تحت لواء حزب الاتحاد الاشتراكي الحاكم، بعد التحولات التي حدثت في الكتلة الشرقية عام ١٩٨٩ وبعد انهيار سور برلين أقام هذا الحزب علاقات وثيقة مع نظيره في ألمانيا الغربية الذي كان يترأسه آنذاك المستشار هيلموت كول، وفي عام ١٩٩٠ قاد كول شطري البلاد إلى الوحدة، عندئذ اتحد الحزبان في شرق ألمانيا وغربها. (المترجم)

"آنذاك لم يتضرر من القرار. كان ..."

"كيف لم يتضرر يا ماما؟ ثلاث سنوات في منجم فحم. لصالح الاقتصاد القومي!"

"هناك من يفعل هذا طيلة عمره ... بعد ذلك حولوه إلى المتحف، ليعمل مسئولاً تربويًا. كان يتمنى ذلك دائمًا، أنت نفسك قلت هذا. مارتين كان يعرفه".

"كنت أراه بين الحين والآخر، كنت أصادفه في كل مكان، وعند افتتاح أي شيء. في هذه البلدة الصغيرة يعرف كل شخص الآخر".

"معذرة، ولكن ماذا حدث مع زيوس، مع السيد شوبرت؟"

هزت رِناتا مويرر رأسها.

"قبل الوصول إلى أسيزي"، قال مارتين، "تعطل الأتوبيس، عندئذ فقد زيوس صوابه. كان يعتبر جيوتو(*) أعظم فنان، ثم، قبل أسيزي، يعني على بعد فركة كعب، ثم يرجعون! فقد عقله. هذا ما أسميه "صدمة ثقافية". هذا أمر موجود، أليس كذلك؟ عقلية ألمانيا الشرقية، وكأنه لن يستطيع طول حياته أن يسافر مرة ثانية إلى هناك".

"لم يترك مناسبة إلا وراح يؤنب إرنست، أمام الجميع. كان الأمر عبثيًا تمامًا." حكّت رِناتا مويرر بحذر شفتها العليا الملتهبة. "أما أسوأ

(*) المقصود هو الرسام الإيطالي جيوتو دي بوندونا Giotto di Bondone (1266-1337)، ومن أهم أعماله لوحات الفريسكو في أسيزي. (المترجم)

شيء فهو أن تينو، حفيده، رفضه تماماً. كان إرنست يعشق حفيده. تينو صعب، صعب جداً".

"ابني"، قال مارتين.

"أم تينو لقيت مصرعها، في أكتوبر ٩٢, ومنذ ذلك الوقت - وتينو لا يتحدث إلا مع الأطفال، مع الأطفال ومع خالته. لا يرد على أحد آخر، ولا حتى على مارتين. لما يدخل الآن - ربنا يستر."

"بالدراجة؟ هل ... هل زوجتك توفيت ...؟"

"هل تتذكرين؟"، سألت رِناتا مويرر. "كتبت الصحيفة عن الحادثة وهروب السائق."

"كانت قد تعلمت لتوها ركوب الدراجة"، قال مارتين.

"مارتين يلوم نفسه على ..."

"ماما ..."

"... عندما يحدث كسر في فقرات العنق، يموت المرء على الفور! ولكن مارتين ما زال يظن أن إنقاذها كان ممكناً ..."

"إذا كان ما حدث لزوجتك كسر في فقرات العنق، فإن الإنسان يموت فعلاً على الفور، بين لحظة وأخرى."

"أسمعت، على الفور".

"إذا كنت لا تزال تفكر في الأمر ..."، قالت د. هوليتشك وهي تعبث بزرار في الجاكتة، ثم ضغطت بيدها على فتحة المعطف عند الصدر،

واتكأت على المائدة، وتناولت من فوق مجلة نظارة بلا إطار ووضعتها على أنفها، فتحت صفحة من كشكولها وشرعت تكتب.

"مارتين أهدى تينو كلبًا، من فصيلة "صياد الثعلب""، قالت رناتا مويرر. "اعتقد إرنست أننا نريد أن نهيج الولد على جدة، ومن أجل ذلك فقط اشترينا الكلب، لأن عنده حساسية من شعر الكلاب".

د. هوليتشك تكتب.

"احكى بالترتيب يا ماما. حدث ذلك بعد فترة!"

"انهالت الصحيفة عليه بالسباب"، قالت رناتا مويرر. "من المؤكد أن زيوس كان وراء الموضوع. نبشوا فى حكاية زيوس القديمة، ولكنهم صوروا الموضوع وكأن الحزب لم يكن له وجود، وكأن إرنست فعل كل هذا بإرادته وبقراره. نُشر هذا الكلام عام ٩٠، فى الأسبوع الذى يسبق عيد القيامة، عندئذ شكلوا لجنة لتحرى الحقائق، وكان عليه أن يجيب على أسئلتها. أعضاء اللجنة كانوا من أكبر اللصوص. واحد وراء الآخر وجد نفسه مجبراً على تقديم إستقالته. جاءتنا جوابات من غير إمضاء، أما أسوأ شىء فكانت جوابات التضامن، أيضًا من غير إمضاء".

"لقد ارتكب خطأ"، قال مارتين. "قدم استقالته بنفسه. بعد نشر المقالة كتب استقالته، وكان يأمل بالطبع – هكذا أخمن – أن يعترض أحد ويقول الحقيقة، ولكن لم يتحرك أحد، طبيعى، فقد إرنست للحظة السيطرة على نفسه. لو طرح مسألة الثقة – كان كسب الموضوع، أنا شبه متأكد، ثم اعتقد الجميع أنه كان من الشتازى، وإلا فلماذا قدم

استقالته، طواعية؟ في طرفة عين أصبح يجلس في بيته عاطلاً عن العمل. تحاشاه الجميع، ثم خرج من الحزب أيضاً لأنهم لم يفتحوا فمهم. منطقي تماماً، فهم لن يدينوا أنفسهم. ما كان عليه إلا الانتظار. مجلس النظار الجديد كان سيطرده، أو كانوا سيحيلونه على المعاش المبكر. إرنست أفسد كل شيء بنفسه".

"أبداً، هذا غير صحيح يا مارتين. أنت تعرف ماذا حدث بعد المقالة، لقد هددوك أنت نفسك بالضرب. كيف تقول هذا الكلام؟ كانوا سيقضون تماماً على إرنست، ويبيحون دمه. لم يكن أحد سيتدخل. كلهم صمتوا".

"هل دافع عن نفسه؟ هل قام زوجك بأي خطوات؟"

"ماذا على سبيل المثال؟ لقد حدث كل شيء بسرعة، ثم فجأة انتهى الأمر، فجأة لم يعد الموضوع يهم أحداً. أصبح المهم هو المال والعمل والشقة وكارت الائتمان، وأن يفهم المرء في القوانين وملء الاستمارات. غير ذلك لا يهم أحداً، على الإطلاق. هذا ما أتى على البقية الباقية فيه. هذا وتينو".

ثم راحت ريناتا موبرر تتمخط.

"أتريدين جرعة ماء؟"، سألتها د. هولتشيك. "وأنت؟"

دون أن تضع القلم الجاف من يدها تفتح الزجاجة باليد اليسرى وتملأ الكوبين بالتناوب إلى أن فرغت الزجاجة.

"شكرًا"، قالت رناتا موير. "بعد فصلى من شركة تكستيما اشتغلت عند رجل كان حتى النهاية ... من الأفضل ألا أقول ماذا كان ... كان من كوادر الحزب الاشتراكى، والآن يمتلك مكتبًا للاستشارات الضرائبية والمحاسبات. لا يملك المكتب وحده، لكنه الرئيس، إنه ذكى، يركع حتى يلمس جبينه الأرض كى لا يفوّت أصغر الفرص، مبدؤه المثل القائل: القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود! السيد نويجباور كان يتجاهل الأمر عندما يتحدثون عن المحسوبية لأنه وظفنى - فأنا فى الأصل متخصصة إحصائيات، وظفنى وتجاهل كل شىء، إلى أن بدأ إرنست يبتزه. أعد إرنست رسالةً باسمه، وباسم نويجباور وآخرين، لقد كان يعرفهم كلهم. طلب منهم جميعًا أن يوقعوا، ويبعثوا بنسخة إلى كل صحيفة. عرفت بالأمر من نويجباور، لم أفهم فى البداية أى شىء يريده نويجباور منى، أى شىء يتوجب على أن أمنع حدوثه؟ كان الأمر محرجًا لأنه كان قد عرض علينا بيته الريفى فى منطقة جبال الهارتس، لنقضى فيه الصيف كله، مجانًا. فكرت أنها فرصة كى يخرج إرنست، فهو لم يكن يغادر المنزل. هناك كان يتبعنى كظلى. سافرنا معًا. كان علىّ الرجوع ، وفى اليوم التالى كان يقف أمام باب الشقة، صارخًا ومشتكيًا ومدعيًا أننى أهنته وأردت إبعاده عنى. بعد ذلك فسخ عقد استئجار الحديقة الذى كان مكتوبًا باسمه. علينا أن نترك الطبيعة فى حالها، وألا نتدخل فى أمرها، هكذا قال. أخذت أبكى وأنوح، من أجل الفراولة، كانت الحديقة واحة، عندئذ تأكدت أن برجًا من أبراج عقله طار. كنت أعتقد أن الزمن كفيل بشفاء الجروح."

"اسمحي لي أن أقاطعك"، قالت د. هولتشيك. "ألم تنشر الصحف آنذاك شيئًا عن الموضوع؟"

"ولماذا ينشرون؟ عندما اغتنى آخر رؤساء منظمة الشبيبة الحرة - لأنه كان يمرر المناقصات إلى شركات المقاولات - لم يحدث أي شيء، لأنه يعرف حتى الشيطان، كلهم رجال أعمال ناجحون يوفرون فرص عمل للشعب، ويجلبون إعلانات للصحف، فلماذا تفتح الصحف فمها؟ ما فات مات!"

وبعد برهة واصلت رناتا مويرر كلامها قائلة: "نويجباور كان يريد أن يعرف إذا كنت أنوي أن أرفع قضية في حالة فصلي من العمل لأسباب إدارية. هكذا حصلت على الأقل على تعويض البطالة. إرنست استقبلني في المنزل بكأس شمبانيا. في تلك اللحظة أردت طلب الطلاق. بعد شهرين وجدت وظيفة أخرى، بالقرب من شتوتجارت. إرنست وصفني بـ "الخائنة". لم يقصد ذلك بالمعنى السياسي. كان يتصل يوميًا، مرتين، ثلاث مرات - ٦٠٠ مارك، ٧٠٠ مارك فاتورة التليفون في الشهر، مجنون تمامًا، مع أنه كان يستطيع الحصول على عمل. جمعية "مساعدة التلاميذ" الخاصة كانت تريد أن توظفه. دروسه كانت دائمًا تمتاز بالجودة والكفاءة، ولكنه اعتبر كتابة الرسائل للبحث عن عمل أمرًا منافيًا لكرامته. فجأة أصبح لا يتكلم إلا عن الكرامة والكبرياء. كل استمارات مكتب الشئون الاجتماعية كنت أنا التي أملؤها، كل عام. إنهم يجعلونك تتعرين أمامهم، قبل أن يدفعوا لك معونة اجتماعية! كانوا مثلاً يريدون أن يعرفوا: كم يكسب والده - الذي مات في الحرب والذي لم يره في حياته أبدًا! إنهم في النهاية يعرفون عنك أكثر من المخابرات".

"ماما"، تدخل مارتين، "فقط لأن مكاتبهم الآن في المبنى الذى كان مقر ..."

"آه، هذا سبب إضافي. إنهم يجلسون الآن في فيلا الشتازى. ثم أمراضه، الروماتيزم، الزن في الأذن، الحمى. عندما وقف أمام الطبيب راح ينظر إليّ من غير كلام، نظرة رجل جريح يتألم. سرطان، هكذا فكرت، أو مرض كهذا. طبيعى جدًا أن هواجسه أكلته، ثم قال إرنست: الصحة تمام. حتى الرئة. شعر بالإهانة عندما أردت أن أرسله إلي طبيب الأمراض العصبية." حملقت رناتا مويرر في المنديل الورقى بين يديها. "نلعب الشطرنج معًا"، قال مارتين، "مرة في الإسبوع. لا يريد إلا لعب الشطرنج، لا شيء غير ذلك".

"بدون أن تتحدثوا؟"

"عن التوافه. لا أريد أن أقلب عليه المواجع، ولا أن يقلب هو علي مواجعي، مع أنه ليس عندى مواجع. فقط عندما أردت أن أتعمد. كان التعميد والكنيسة بالنسبة له شيئًا مثل "الحزب الديمقراطي المسيحي"، وكأني سأنضم إلي الحزب – إلي "الذين دخلوا التاريخ منتصرين"، علي حد تعبيره".

"لم تسأله أبدًا؟"

"عن أي شيء؟"

"أي ذنب ارتكبه؟"، سألت رناتا مويرر. "على الدرج في مكتب العمل، حيث شدوا شبكة – هناك شال أحمر، حتى يراه كل شخص

ولا يحاول مجرد محاولة أن يقدم على الانتحار- هناك تقابلا بالصدفة، هو وشوبرت. كنت أرافق إرنست كثيراً عندما كان يتحتم عليه أن يذهب إلى مكتب العمل. إلى مكتب الشئون الاجتماعية لم يكن يذهب أبداً وحده، كان لابد أن أذهب معه".

"زوجك تحدث مع شوبرت؟"

"لم يكن ذلك ممكنًا. شوبرت هرب. كان يريد أن يعترفوا به "ملاحقًا سياسيًا"، وأن يمنحوه لقبًا وشهادة رسمية، لم نكن نعلم ذلك. لم يعد يريد التحدث مع أحد. كان المرء يستغرب عندما يقابل أشخاصاً لم يكن يتوقع أن يقابلهم فى مكتب العمل. عندما أسمع كلمة "الشبكة الاجتماعية" أفكر دائمًا فى سلم مكتب العمل".

"الشبكة المعلقة"، يقول مارتين.

"بعد ذلك ذهبنا إلى "فولكس شتات" لنشرب قهوة ونأكل جاتوه بالفراولة أو بالتوت. "فولكس شتات" كان هو الترف الوحيد الذى تبقى لنا، وبعدها نعود مباشرة إلى المنزل، ورغم ذلك بدأ إرنست يكتب مواعيده فى مفكرة. كان يريد أن يعرف – قبلها بشهور – إذا كان لدينا موعد. كنت أجلس معه كما أجلس مع طفل يريد أن يشرح لى جدول الحصص. إذا سألته عن شىء كان يحضر مفكرته ثم ينظر فيها ويقول: "ماشى"، ثم بعد ذلك يكتب الساعة والعنوان والاسم كاملاً، حتى لو كان سيذهب إلى مارتين. مرة سألت إرنست إذا كان هناك شىء يتذكره بسرور بعد ٨٩ ، تطلع فىّ قائلاً: فى حياتى لم أتذكر بسرور شيئًا

عشته وحدى - هكذا، كأنه لم يكن لى وللأطفال وجود، كأنه أمضى حياته وحيداً".

"هل يحب أن يتفرج على التليفزيون ؟ هل يقرأ ، أو يتمشى ؟ أو ماذا يفعل؟"

"فى السابق كان يحب أن يقرأ للأطفال من قصة فلادا، مثلاً "حكايات الأطفال الأشقياء"، أو "فريدولين، الضفدع الوقح". بمناسبة عيد ميلاده أهديته ببغاءين، كان ينوى أن يعلمهما الكلام. ربما كانا أكبر عمراً من أن يستطيعا التعلم، لكنه أخذ ذلك على محمل شخصى. إنه يأخذ عموماً كل شىء على محمل شخصى. مرة لم تتفتح زهور التيوليب التى أحضرتها معى، عندئذ اشتريت سرًّا زهوراً جديدة حتى لا يظن أن الخطأ خطؤه، كما أنه أصبح حنبليـًا، ما نكاد نفرغ من تناول العشاء حتى يعد المائدة للفطار، ويا ويلى إذا لم أغسل على الفور الكوب الذى أستعمله، ثم الأصوات التى يصدرها عند المضغ ... أو من أنفه. فى السابق لم يكن كذلك ... ثم ترميم البيت، ربما كان الترميم هو الذى أتى على البقية الباقية لديه، وضعنا ملاءات على كل شىء. كانت الغرف تبدو مثل مكتب لنين. أطلق إرنست النكات على ذلك، فى الأيام الأولى كان يقف فى السكة فحسب، وعندما مر الوقت الذى قدّره للانتهاء من أعمال الترميم، بدأ يشتكى. كان إرنست يطلب من الصنايعية أن يخلعوا أحذيتهم، وكل خمس دقائق يمسح وراءهم، فى نهاية الأمر لم يعد يفتح باب الشقة لأحد أبداً، كانوا قد انتهوا من كل شىء إلا ثلاثة شبابيك عندنا. كان على أن آخذ إجازة كى يستطيعوا الدخول إلى شقتنا. بعد

الترميم أصبح يدعى أن المستأجرين الجدد يستخدمون مساحة الأقدام أمام شقتنا. كان يقبع أمام العين السحرية ويفتح الباب فجأة بمجرد مرور أحد. كان الأطفال يرمون الزبالة أو الفئران الميتة عبر الشبابيك أو على البلكونة - كانوا يخافون منه".

رن التليفون. كررت د. هوليتشك عدة مرات: "نعم، طيب"، ثم قالت بعد أن وضعت السماعة: "أنا آسفة".

"الناس الساكنون فوقنا ليسوا أشراراً"، قالت رناتا مويرر، "هم فقط طوال الوقت في الشقة، شباب. مرة دعوني للدخول. لم تكن الموسيقى عالية، لكن الأصوات العميقة، "الباص"، توحي بذلك. إذا وضع أحدنا يده على مائدة الطعام فإن الآخرين يشعرون بذلك. إرنست كان يجلس طوال النهار في حجرة، وينفعل كالحيوان الهائج". ثم يفيض الكيل. المرء ليس بحاجة إلى أن يكون عرافًا لفهم ذلك".

"أنا لا أعرف إلا تقرير الشرطة"، قالت د. هوليتشك. "اقتحموا الشقة. خمسة رجال يرتدون صدريات واقية من الرصاص إلى آخره، اقتحام بكل معنى الكلمة".

"لأنهم لا يستطيعون أن يفرقوا بين مسدس الغاز والمسدس الحقيقي"، قال مارتين.

"ألم يتصل بك أحد؟"

"بعد ذلك"، قال مارتين.

"وأنت؟"

رِناتا مويرر تهز رأسها نافية.

"لم تتصل الشرطة بكِ؟"

"لا"، أجابت رِناتا مويرر.

"ماذا كتبوا فيه، في التقرير؟"، سأل مارتين.

"أطلق في الدرج طلقة من مسدس الغاز، ثم راح يهدد أنه سوف يدافع عن راحة باله بالقـوة إذا لزم الأمـر، ثم تقوقع في ركن"، قالت د. هوليتشك. "لم يقاوم لحسن الحظ."

"لا أستطيع أن أتنازل عن كل شيء من أجله، لابد أن أعمل على الأقل ٧ سنوات، وربما ١٢، إلى أن يكون من حقي الحصول على معاش. إذا تركت عملي في شتوتجارت فمعنى ذلك أنني أقول لإرنست: عندك حق. لا أستطيع أن أقدم استقالتي من أجله. هذا بالضبط ما يريده. لابد أن يلاحظ أن الأمور لا يمكن أن تسير هكذا. ليس هناك بني آدم واحد يتصرف مثله، ولا بني آدم واحـد. أنا زوجتـه، لا مربيـة أطفـال. إذا لم يستطع أن يفهم هذا فسأطلب الطلاق."

"أنت قلت، يا مدام رِناتا، إنك تفهمينه؟"

"طبعًا أفهمه. من أجل كل ذلك أفهمه، ولكن لابد للحياة أن تسير."

"يعني"، قالت د. هوليتشك، "عندما يخرج من هنا ..."

"متى؟"، سألت رِناتا مويرر.

... عندئذٍ سيعيش وحده خمسة أيام فى الأسبوع أثناء عملى، على الأقل فى البداية؟"

رناتا مويرر تحملق من جديد فى المنديل الورقى دون أن تنطق.

"طيب"، قالت د. هوليتشك.

"يمكنه أن يأتى إلىّ"، قال مارتين.

"لا، لا يا مارتين. من الغباء أن نفعل هذا. صدقنى، لن تساعده بهذه الطريقة، لابد أن تجد عملاً. ليس من المعقول أن تقبع فى المنزل لتحرس إرنست، كما أنه لن يوافق، وإذا حدث ذلك، فلن يجىء تينو لزيارتك أبداً."

"كثيرون يعيشون وحدهم"، قالت د. هوليتشك. "ليس معنى هذا أن لا أحد يهتم بهم، لن تتركوه وحده".

"لم أقل سوى إن إرنست يمكنه أن يعيش معى إذا أراد".

"طيب"، قالت د. هوليتشك وهى وتكتب.

"مارتين ..."

"كل شىء هنا"، قال مشيراً إلى الشنطة. "صابون، ملابس، بُرنس الحمام، ومحفظته، وأشياء أخرى من هذا القبيل".

"لا أحزمة ولا مقص ولا مبرد ولا مطواه ولا موس حلاقة؟

"هو وحده فى الغرفة؟"

"لا."

"لا يجب أن يعرف أننى كنت هنا. الزهور أحضرها مارتين."
التليفون يرن. "لن تقولى له إننى كنت هنا؟"

"لن أفعل إذا كنت لا تريدين".

"ومتى يمكن التحدث معه؟"، سأل مارتين، واضعًا ماكينة الحلاقة وكيساً به مستلزمات السفر على المائدة.

"ربما غداً، أو بعد غد، ولكن اتصلا بى بالتليفون قبل ذلك".

مارتين يومئ. كرمش ورق الزهور الذى كان بجواره. ما زال التليفون يرن.

لم ينهض مارتين ولا أمه، لذا قالت د. هوليتشك: "طيب"، وقامت. شدت ستارة كانت تغطى حوضًا، وغسلت يديها، وجففتهما طويلاً ثم رشت بعضاً من رذاذ عطر على حلمة أذنيها.

على أرضية الممر كان حذاء مارتين يصدر صريراً، أما خطوات المرأتين فلم تكن تُسمع. حول الموائد الصغيرة جلس مرضى يرتدون ملابس عادية، وفى أقدامهم أحذية منزلية أو رياضية، بينهم ممرض بمعطف أبيض يلعب معهم "السلم والثعبان". بكتفها دفعت د. هوليتشك باب القسم وبقيت واقفة أمامه.

"إلى اللقاء قريباً"، قالت مُفسحةً الطريق أمامهما.

"شكراً"، قالت رناتا مويرر مادةً يدها. صافحتها د. هوليتشك أولاً، ثم صافحت مارتين، وقالت: "على أن أطلع إلى فوق." وأسرعت ترتقى

الدرج ويداها فى جيب المعطف. تردد صدى كعبها لدى اصطدامه بالدرجات الحجرية، انغلق باب القسم بتكة خفيفة.

"لم يكن من الضرورى أن تقول ذلك يا مارتين، حكاية "الذين دخلوا التاريخ منتصرين". زوجها نائب فى برلمان الولاية ..."

جنبًا إلى جنب سارا فى حديقة المستشفى فى اتجاه المدخل الرئيسى.

"المرضى هنا إما عواجيز، أو شباب"، قالت رِناتا مويرر.

"الببغاءان يتحدثان طوال اليوم"، قال مارتين. "صباح الخير يا رِناتا - بالهناء والشفاء يا رِناتا."

"بجد؟"

"صباح الخير، تصبحى على خير، أحلام سعيدة. نعمل إيه النهارده؟ رِناتا، رِناتا، رِناتا. طوال النهار على هذا المنوال."

"غريبة"، قالت ثم ظلت واقفة. "وغير ذلك؟" أخرجت من كيس نقودها قرطًا أحمر فى لون الياقوت، وثبتته فى حلمة أذنها الملتهبة.

"لابد أن تسمعيهما بنفسك، قال مارتين الذى كان قد كور ورق الزهور حتى أضحى فى حجم البيضة. مرت بهما سيدة تحمل شنطة مخططة بالأحمر والأسود.

قال مارتين : "الأتوبيس سيجىء فى السادسة إلا الربع، ليس من الضرورى أن تمشى بسرعة." رمى بالكرة الورقية عاليًا ثم تلقفها باليد الأخرى.

"هل تحتقرني؟"، سألته دون أن تنظر إليه. "أصبحت قاسيًا – بسبب .. ؟" راحت تعبث بخصلة من شعرها.

"لأنك لونتها؟"

""لأنني لم أحك لـ د. هوليتشك عن ... بسبب ... الحلق منه."

"لائق عليك. ما اسم العاشق المجهول؟"

"من؟ – هوبرتوس؟"

"هل تريدين فعلاً طلب الطلاق؟"

لدى دائمًا الشعور بأنى أفعل شيئًا خاطئًا. عندما تراقبنى هكذا أفقد الثقة فى نفسى. هل تعتقد أننى أثير السخرية؟"

"لا تجرى. الأتوبيس لن يجيء قبل أربعين دقيقة."

"مارتين؟" تتأبط ذراعه وتحاول أن تسير على خطوته. "أريد أن أسألك شيئًا يا مارتين." ونظرت إليه. "هل أنت .. من مثليى الجنس؟ لا تضحك! أعتقد أن السؤال مسموح. لماذا لا تبحث عن امرأة؟ أنت الرجل الوحيد الذى أعرفه الذى لا يحاول حتى، ودانى ..."

"دانى؟"

"لقد اعتقدت فعلاً أنها هربت من إنجار هذا .. لم تفعل ذلك إلا لتسكن عندك. أنا متأكدة تمامًا، ولهذا قصت شعرها، لأنها ظنت أن هذا سيعجبك، أيضًا هذه المرأة فى المعطف الشفاف، هوليتشك، لم تنزل

عينيها عنك، هل لاحظت كيف احمر وجهها وعيناها، عندما حكيت عن حادثة أندريا؟ ألم تلاحظ ذلك؟ ليس من الطبيعى أن شخصًا مثلك ... أخوك بِت مختلف عنك فى هذه النقطة."

ضحك مارتين. ضغطت على ذراعه، وقالت: "بت يحاول على الأقل، ولكنك لا تفعل شيئًا على الإطلاق، مع أنه ليس هناك أجمل من الحب، على الإطلاق!"

"أعرف."

"هل تعتبرنى عبيطة؟ لا أتحمل هذا الحلق المعدنى. يردد دائمًا: الحب نعمة من السماء. هل توافق على هذا الرأى، هه؟"

"من ... آه ..."

"اترك إرنست حيث هو يا مارتين. أنت لا تعرف العبء الذى ستلقيه على كاهلك، أية امرأة سترضى بك عندئذ؟ من يقيد نفسه هكذا؟ توقف قليلاً عن الضحك!" تأبطت ذراعه قائلة: "وهل سينام فى حجرة تينو، أم أين؟ لسنا قبيلة من العصر الحجرى." تتكئ برأسها على كتف مارتين.

"ربما أتزوج عن قريب"، قال مارتين عندما خرجا من البوابة.

"هل هذه نكتة؟"

"لا. ممكن نجلس هناك." وأشار مارتين إلى محطة الأتوبيس ذات المظلة على الجانب الآخر من المدخل. يعبران الشارع.

"يعنى ..."، قالت رِناتا مويرر وشدته بعيداً.

"إلى أين؟"

تركت ذراعه، ظل واقفًا عند المحطة، ورجعت هى إلى الشارع.

"أعتقد أن الأتوبيس لن يأتى إلا قبل ...."

"ماما!"، صاح مارتين عندما شرعت تشير بذراع مفرودة، فرملت السيارة الأودى الحمراء ذات الأربعة أبواب، وقبل أن تتوقف زادت من سرعتها ومرقت أمامهما.

"دعكِ من هذا، سننتظر." انحنى مارتين لالتقاط الكرة الورقية التى وقعت أمام قدميه.

"أتراهن؟"، صاحت رِناتا مويرر دون الالتفات إلى ابنها. "تراهن أن السيارة القادمة ستتوقف؟" سارت ببطء إلى الأمام، ملوحة بذراعها، مثبتةً عينيها على سيارة زرقاء قادمة، ثم همست: "من فضلك، من فضلك!"

الفصل الثالث والعشرون

نهاية الإرسال

كريستيان باير يقسم إن هَنّى فهمت خططه خطأ.
تحول فجائى. رجل أعمال معذب، وموظف فاسد.
فقط لعدم وجود الإيصالات. أغمض عينيك –
ربما تستمتع بذلك. رحلة بالقطار فى هدوء الليل.

"ليس صحيحًا"، قال باير. "هذا ببساطة ليس صحيحًا، هنى، من فضلك!" ألقى بمعطفه على الأريكة.

"هنى، كفى بكاء من فضلك. لا داعى لذلك، إطلاقًا." خلع الجاكتة واستدار إليها. ظلت واقفة بمعطفها الأسود عند باب غرفة الجلوس، قدماها ملتصقتان، وإحدى يديها أمام فمها.

"لا أستطيع سوى القول إن هذا ليس صحيحاً، وإنك فهمتِنى خطأ تماماً، هذا هو كل شيء. وخلاص، الموضوع انتهى".

ما زالت شنطة يدها تتدلى من مرفقها الأيسر.

"غير صحيح! كم مرة ينبغي عليّ أن أقول لك هذا لتصدقيني. المفروض أن أكون أنا الغاضب، ينبغي على أنا أن أحاسبك لأنك تتهمينني بذلك، هكذا بالعكس. لماذا لا تصدقينني؟"

رغم أن هني تضغط بيدها على فمها، فإن نحيبها يعلو أكثر فأكثر. رجعت عدة خطوات إلى الوراء، واستدارت فوقعت شنطتها على السجادة في المدخل، هرعت إلى الحمام وركلت الباب ثم أقفلته بالمفتاح.

سمع باير خرير الماء المنساب في الحوض، ثم صوت السيفون. التقط شنطة يدها، ثم أزاح جانبًا التليفون والأباجورة الصغيرة على المنضدة قصيرة القوائم، ووضع الشنطة.

أحضر السجائر والكبريت من الجاكتة. قبل أن يجلس أزاح بإصبعه المنفضة على المنضدة الزجاجية مقربًا إياها ناحية الأريكة.

تساءل باير أي كرافتة يرتدي اليوم. إنه لا يتذكر أحيانًا اسمًا أو يومًا من أيام الأسبوع السابق. وكأن شخصًا آخر يجلس مكانه في غرفة رئيس التحرير. تحسست أصابعه الربطة، ثم مرت على القماش حتى نهاية الكرافتة ورفعها قليلاً، لم يكن يحب الكرافتة الزرقاء ذات المكعبات الصفراء، لكنه لا يستطيع أن يلبس كل يوم نفس الكرافتة.

راح يفكر في هني، في فكها المرتعش وصرختها التي بدأت مثل تنهيدة، أو آهة. دق على العلبة المارلبورو لايتس، أمسك بعود الكبريت عاليًا، مرتكزًا بكوعه على ركبته شرع يدخن.

تناول باير جهاز التحكم عن بعد. مؤشرا داو جونز وداكس ارتفعا مجدداً. كل دولار أصبح الآن أغلى بنحو ٤٠ فنكًا عما دفعه أثناء رحلة نيويورك. حشر السيجارة في تجويف بالمنفضة ثم نهض. قرفص أمام باب الحمام ناظراً عبر ثقب الباب. لم ير غير بقعة مضاءة، ولا شيء سواها، لا شيء يتحرك.

"هني"، نادى عليها. "هني؟" ما زال الماء ينساب في الحوض. لابد أنها فتحت الصنبور عن آخره، انتظر برأس منكس ثم عاد إلى الأريكة، سحب نفسًا آخر من السيجارة ثم أطفأها واتكأ إلى الوراء وذراعاه مفرودتان بينما استند رأسه على حافة مسند الظهر، ارتجف بسبب برودة الكسوة الجلدية على قفاه، بل إن قشعريرة انتابت فخذيه.

حملق باير في سقف الغرفة والتذكارات على الرف العلوى من الفترينة. تأمل طويلاً الدن الخشبى منتفخ البطن الذى اقتناه في بلوديو، وحاول أن يستكمل في خياله نقشات الزهور المحفورة بدوائر متموجة. بجانبه جرة من رومانيا ملونة بالأزرق والأبيض، كان يجب أن توضع في المطبخ، إلا أنه لم يجد لها مكاناً على الدولاب المعلق على الحائط هناك. الشمعدان النحاسى تلقاه هدية من أولاد الجارة بعد وفاتها – كتعبير عن الشكر على ذهابه ليلاً بالسيارة إلى صيدلية الإسعاف. عندما استلم الشمعدان كانت شموعه السبع الحمراء قد احترقت حتى منتصفها ومغطاة بطبقة من الغبار. إلى اليمين مزهرية بيضاء كروية الشكل على حافتها فانوس رقيق من الورق الملون، ثم كأس بيرة كبير بغطاء وقاعدة من القصدير، وأخيراً مكبر الصوت الأيمن. أغمض باير عينيه. بكعبه

خلع حـذاءه الأيسـر، كـان يريد أن يخلع الأيمن أيضًـا لكنه خـشى أن يتسخ جوربه عند الكعب.

فزع باير، انفتح باب الحمام، لم يعرف كم من الوقت ساد الهدوء. تحمل هَنّى الآن معطفها على ذراعها، وبإصبعين الحذاء. بجانب المدخل فتحت بإبهامها الدرج الأسفل ووضعت داخله الحذاء، ثم راحت بعناية تفرد معطفها على إحدى الشماعات.

"هَنّى"، نادى باير. وقف على عتبة باب غرفة الجلوس ويده ما زالت تمسك بجهاز التحكم عن بعد، لم تتحرك سوى أصابع قدمه اليسرى فى الجورب الأزرق. أقبلت هَنّى ناحيته ووقفت أمامه، احتضنها هامسًا: "حبيبتى. روحى وقلبى." استندت عليه حتى أنه وجد نفسه يرجع خطوة إلى الوراء. كان التليفزيون قد انطفأ.

"طبعًا لابد أن يصيبنا ما أصاب الآخرين"، قالت هَنّى. "ظللنا حتى الآن بعيدين عن الضرر، هذا هو كل شىء. كنا ببساطة محظوظين، محظوظين جدًّا ..." ضمها إليه.

"الحقيقة، الحظ كان معنا طوال الوقت"، قالت هَنّى عندما تمالكت نفسها واستطاعت أن تتحدث. "اعتقدنا أن هذا لم يعد له وجود، على الأقل هنا، اعتقدنا أن هذا أمر قد زال بلا رجعة، كالإقطاع، ولكن الحقيقة هى أننا كنا بعيدين عن الخطر".

"لا تأخذى فى بالك"، قال باير وقبّل جبهتها. سار إلى الأريكة. جهاز التحكم عن بعد ملقى الآن على السجادة.

"تعالى." وأمسك بمعصم هَنّى. تركته يُجلسها بالجنب على حجره.

"من الجنون ألا تفعل ذلك. ليس هناك وجه للمقارنة." وأحاطت بعنقه.

"اهدئى ولا تتكلمى!"

"لا أعرف لماذا انفعلتُ هكذا. إذا فتحت التليفزيون تجد كل مساء حكاية كهذه، فعلاً، ربما ليس كل مساء، ولكن تقريبًا كل مساء."

"ماذا تقولين؟ اهدئى!" رمق باير أظفار قدمى هَنّى المطلية بالأبيض. من الإصبع الأوسط فى قدمها اليمنى برز كالو صغير.

"رأيت مرة فيلمًا رائعًا عن ذلك، فيلما أمريكيًا، فى عز أيام ألمانيا الشرقية. رجل وامرأة، طالبان فى سن الشباب، كانا يضاربان فى البورصة على لحم الخنازير. فى البداية كان الفشل بالطبع من نصيبهم. وجد نفسه مرغمًا على العمل سائق تاكسى، كانت هى فى المنزل واعتقدت أن عليها أن تفعل شيئًا، لهذا بدأت تفعل ذلك. المضحك أنه أوصل إليها ذات مرة زبونًا، ثم قال لنفسه، ما دمت هنا فلأرى ماذا تفعل زوجتى! كان هذا هو المضحك فى الأمر، وفى نهاية الفيلم اكتشفا أن المضاربة على لحم الخنزير كانت هى الشىء الصحيح، فيلم كوميدى يفطس من الضحك." اتكأت جانبًا ثم شدت إلى أسفل خيطًا متدليًا من الأبجورة، فأضاءتها. "أتعرف فى أى شىء أفكر عندما تسوء حالتى؟ عندما ذهبنا قبل عيد الميلاد إلى أحد المتاجر الكبيرة، هناك جلس شحرور على صناديق الخضار، ثم جاء هؤلاء الرجال بالعصا التى تنتهى

بشبكة وحاولوا اصطياده." مرت بأصابع منفرجة على رأسه، فأوقفت شعره. "قلت لنفسي: لماذا لا يفعل أحد شيئًا؟ سيطاردون الشحرور المسكين إلى أن يموت من الرعب أو الإنهاك! تركنا عربة التسوق، وذهبت أنتَ إلى مكتب المدير الذى لم يكن يعرف على الإطلاق ما يحدث، وعندما سألك عما ينبغي عمله، قلت له: الأمر بسيط – أطفئوا كل الأنوار ما عدا نور المدخل، وافتحوا الأبواب!"

"لكنه لم يفعل شيئًا." مسح باير على خصلة من شعرها خلف الأذن.

"لا أعرف أحداً يدق باب مدير متجر من أجل طائر، لهذا أحبك. وعندما أتخيل أن شغلك كله قد أصبح الآن هباءً ... هل تعرف متى كانت آخر مرة جلست فى البيت وقضيت أمسية جميلة؟ أنت تقريبًا نسيت مثل هذه الأشياء."

"سيتغير الوضع الآن يا هَنّى. صدقينى. لا أقول هذا على سبيل التهدئة".

"هل تعرف فى أى شىء فكرت؟ من لديه سلطة، يبتز الآخرين. شخص مثل هذا يرى كل ما يحدث أمرًا عاديًا تمامًا."

ثبت خصلةَ شعرها خلف أذنها، وباليد الأخرى راح يمسِّد فخذها.

ألقت هَنّى بالكرافتة فوق كتفه، ثم ضغطت بالتعاقب على أزرار قميصه. "هو يضع إمضاءه، وبعد أن يمضى، ينصرف، أليس كذلك؟ عندئذٍ ينتهى الأمر. عندئذٍ ينتهى الأمر إلى الأبد، أليس كذلك؟"

"انسى ذلك يا هَنّى، انسى الموضوع كله".

"هو وحده. هو وحده، أليس كذلك؟"

"طبعًا".

"لا أحد غيره يجب أن يوقع؟"

"لا أحد غيره".

"أترى! عندئذٍ سيكون هـــو فى أيدينـــا، فى الحـقـيقــة إنــه فى أيدينا نحن".

"هَنّى، ليـس الذنـب ذنبى، لو لم يتـذكر حسـابات عـام ٩١ . الآن لم يعد ذلك مسموحًا له. أنا وثقت فى الناس، لأننى لا أفهم شيئًا فى الحسابات، أتفهمين؟ لم يحدث شىء، شىء مخالف للقانون، لم يحدث اختلاس، ولكن لا أحد يصدق. فى هذه الفوضى لا يصدقنى أحد، أن كل شىء كان على ما يرام. لا يصدقنى أحد لأن الإيصالات غير موجودة. الأدلة ضاعت، هذا هو كل شىء."

"أعرف. لست بحاجة لتبرير موقفك."

"إنه الشعور بالعجز يا هَنّى. لم يكن لى أن أبدأ بالأمر، هذا هو الخطأ الذى ارتكبته، أننى بدأت بالأمر. ما كان لى أبدًا أن أفعل شيئًا كهذا. لقد عرضت عليه مالاً أيضًا."

"اللاعبون لابد أن يلعبوا لعبتهم"، قالت. "أرى كل ما تفعله من أجلى. أنت تفعل كل شىء من أجلنا. من غيرك ..."

"هَنّى"، قال واتكأ إلى الوراء. شعر باير أن عينيه تدمعان.

"خلاص"، قالت. "لقد شرحت لى ذلك من قبل. قلت لى إنك تشعر كأنك ذبابة، ذبابة بين الشباك والستارة. آنذاك اعتبرت التشبيه غريباً. قلتَ إن الذبابة لن تنقذها سوى الصدفة، لن ينقذها سوى شىء مخالف لمنطقها، لأن منطقها يقول لها إنها تستطيع المرور من الزجاج، ولهذا لا تتوقف، حتى تموت. هل تذكر؟"

"نعم، لن يتوقف الأمر، سيكون بمقدور الجميع أن يتفرجوا عليك."

"مرة أردت أن أفزع ذبابة، وتعجبت أنها لا تتحرك، لا أعرف لماذا يرقد الذباب الميت دائماً على ظهره. تلك الذبابة كانت راقدة على بطنها، يعنى كانت واقفة تستند على قرون استشعارها، عندئذ تذكرت تشبيهك."

"أود أن أطير معك يا هَنّى، إلى أى مكان دافئ. أسبوع على الأقل. هل نفعل ذلك؟" اعتدل فى جلسته.

"متى سيعود؟"

"إنه هنا، عاد يوم الاثنين - سيظل حتى الجمعة، فندق بارك، غرفة ٢١٢ ".

"ومتى نطير؟"

"غداً، يوم الجمعة، يوم السبت، نذهب إلى المطار، ونأخذ الرحلة التى نحصل عليها!"

"يوم السبت؟"

"إذا كنت تريدين." داعب عنقها.

"نعم"، قالت هنّى. "عندما ينتهى الموضوع، سأغمض عينى وأفكر فيك." استقامت فى جلستها.

"ربما أستمتع بالأمر – إذا فكرت فيك أثناء ذلك".

ابتسمت وانزلقت من على حجره. "غرفة ٢١٢؟"

"نعم"، قال، "فندق بارك".

"وما اسمه؟"

"غرفة ٢١٢ ".

"سأعود حالاً"، قالت وهى تشد خيط الأباجورة مرة أخرى، وعادت إلى الحمام.

انحنى باير وخلع حذاءه الأيمن، والتقط جهاز التحكم عن بعد. بلا صوت راح يتفرج على فرقة تعزف آلات النفخ. يرتدى الرجال بنطلونات تصل إلى تحت الركبة، أما الجمهور فيجلس إلى موائد طويلة، وعندما تمر الكاميرا يرفعون كئوس البيرة فى الهواء ويهتفون: "فى صحتك!" امرأتان بعيون واسعة تتبادلان الابتسامات أثناء الغناء.

سار باير إلى الدولاب وأمسك بزجاجة البراندى بين إبهامه وسبابته، ثم انتشل بالخنصر كأس الكونياك. أثناء السير ملأ لنفسه كأساً، وتجرعها مرة واحدة، ثم زفر بصوت عالٍ، أحضر كأساً أخرى وملأ كلتيهما حتى المنتصف، بعد ذلك حمل حذاءه ومعطفه إلى ركن تعليق الملابس عند المدخل.

عندما عاد إلى غرفة الجلوس فك عقدة الكرافتة قليلاً، وسحبها من

بين رأسه. خلع البنطلون وثناه ووضعه فوق مسند الكرسى. أخفى الجوارب خلف أرجل البنطلون. علق القميص والفانلة الداخلية على المسند.

ألقى باير نظرة قصيرة على الكلسون، ثم قلعه. بقدمه اليمنى طوحه عاليًا فى اتجاهه كأنه كرة، ثم خبأه بين القميص والفانلة. أطفأ النور فى حجرة الجلوس ووضع ساعته على المائدة.

برودة الكسوة الجلدية هيجته. تأمل عضوه فى الضوء المتغير الذى كان ينفذ من الشباك، وبحذر تحسس خصيتيه.

راح باير ينتقل من قناة إلى أخرى حتى عاد إلى الموسيقى الشعبية، فأعاد الكرة، على قناة "ألمانيا الوسطى" مباراة كرة قدم بالأبيض والأسود، شغل زر الصوت، ولاحظ كيف تتكاثر خطوط درجة الصوت الخضراء، لكنه لم يسمع شيئًا. أخذ سيجارة، إلا أنه لم يشعلها، بل طوح يده ودحرجها على المائدة الزجاجية.

"رولاند دوكه"، قال شخص بصوت عال جدًا، "اليوم كعادته شعلة نشاط." الآن سمع باير أيضًا الأصوات الأخرى فى الاستاد. شورتات اللاعبين كانت قصيرة وضيقة جدًا، أما الجمهور فلا يكاد يُرى فى الظلام. "عشاق الرياضة أمام شاشة التليفزيون، نقترب الآن هنا فى الاستاد الرئيسى من نهاية الشوط الأول." تعرف باير على صوت هاينتس فلوريان أورتل. بحروف بيضاء على الحافة السفلية من الشاشة قرأ: "ألمانيا الشرقية وإنجلترا، صفر / صفر". من فوق الكرسى تناول

باير البطانية التى تتلفح بها هنّى مساءً أمام الشاشة، ونفضها، ثم ألقى بها على كتفه وهو راقد.

رن جرس التليفون، ركع باير على الأريكة، في يده اليمنى طرف البطانية وفي اليسرى السماعة. "باير، مساء الخير"، قال بشكل آلى. فى الخلفية يسمع موسيقى جيتار. قال مرة أخرى: "آلو؟"، إلا أن السماعة وضعت على الطرف الآخر. كان قد نام حوالى ساعتين.

على الشاشة كان يورجن فروريب ينحنى على المكتب، وقد بسط ذراعيه. سدد نظراته إلى شابة رفعت رأسها ببطء وقالت شيئًا.

أشعل باير النور. شنطة هنّى لم تكن موجودة. سار عاريًا فى غرف الشقة. ما زال الغطاء الكبير مثنى الطرف فوق السرير، والبيجاما على الوسادة. باب الحمام موارب. فتش عنها فى كل مكان حتى فى غرفة تخزين المواد الغذائية.

أفرغ باير إحدى الكأسين في جوفه. قدماه فى برودة الثلج، مرة أخرى راح يتنقل بين القنوات. بحث عن الصورة الضوئية المنقطة التى كانت تظهر دائمًا بعد نهاية الإرسال وتنير الغرفة كلها. لبرهة أخذ يتفرج على رحلة بالقطار عبر مراعٍ صيفية. لابد أن الكاميرا مثبتة على القاطرة، انتظر أن يحدث شىء، ثم بدل القناة إلى أن وصل مرة أخرى إلى رحلة القطار التى تواصلت عبر سهل ذى أشجار قليلة، لا بيوت، ولا ناس. الصوت الوحيد الذى سمعه كان يشبه الطقطقة، خافت ومكتوم، وكأنهم يدحرجون طبلاً ضخمًا. لم يظهر شىء من القاطرة. بضعة فلنكات ملقاة على طريق القطار.

أفرغ باير الكأس الثانية أيضًا، ثم تمطى تحت الغطاء محولاً نظره بعيداً عن التليفزيون. ما زال المكان دافئًا حيث كان راقدا، لكنه كان يشعر على الفور بالبرد إذا حاول أن يستدير على بطنه أو على ظهره، اعتقد أنه يسمع لُهَاث القاطرة البخارية، والصوت الرتيب لارتطام العجلات بالقضبان.

فجأة انتابت باير الرغبة فى أن يرى المنظر الطبيعى الذى يمر به القطار الآن. أراد أن يستدير لينظر من الشباك عندما خطر على باله أنه فى نصف الليل، أى أن الظلام دامس. عطس، فرفع البطانية لأعلى ومسح بها على أنفه، بين الحين والآخر كان يحرك أصابع قدميه. فيما عدا ذلك لم يحرك ساكنًا.

الفصل الرابع والعشرون

بدر

بت مويرر يحكى عن حفلة الشركة. هو وبيتر برترام يختلسان النظر إلى هَنّى من تحت الجيبة. خطط للعودة إلى المنزل. ماريانا شويرت المنقذة الشهمة. ولادة فارس، وبداية عشق، ومحاولة فاشلة للانعتاق.

كوتسنسكى صاحب صحيفة الإعلانات التى أعمل لها أجر غرفة الاحتفالات العائلية فى مطعم "توسكانا"، وهناك قام بدور الديسك جوكى مرة أخرى. زوجته – التى ظهرت وهى ترتدى فستانًا أبيض ذا خيوط فضية براقة – كانت ترقص منذ البداية وغالبًا بدون مرافق، ملامح وجهها كانت أثناء ذلك تشبه ملامح عازف جيتار منفرد. كانت تتراقص رافعةً ذراعيها إلى أعلى بحركات ثعبانية، لتمر بأصابعها المنفرجة بين خصلات شعرها.

صعب علينا تجاهل محاولات كوتسنسكى لإشاعة المرح، وهكذا رحنا نرقص رقصة البطة التى عزفها لنا أيضًا العام الماضى عدة مرات. السيدات الخمس من أقسام الصف والتنضيد والاستقبال كن قد أتين على ثلاث زجاجات خمر، وطلبن بعد ذلك زجاجتين باتيدا دو كوكو ثم اختفين.

برترام جاء متأخرًا جدًا فحيوه فى الميكروفون كرقم ١٣ . عندما نادى كوتسنسكى علينا لنرقص رقصة البولونيز، وعندما جرت زوجته فى دائرة وهى تحاكى بذراعيها القاطرة البخارية، أظهر برترام شجاعة فائقة وهرع إلى التواليت، لم أفهم لماذا فصلوا إدى وعينوا برترام، المدرس العاطل عن العمل. التقطيبة الرأسية بين حاجبيه جعلته يظهر فى كل وقت وكأنه يركز فى شىء. يعامله كوتسنسكى كما يعامل البيض النيئ.

حاولت أن أرتشف كأسًا حتى أجرب النوم فى هذه الليلة البدر، كلما تأخر الوقت كان ذلك أفضل، قلت لنفسى. كوتسنسكى كان قد أرانا عدة مرات وبجدية بالغة كيف يرتشف المرء عرق التكيلا بطريقة صحيحة، وفى أثناء ذلك كان يلعق إبهامه من كل النواحى، بعد فترة صافح كلاً منا وترك زوجته توصله بالسيارة إلى المنزل.

بعد منتصف الليل بحوالى نصف ساعة لم يعد هناك سوى برترام وأنا مع زجاجة كالفادوس تكاد تكون ملآنة، لم أعد أتذكر من طلبها. انتقلنا إلى الأمام، إلى المطعم حيث تناولت الغداء مرارًا. بعد نصف ساعة كان آخر الرواد قد انصرفوا من هناك أيضًا، وحدها السيدة

الجالسة إلى المائدة لشخصين ظلت فى مكانها القريب من باب المطبخ. كانت رشيقة وأنيقة الملبس، ترتدى جيبة قصيرة سوداء وجاكتة. ظلت تحملق فى كأس نبيذ فارغة وقد اتكأت على ذراعيها. شنطة يدها معلقة على ظهر الكرسى.

عندما عاد برترام من التواليت ذهب إليها وتحدث معها مشيراً مرتين إلىّ. لم تكد ترفع رأسها.

"تبكى وتنتحب"، قال وهو يجلس جانبى حتى تبقى فى مجال بصره. فى كأس كونياك كبير لها بريق أزرق قدم فرانكو لها جرعة كبيرة من الكرابا، ثم عاد بالكأس الفارغة على الصينية وهو يغمز لنا.

أخذ برترام يعلق على كوتسنسكى وزوجته. حتى أغير الموضوع سألته عن صيد الأسماك. برترام يستقل كل يوم جمعة القطار الليلى كى يصل فى الصباح الباكر إلى نهر الراين أو النيكر أو إلى القناة الهولندية، إلى أماكن تصب فيها المياه الباردة للمفاعلات الذرية. فى منتصف الحكاية قال: "هل تعجبك المرأة؟"

"ربما"، أجبته فأومأ برأسه وواصل حديثه. برترام شرح لى كيفية صيد سمك الشبوط، وتحدث عن الديدان، وعن الصراع المباشر مع السمك، عن الحركات العنيفة وعن التمرين، وعن الدوامات. لم يصمت إلا عندما نهضت المرأة. كانت، ربما، فى منتصف العقد الثالث من عمرها، تأرجحت فى مشيتها بكعبها العالى إلى التليفون، لابد أنها شربت عدة كئوس. تحت الجاكتة لم تكن ترتدى سوى بلوزة حريرية.

والسماعة فى يـدها أدخلـت قطعـة نقـدية من فئة العشرة فنكات، ثم أدارت القرص، لكنها أعادت السماعة دون أن تتحدث. ربما أخطأت الرقم. على كل حال كان الجهاز قد ابتلع العملة، مرة أخرى التقطت قطع نقدية من كيس نقودها الصغير. أثناء ذلك وقعت على الأرض قطعة من فئـة نصف مـارك أو مـارك. لم تهـتم بهـا وطلبت الرقم. فى هـذه المرة تحـدثت، ولكن بسـبب الموسيـقى - فـرانكو يعـشق مـوسـيـقى الجيـتـار ويفضلها عـلى أى شىء فى العـالم - ولأنهـا كانت تعطينـا ظهـرها، لم نفهم كلمة مما قالت. بعد أن علقت السماعة انحنت تلتقط العملة من أمام حذائها، دون أن تثنى ركبتيها.

"يا وعـدى!"، قال برترام. حملقنـًا معًا فى الكيـلوت البنفسجى. "يا وعدى!"، قال مكرراً عندما استقام عودها. "غضة وبضة، مش كده؟"

تبعها فرانكو على مسافة قصيرة بزجاجة كرابا إلى المائدة، وانتظر إلى أن جلست، ثم ملأ الكأس المنتفخة حتى ربعها.

بيد أمسكت بفرانكو، وبإبهام وسبابة الأخرى أشارت له أن يصب أكثر، لكنـه توقـف عنـد الحد المقرر. أفرغت الكأس بسرعة البرق، قبل أن يصـب كأسًا أخـرى وضـع عـلامة على الورقة المقـوية الموضوعة تحت الكأس.

"تشرب المحيط"، قال برترام، "المحيط".

رفع فرانكو الزجاجة ثم وضع خطًا آخر.

قال برترام: "بت". وشرع يشرح خطته. تكلم بكل هدوء ناظراً فى عينى مباشرة. لم أجب ولم أومئ، لكننى استحسنت خطته، أو على الأقل وجدتها معقولة. بين الحين والآخر كان يردد: "إذا نفعت كان بها، وإذا لم تنفع .. خلاص." ثم أضاف: "سنستمتع نحن الثلاثة بالأمر، متعة بريئة يا بت، وسترى، ولكن إذا لم تكن تريد ..." وقال: "إنها لا تشرب، إنها تسكر ... طينة".

بدأ مفعول الخمر يظهر لدينا. سمعت برترام يتحدث ورحت أشاهد فرانكو والمرأة التى ترتدى كيلوتا بنفسجيًا، شريطاً بنفسجيًا تحت الجيبة. وضع برترام يده على كأسه عندما أردت أن أصب له. ببساطة كنا فى موقف غبى وسخيف.

"فينيتو"، صاح فرانكو. التفتت المرأة إليه ثم نهضت؛ بعبارة أدق: ارتكزت على المائدة وهى تقوم. مشت الخطوات الأولى بثبات بعض الشىء، ثم اصطدمت بكرسى، وأطاحت بآخر جانبه، فتوقفت. تلفتت حولها ثم شدت جيبتها لأسفل وترنحت فى اتجاه التليفون.

"أترى الشفتين؟"، سأل برترام. "شفاه قوية." مط شفتيه وكأنه يقلد فم الشبوط، ثم لوح لها. "لن تتنكر"، قال، "ولا حتى هذه الحركة.

وضعت السماعة فوق الجهاز ووضعت عدة ماركات فى الفتحة.

"تحدثنا مرة مع بعضنا"، قال برترام، "قبل سنوات، عندما كانت مديرة متحف العلوم الطبيعية".

سألته: "وماذا إذا طلبت تاكسيًا؟

أشـرق وجـه برترام وهـو ينظـر إليّ، إلا أن ذلك لم يفرد التقطيبة بين حاجبيه.

"إذن نقوم نحن بدور التاكسي." وضع يده فوق ساعدي ضاغطًا عليه.

"أتعرف كيف كانوا يفعلونها في الماضي، أيام الحرب؟ يرفعون الفسـتـان حتـى يغطي الرأس، ثم يجلس أحـدهم على رأس المرأة، على الرأس. قبل أن يسحب يده، ضغطَ على ساعدي مرة أخرى.

راحـت تنتظـر والسماعة على أذنها، وذراعها الأيسر في وسطها، ثم في اللحظة التالية وضعت السماعة بعنف. تساقطت العملات المعدنية المتبقية وتجمعت بالأسفل.

أثناء سيرها كانت تستخدم ظهر الكراسي كدرابزين، لكنها فقدت توازنها فجأة، فانهارت على مقعد يبعد عن مكانها بمائدتين حيث لم تكن الأطباق والكئوس قد رُفعت بعد.

أوقـف فرانكو الموسيقى. انهمـك في الحساب. لم تصـدر أصوات إلا من المطبخ. "تشطيب"، همس برترام وأزاح الكأس تجاهي. قسـمت الكالفادوس المتبقي على كأسينا. "كريم جدًا كوتسنسكي"، قال "لابد من الاعتراف بذلك!"

ثم حدث التالي بسرعة فائقة: وضعت هَنّي رأسها على المائدة. أتى فرانكو بالفاتورة والورقة التي سجل عليها الطلبات، ثم انحنى عليها ونقر عـلى كتفها متحدثًا إليهـا. رفعـت مرفقيهـا وكأنهـا تريد أن تدافـع عن نفسها.

صاح برترام: "فرانكو!"، ونهض ساحبًا محفظته من جيب البنطلون. في اللحظة نفسها ظهرت ماريانا شوبرت. لم أكن رأيتها منذ فترة طويلة.

"خلاص، شطّبنا"، صاح فرانكو، "المطعم مغلق!"

جلس برترام. مرت ماريانا بمائدتنا وحيت برترام قائلة: "مساء الخير يا بيتر"، ثم أومأت إليّ.

"سأدفع أنا"، قالت لفرانكو متناولة الفاتورة وورقة الطلبات.

"الآن فهمت كل شيء!"، همس برترام. "ماريانا المسترجلة وهَنّى صديقة باير. كيف يخطر هذا على بال؟"

سألته: "باير، صاحبنا؟"

"بالضبط، عشيقته وماريانا. هل تفهم الآن لماذا يحصل باير على كل إعلانات متجر «جنة الأثاث»؟ أنا أعرف زوج ماريانا، واعتقدت أنني عن طريقه وعن طريقها أستطيع أن أضع قدمًا في «الجنة». إنهم منجم فلوس! ولكن إذا كانت له هذه العلاقات ... فلن تحصل على شيء حتى لو شفت حلمة أذنك."

"هل حصلت عليها أم لا؟"، سألت هَنّى بصوت عالٍ.

لم أستطع فهم إجابة ماريانا.

"أنت قلت ستحصلين على رخصة!" بدت هَنّى فجأة منفعلة.

"على الساقين، عليك أن تقولى. لماذا لم تقولى: على الساقين؟ هكذا أنت!"(*)

ركضت ماريانا مروراً بمائدتنا.

"كرابا وأماريتو وكونياك؟"، سأل فرانكو. أعطته دون الخزينة وورقة بخمسين، ثم استندت على طاولة البار وكيس النقود بين يديها المبسوطتين.

لا أعرف لماذا بقينا. لم ننطق بكلمة، والزجاجة كانت أيضًا فارغة، وهكذا ظللنا جالسين هناك دون أن نفعل شيئًا. فكرت فى جمع العملات المتبقية فى جهاز التليفون وإرجاعها إليها على المائدة.

سقط رأس هنّى إلى الأمام ففزعت وتحركت حركة فجائية أطاحت بكأس. اصطدمت الكأس بمنفضة وتدحرجت عائدة، ثم سقطت واستقرت على جنبها فوق السجادة. وضعت فوق الأخرى ووسّدت رأسها فوقهما وقد ابتعد المرفقان عن جذعها.

"أية مساعدة؟"، صاح برترام. هزت ماريانا كتفيها. إلا أن فرانكو كان أسرع. بدا الأمر فى البداية وكأن فرانكو انحنى لالتقاط الكأس، إلا أنه أمسك بهنّى من تحت الركبتين، ممرراً ذراعه تحت إبطها الأيسر،

(*) إشارة إلى اختبار الحصول على رخصة لحمل السلاح، حيث يُسأل مقدم الطلب إلى أى جهة سيصوب سلاحه فى حالة الخطر، وذلك للتأكد من أنه لن يصوب ناحية القلب أو الرأس، بل على الساقين مثلاً. (المترجم)

ثم – فى هذه اللحظة وقع كرسى على ظهره – رفعها. حاولت ماريانا أن تسند رأس هَنِّى المتدلية إلى الخلف. كنتُ قد نهضتُ ونظرتُ تحت مائدتها لأرى إذا كان قد وقع منها شىء، ثم أخذتُ شنطة يدها. حمل برترام معطفها وخرجنا جميعاً.

كان من الواضح أن فرانكو لديه خبرة فى هذه الأمور. بكل سهولة استطاع أن يضع هَنِّى فوق المقعد الأمامى بجوار السائق. كانت ماريانا قد أرجعت ظهر الكرسى إلى الوراء. بحرص وعناية فَرَدَ برترام المعطف على هَنِّى.

"هل ستحتاجين إلى مساعدة، عند النزول؟"، سألتُ ماريانا وأنا أعطيها شنطة اليد.

"هل أنتَ متجه أيضاً إلى شمال المدينة؟"

"نعم"، قلت وأنا أفكر: هل بإمكان برترام كشف كذبى؟

"إذن لستما فى حاجة إلىّ"، قال على الفور ضاغطاً على يدى. ثم قال: "سلاماً يا ماريانا".

"هل نوصلك؟"، سألت.

"كيف إذن؟"، صاح برترام ملوحاً مرة أخرى أثناء السير.

قلت: "باى فرانكو".

قادت ماريانا السيارة بحذر وببطء بالغ عند الملفات. منذ مدة طويلة لم أحشر نفسى على الأريكة الخلفية فى سيارة. جبين هَنِّى كان يقترب

شيئًا فشيئًا تجاه ركبتى اليمنى، رحت أرقب ماريانا فى المرآة العاكسة. ذات مرة تقابلت نظراتنا، لكننا لم نقل شيئًا.

حاملاً هَنّى على ذراعى ظللت واقفًا أمام المدخل إلى أن وجدت ماريانا ثغرة أوقفت فيها السيارة. تخيلت المنظر عندما يتجه شخص ليلاً إلى الشباك، ويرى رجلاً واقفًا يحمل امرأة على ذراعيه. تمنيت أن تستيقظ هنّى، وتجود على بابتسامة، ثم تستغرق ثانية فى النوم.

بالمفتاح فى يدها ومعطف هنّى على كتفها حاولت ماريانا أن تخمد بوادر سعال أعلن عن ظهوره لديها. "هل ستتحمل حتى الدور الثالث؟" ذراعاى شرعا يفقدان الإحساس. شقة ماريانا كانت تفوح منها رائحة طيبة. جمعَت من على الأريكة مجلة "بوردا" ومجلة برامج التليفزيون، ثم كتاب من مكتبة المدينة الاستعارية. بآخر ما تبقى لدى من قوى ثنيت ركبتى وأنزلت هنّى برفق. طلبت منى ماريانا أن أخلع الحذاء. "حذاءها، وليس حذاءك!" استدركَت عندما بدأتُ أفكُ رباط حذائى. أمسكت بكاحل هنّى وخلعتُ الفردة الأولى بسهولة. عند الثانية رفعتُ ساقها سهواً فلمحت الكيلوت مرة أخرى.

أحضرَت ماريانا بطانية وألقتها على هَنّى، مثبتةً أطرافها تحت كتفيها وتحت جانبيها، وأيضًا تحت قدميها. ربطتُ حذائى مرة أخرى. تنفسَت هنّى بصعوبة، وكأنها على وشك أن تشخر، بين شفتيها انفجرت فقاعة صغيرة.

وضعت ماريانا عند رأسها دلواً بلاستيكيًا أزرق به قليل من الماء، ثم تنحنحت وقالت: "تحسبًا للظروف!"

جلسنا فى المطبخ. كان الحائط الأيسر مغطى بكروت سياحية. "كلها من بنتى"، قالت ماريانا. "بالأمس اتصلت كونى من كاراكاس، هل ستعرف بدون تفكير طويل أن كاراكاس تقع فى فنزويلا؟"

"لا".

"أعتقد أن كونى نفسها لا تعرف أحيانًا أين هى".

شربنا شايًا ثم قهوة، لم أستطع أن أقول لها ما المدة التى قضتها هنّى فى المطعم.

"شربت حتى سكرت طينة، ثم اتصلت بالتليفون مرتين"، قلت.

"مرتين؟ كنت راقدة مستيقظة، وعندما أردت إحضار زجاجة بيرة رأيت جهاز الرد الآلى يومض. عندئذٍ انطلقت".

"*الخمر هو الشىء الوحيد الذى يساعد على النوم عندما يكون القمر بدراً*"، قلت لها.

"من كان يتنبأ أنك ستجلس هنا فى مطبخى ... والدك أعرفه ... الرفيق مويرر، حضرة ناظر المدرسة".

"هو الآن فى المصحة، فى دوزن".

"فى دوزن؟ أنا رأيته شخصيًا مرتين أو ثلاث مرات، ولكن هل تصدقنى عندما أقول لك إنه لا يوجد شخص تحدثت عنه هنا مثلما تحدثت عن والدك، هنا حول هذه المائدة؟ هل تصدقنى؟"

أومأت برأسي، أردت أن أقول لها إن إرنست ليس أبي الحقيقي، ولكن ربما كانت ستفهم ذلك على نحو خاطئ.

مع القهوة كنا نأكل مخبوزات مملحة تشبه العيدان الرفيعة، ونتحدث عن المخاوف التي تنتاب الكثيرين، وتمنعهم من الخروج إلى الشارع في الظلام – مخاوف تقترب من الهستيرية.

"يكفي أن ينظر الإنسان إلى أبواب الشقق"، قلت، "ليرى أنواع وأشكال الأقفال التي يركبها الجميع".

"عندما أكون وحدي في المساء في متجر الأثاث أشعر أنا أيضاً منذ مدة بالخوف. لفترة طويلة لم يكن لدي هذا الشعور. من يشعر بالخوف، لديه ما يخسره، إذن فحالي لا يمكن أن يكون سيئًا بالدرجة التي أعتقدها دائمًا، وإلا كنت سأشعر باللامبالاة، هكذا ظللت أفكر فترة من الزمن، أما الآن فكثيراً ما أفكر أنهم سيهجمون في اللحظة التالية وينهبون كل شيء، ولكن ليس معنى هذا أن يصرحوا لي بحمل مسدس." جاهدت ماريانا لتكبت التثاؤب. "المحللة النفسية – دائمًا هناك محللة نفسية في مثل هذه الحالات – سألتني ماذا أفعل عندما يقترب شخص مني. قلت سأطلق النار. إلى أين، أرادت أن تعرف. قلت لها إنه لا يوجد إلا مكانان مضمونان، في القلب أو في الرأس. أرادت التأكد فسألتني: إذن ستطلقين الرصاص؟ طبعًا، أجبتها، ماذا تعتقدين أنت؟ قالت لي إنني لن أحصل على المسدس، إنها لن توافق على ذلك، لا تستطيع أن توافق، بسبب اللوائح. شكرتها. كان الرد واضحاً".

تناولت ماريانا آخر قطعتين من العيدان الملحة، عارضةً عليّ واحداً. الأخرى كانت تختفي ببطء وبانتظام في فمها. كانت تمضغ بعناية، ثم مرت بطرف لسانها على أسنانها.

"آه، شوف من يقف هناك!"، صاحت. كانت هنّى تقف في فتحة الباب وهي تدعك بكعبها الأيمن بسمانة قدمها الأخرى، نصف وجهها كان محمراً. "هل أيقظناك؟"، سألتها ماريانا.

كانت هنّى تريد أن تقول شيئاً، إلا أنها وضعت ساعدها أمام فمها. في النهاية رفعت رأسها وقالت: "مساء الخير."

"مساء النور"، أجبت ووقفت. عرفتنا ماريانا ببعضنا البعض.

وهكذا تعرفت إلى هنّى، بعد ثلاثة أشهر سألتني عن رأيي في أن نتزوج، وكان هذا أجمل شيء حدث لي في كل حياتي حتى تلك اللحظة.

أمي فقدت عقلها بالطبع، ولكن حتى إرنست ومارتين وداني، بل حتى ساره – ابنة هنّى – كان رأيهم كلهم أننا منسجمان.

في حفل الزفاف سار إرنست فجأة إلى مائدة ماريانا، ثم رقصت ماريانا معه دون أن يتبادلا كلمة واحدة. عندما رافقها عائداً بها إلى مائدتها شكرها بانحناءة، بعد ذلك انصرفت. قبل الحفل كانت قد رفعت التكليف بيني وبينها وتوقفنا عن مخاطبة بعضنا بكلمة "حضرتك"، كما أننا نحصل الآن على إعلان "جنة الأثاث" الذي ينشر على صفحة كاملة. تركت هذه الصفقة الدسمة لبرترام. ماريانا غضبت من أجل ذلك كثيراً.

قالت لى إن برترام حاول كثيراً أن يتقرب إلينا من أجل الصفقة، وإنه من الغباء، مـن الغباء البالغ، أن أستغنى عـن ٨٠٠ مارك عمـولة شهـرية. لو كـانت تـعـرف ذلك لما بذلت كل هذا الجـهـد من أجل أن نحـصل على الإعلان. "ولكن ليس من أجل سواد عيون برترام!"، قالت.

أعرف أن ماريانا محقة، حتى لو لم أعترف بذلك. بالطبع لا أريد أن تعرف هَنّى شيئًا عن الموضـوع كله، وخصوصـاً أن استغنائى عن النقود لم يأت بـأى نفع، على الإطـلاق. كـان علىّ أن أعـرف أن الأمـر لـن يسـيـر كـمـا أريد، أننى لن أسـتطيع أن أعـتق نفسـى بالمال، أن برترام ليس هو الموضــوع. أدركت هذا، على أقـصى تقـدير، عندمـا رأيت كـيلوت هـنى البنفسجى مرة أخرى.

الفصل الخامس والعشرون

يا الله ، ما أجملها !

إدجار كورنر يحكى حكايات، ويدعو جينى ومايك للمبيت فى موتيل (*). فجأة يريد ترك كل شىء والرحيل، لكن ما يريده لا يتم. النادلة تذهب إلى بطل شاب.

"كنت أصور قبل الظهر فى "إجليزيا دى سان كرستوبال". كان عجوز رث الهيئة يجلس هناك. إلا أنه نهض وهرب عندما رأى آلة التصوير التى أحملها. فى الظهيرة كان العجوز نفسه يقف فى "كاله دى سبستيان" ويشير إلى مكان شاغر يمكننى أن أوقف فيه السيارة. أعطيته ٣٠٠ بيزو. عندما ركبت سيارتى بعد ساعتين كان يقف هناك أيضا ممسكًا بعصا بيضاء رفيعة فى يده، أعطيته الفكة التى معى، بعد العصر كان جالسًا علَى البار فى حانة "دى كولونيال" يحتسى البيرة -

(*) موتيل : فندق صغير على الطرق السريعة . (المترجم)

أو هذا الشيء الذى يطلقون عليه بيرة. عندما دخلت كان يبصق على الأرض، ثم أمسك بمنديل ورقى وتمخط فيه ثم ألقاه". أسقط إدجار منديل السفرة إلى جانب المائدة. "هكذا. ثم خطف منديلاً آخر، وكأنه فص ملح وذاب. كنا نجلس متقابلين على البار الذى يشبه حدوة الحصان"، رسم إدجار فى الهواء زاويتين قائمتين. "حيانى العجوز وقال شيئًا، لعابه كان يابسًا على حافتى فمه، وأيضًا على شفتيه فى الأمام. بدا وكأنه يُقدّر المسافة بيننا. ثم نزل من على كرسى البار، ولكنه، ولله الحمد، جلس ثانية وواصل الشرب". نظر إدجار إلى جينى أولاً حتى إنها حولت عينيها عنه، عندئذ نظر إلى مايك الذى كان يدخن، وفى طبقه لا تزال نصف شريحة اللحم. أدار إدجار فنجانه من أذنه وكأنه يدير عقرب ساعة.

"وبعدين"، واصل، "بيننا على البار – يعنى فى رأس الحدوة – كان يجلس رجلان، رأسهما متلاصقان. وفجأة"، استطال جذع إدجار، "أمسك أحدهما بالجرسون. مد يده إلى الوراء دون أن يتحرك، فوقعت يده على جيب بنطلونه. صعق الجرسون ونزل عليه سهم الله، ثم سرعان ما بدأ يتبادلان السباب والصراخ وأنف كل منهما تكاد تلامس أنف الآخر. سكب الرجل قهوته الإسبريسو فوق كيس السكر على طبق الفنجان، ثم جاء مأذا ذراعه ناحيتى، وطلب إسبريسو آخر، ثم أشار باشمئزاز وخبط فوق خشبة البار. فى هذه اللحظة شممت رائحة العجوز. رفع كأسه فى اتجاهى صائحًا: "صباح الخير!" رفع إدجار فنجانه بكلتا يديه، وكأنه يريد أن يستدفئ. "من اليمين واليسار حاصره

جرسونان. بحلق العجوز فى بيرته، ثم رفع عينيه وكأنه يفكر بهدوء فيما ينبغى فعله، ثم صاح: "مساء الخير!" نهر الجرسونان العجوز، وبعد أن حددا مكانى بطرف الأعين، انهالا على مؤخرة رأسه بالضرب، بسرعة، مرة، مرتين، ثلاث مرات – لا أعرف إذا كانوا فعلوا ذلك بالكف أم بالقبضة. كان رأس العجوز يندفع إلى الأمام مع كل ضربة، لكنه لم يدافع عن نفسه، واكتفى بالتشبث بكأسه". وضع إدجار فنجانه الفارغ وانحنى إلى منديل السفرة. "هل تريدان طلب شيء آخر؟"

"وبعدين؟"، سألت جينى. أشعل مايك لنفسه سيجارة.

"كانت رائحته فظيعة لا تُطاق"، قال إدجار. "شربت كأسى وانصرفت".

"والعجوز؟"، سألت جينى.

"بالتأكيد رموه أمام الباب". راح إدجار يتأمل الاثنين. كان مايك يرسل البصر إلى الخارج، لم يكن من الممكن رؤية الطريق السريع من هنا.

قطع إدجار قطعة من الخبز الأبيض ومسح بها صلصة الطماطم على حافة الطبق.

"لماذا تحكى لنا ذلك؟"، سأله مايك دون أن ينظر إليه.

"حتى لا أنعس. لأنكما لم تفتحا فمكما".

"ليس صحيحًا"، قال مايك، "وإنما لأننى قلت لك إننى أعمل على البار، والجرسون في رأيك شخص معدوم القيمة .. هذا هو السبب".

"يا بنى آدم"، صاح إدجار. "أنت بارمان!" طبق المنديل وحشى به الفنجان. النادلة ظلت واقفة والأطباق الفارغة على ذراعها.

"كله تمام يا بريتى، شكراً"، قال إدجار للنادلة.

"شكراً"، قالت جينى، "الأكل كان لذيذاً".

عندما لم يلتفت إليها مايك انصرفت النادلة.

قالت جينى: "أنا أحب العواجيز".

راح إدجار يمضغ وهو يهز رأسه عدة مرات.

"الأمر لديهم واضح تماماً. تسألهم عن شىء فيجيبونك عن آخر، تسأل مرة أخرى، فيحكون لك شيئاً آخر تماماً، ثم تسأل للمرة الثالثة، والأخيرة".

سألها إدجار: "ألا تريدين الإجابة الصحيحة على الفور؟"

"لا. أنا أسأل مثلاً عن السبعة، فيجيب العواجيز عن الأربعة، وعندما أسأل مرة أخرى، يكلموننى عن الستة ثم عن الثلاثة، وعندما أستسلم يقولون: أربعة زائد ستة ناقص ثلاثة يساوى سبعة، ولكن ليس هذا تشبيهاً جيداً".

"بلى"، قال إدجار. "أفهم ما تقصدين. تشبيه جيد".

"هل حصل لك شىء مشابه؟"

"لا أعرف إذا كان ذلك ينطبق على ما قلت"، قال إدجار. "مرة حدث لى شىء مشابه فى السينما. كنا قد أتينا متأخرين، ولم يكن هناك

أماكن سوى فى الصف الأول. دخلنا فى الظلام. التصوير فى الفيلم كان من فوق، طائرة تمر فوق غابة موحشة، أغلقت عينى حتى لا أدوخ، عندئذٍ سمعت على يمينى قرقرة عميقة، ضحكة رائعة".

"ماذا هناك يا مايك؟" سألته جينى. ترك مايك ولاعته تسقط فى جيب الصدر، ثم اتكأ إلى الوراء.

"أنا أيضًا تعبان"، قال إدجار ورجع بكرسيه إلى الوراء وكأنه على وشك النهوض.

"لا"، قالت جينى، : أريد أن أسمع بقية الحكاية، من فضلك".

نظر إدجار إلى مايك. "طيب، سينما، الصف الأول، ضحك بجانبى ..".

قالت جينى: "ضحكة رائعة".

"بالضبط. ودائمًا فى مواضع لم يضحك فيها أحد. كانت تضع ساقًا فوق الأخرى، وتؤرجح قدمها اليمنى. أحيانًا كنت أرى سمانة قدمها وكاحلها. كنت أنظر إليها من طرف عينى وأترقب صدور الضحكة ، وهذه الساق المتأرجحة ، كأنها دعوة . لامس كوعى كوعها، فلم تشعر على الإطلاق. قلت لنفسى ليس على إلا أن أحيطها بذراعى، وسوف تتكئ على الفور على كتفى، وكأن هذا شىء بديهى تمامًا، وكأن هذا هو المفروض أن يحدث، وفى نفس الوقت أردت أن أمر بيدى على سمانتها. كان على أن أتحكم فى نفسى، أتحكم بقوة فى نفسى. كنا

نجلس متلاصقين. أخذت أقول لنفسى: "يا الله، ما أجملها!" بعد كل ضحكة كنت أريد أن أقبلها".

"وبعدين، هل فعلت؟"

"لم أعرف من يجلس بجانبها. رجل - نعم، ولكن هل هما معًا؟ لم أعرف. لم أعرف إلا أننى لابد أن أكلمها، حتى لو تركت صديقتى بسببها".

"لم تكن وحدها؟"، سألت جينى. وضعت النادلة منفضة نظيفة على المائدة، ضغط مايك على سيجارته.

"لا، لم تكن وحدها. كانت مع شلة كبيرة". وتوقف إدجار عن الكلام.

"وبعدين؟"

هز رأسه قائلاً: "لم يكن من الممكن أن أرى ذلك. كانت عبيطة. المجموعة كلها كانت من العبط".

"حظك زفت!"، قالت جينى.

"أحببت مجنونة".

"غير معقول".

"أما أسوأ ما فى الأمر فهو أننى كنت أشتهيها بالرغم من ذلك".

"ماذا؟"

"كنت واقعًا فى حبها، السهم كان قد نفذ". اتكأ إدجار واضعًا أصابعه على حافة المائدة. ابتسمت جينى. مايك كان قد أخرج ولاعته من جيبه مرة أخرى وراح يلهو بها.

على الموائد حولهم لم يعد يجلس سوى سائقين فرادى، أو ثنائيات صامتة. على الموائد الأمامية، بين الخزينة والمدخل، علت أصوات.

"لازم نمشى الآن، فعلاً"، قال إدجار واضعًا مفتاح الغرفة بين جينى ومايك. "اذهبا أنتما، سأدفع الحساب".

"كله تمام يا مايكى؟" تناولت جينى المفتاح ونهضت قائلة: "شكرًا".

تمعن مايك فى العلاقة المعدنية الثقيلة [illegible] وعليها رقم ٧ البارز. دون أن ينظر إلى إدجار زحزح كرسيه [illegible] الوراء وتبعها.

"من أين أتيت بهؤلاء العيال؟ هل أشيل كل [illegible]؟"

هز إدجار رأسه موافقًا. "لم يعودوا [illegible]" أجابها. "ولكنهم يتصرفون كالعيال، أليس كذلك؟"

"أنت علقت العروسة منه" قالت النادلة، "بحكاياتك المرعبة".

"بريتى، لا تبالغى".

"أنت ترى. أتلفت الليلة عليه".

"لا أريد شيئًا من البنت، أنت تعرفين ذلك. أحضرى اثنين قهوة ودعك من الحمقى فى الأمام".

"الأمـر لا يهـمنى على الإطلاق يا إدى، يمكنك أن تفـعل مـا تريد، وأنت تفـعل مـا تريد". رفـعت كل شىء من علـى المائدة وكرمشت المناديل الورقية.

"الاثنان كالماء والنار. هى من برلين الشرقية، وهو من شتوتجارت. لا أعرف لماذا تشاجرا. هل يصعب عليك الشاب؟"

"أتريد أن تقول لى"، واستدارت نصف استدارة، "إن كل الشـبان لابد أن يمروا بموقف كهذا؟"

"أنا أستلطف الاثنين، بأمانة. أشعر بالفرحة عندما ألتقطهم من الطريق، ولأننى لست واقفًا على الطريق مثلهم بشنطة الظهر فى انتظار توصيلة، أحيانًا أشعر فعلاً بالفرحة من أجل ذلك".

"الحساب كله مع بعض؟"

"مع بعض". تتـبـعـهـا بنظره وهى تمر بالخـزينة، ثم وهى تبطئ خطواتها أمـام البـاب الأوتومـاتيكى، إلى أن دخلت المطبخ من اليـمـين. تناول مسواكًا، وكسره، ثم كسر النصفين. أظفار يديه نظيفة. راح ينظر إلى الموائد أمـام البـار. كـانت امـرأة قـد اسـتـدارت بكرسـيـهـا، وراحت تتـحدث بصـوت عالٍ مع رجال من المائدة المجاورة. جاءت بريت بفنجان قهوة كبير.

"أنت زعلان؟" رمى إدجـار ببـقـايا المسـواك فى المنفـضـة. وضـعت بريت القهوة أمام إدجار، وكنست المفرش، ثم دست الفرشاة الصغيرة فى جيب المئزرة.

"كانا يريدان السفر إلى فرنسا. ثم سُرقَت فلوسهما، والآن هما على الحديدة، أو على الأقل هذا ما يقولانه".

"أنت تنام فى سيارتك القديمة وتدفع لهما ثمن غرفة؟"

"هل هذا عيب أو حرام؟"

"على الأقل غير معتاد".

"وبعدين؟"

"أنت دائمًا كريم خصوصًا عندما تفتح الشابات قلوبهن لك".

"بريتى!" قال إدجار واضعًا ورقة بمائة على المائدة. "قولى لهما فى الصباح الباكر إن كل شىء على ما يرام، ماشى؟ سأدفع الفطار".

"ماذا؟"

"سأسافر إلى هرليسهاوزن، ولا أحد يعرف، ربما يتساقط ثلج كثيف ولا أستطيع العودة".

"ومسموح لك؟"

"ما زال أمامى أكثر من ساعة".

"لن يجيئا إلى الفطور إذا لم يكن معهما فلوس".

"أريد أن أنطلق الآن يا بريتى، هذا أفضل على ما أعتقد".

صاحت: "يا ربنا!"

"ماله ربنا؟"

"لا تتصرف هكذا كالأطفال. وكما ترى ليس عندى وردية فطار".

"سأدفع الآن، وإذا لم يجيئا، تحتفظين بالفلوس لى، ماشى يا بريتى؟"

"وإذا سرقا شيئًا؟"

"بطلى تخاريف!"

"أنا أسأل فقط".

"أبرياء سذج ..".

"ليسا بريئين يا إدى، هما الاثنان".

"هل تكفى؟" ونقر على الورقتين الماليتين.

"الماكينة مضربة عن العمل". جلست أمامه وجمعت الطلبات ثم قطعت الورقة من الدفتر.

"من يجلس هناك فى الأمام؟"، سأل إدجار.

"زبائن زفت اليوم".

"كالخنازير".

"آه"، قالت وراحت تبحث فى محفظتها عن فكة. "يا خنازير العالم (*)

(*) إشارة ساخرة إلى عبارة ماركس الشهيرة: "يا عمال العالم اتحدوا!". (المترجم)

"خلاص. إذا لم يظهرا، قيدى الباقى فى رصيدى، ماشى؟"

"طفل عنيد"، قالت وهى تلوح بدفتر الفواتير أمام أنفه.

"وارمى هؤلاء الخنازير بره".

"من، أنا؟ طالما ماكينة القهوة شغالة .."

"قهوة؟ إنهم سكرانين".

أرجعت بريت زجاجة الخل إلى مكانها فوق المائدة بجانب التوابل. "واحلق ذقنك يا إدى".

"إذا كنت تريدين"، صاح خلفها، فتح العلبتين البلاستيكيتين الصغيرتين وسكب الحليب فى القهوة، ثم دس محفظته فى الصديرى.

في دورة المياه غسل وجهه طويلاً. تأمل فى المرآة كيف يسيل الماء من ذقنه، أثناء التجفيف أخذ يدير رأسه يميناً ويساراً.

ارتشف القهوة ونظر إلى الرجلين، وقفا أمام بعضهما البعض كأنهما لاعبا كرة قدم، وراحا يتبادلان الصراخ بالألمانية، إلا أنه لم يفهم شيئًا. عند المدخل عاد زوجان عجوزان مرة أخرى، تحسس إدجار مفتاح السيارة فى محفظته، الزبائن الذين يجلسون إلى الموائد المطلة على النوافذ كانوا يقومون وينصرفون دون أن يلاحظهم أحد. عدد المنصرفين يتزايد من وقت لآخر.

تعرف إدجار على الشاب بشعره الكثيف الأشقر المائل إلى الحمرة، وأيضاً بسبب حركة كتفه. حشر نفسه بين الرجلين، وكأنه يريد الوصول

إلى إدجار من أقصر طريق، إلا أنه لم يستطع التقدم، ظل واقفًا بين الرجلين، وقعت شنطة الظهر ومفتاح الغرفة على الأرض.

عندئذٍ تراجع الرجلان. ساد الهدوء في المطعم. ببطء شديد رفع مايك يده اليسرى، وضعها أمام عينيه مثل كتاب ثم أخذ يرمش، وكأنه لا يستطيع القراءة بسبب العتمة، بلا حراك تأمل كفه الذي نزف منه الدم مارًا بساعده ومرفقه حتى تساقط على الأرض. كان الرجلان قد اختفيا.

اقتربت بريت منه وأمسكت بكتف مايك، ثم انحنت وتفحصت وجهه. التقطت النادلة الأخرى مفتاح الغرفة من الأرض. حملا مايك إلى أقرب مائدة، ثم أجلساه على كرسي. أقبلت امرأة من البار. دخل الرجل العجوز وزوجته مرة أخرى ووقفا أمام مايك. أحضروا صندوق إسعافات أولية من المطبخ. تزايد عدد الناس الواقفين حوله وراحوا يتحدثون إليه وكأنه يحتاج إلى تهدئة. عبر رءوسهم لمح إدجار وجه الشاب الشاحب.

"أنت غبي"، صاح إدجار بعدما نفذ إلى داخل الدائرة. "أنت عبيط وغبي!" انزلق مايك على كرسيه وفرد ساقيه، ثم ابتسم له. ربطوا يده. أكثر من مرة داعبته بريت في شعره. وضعوا شنطة الظهر المعلق بها كيس النوم بجانب كرسيه.

"أنت فعلاً عبيط وغبي!"، قال إدجار وهو يأتي بإشارة ذات معنى.

دون أن يفقد إدجار من مجال بصره تحسس مايك المائدة بيده غير المربوطة حتى عثر على المفتاح، ثم ألقى به بين قدمي إدجار، وضحك، ضحك فجأة ضحكة عالية مجلجلة جعلت إدجار يتراجع، بينما كانت علاقة المفتاح المعدني وعليها الرقم ٧ في الوسط بينهما تمامًا.

الفصل السادس والعشرون

طفل يومض

برلين، مساء يوم أحد فى شهر أغسطس. تحكى ليديا - وهى تأكل أرزًا بلبن - عن جينى ومايك وجان وألكس. مسن يجلس على البلكونة. مصباح إشارات التحذير على النافذة. من وماذا وإلى أين؟

عندما ملأت طبقي من الأرز باللبن كان لا يزال دافئًا. فى المنتصف صنعت حفرة صغيرة ملأتها بقطع اليوسفى من العلبة المعدنية. تجمع العصير على شكل دائرة رقيقة على حافة الطبق. أرش الطبق كله بالتساوى بالسكر والقرفة. وأمسك بالملعقة عموديًا حتى لا ينسكب شىء.

على حافة الشباك توقف مصباح إشارات التحذير عن الإضاءة. المصباح يتأثر على الفور بالضوء أو بالعتمة. زجاج المصباح أصفر، تقريبًا برتقالى، فوقه مثلث معدنى يستخدم كعلاّقة. على الإطار الأصفر مكتوب بخط أسود: SIGNALITE.

شباك المطبخ يطل على الحوش. إلى يسارى، فى الجناح الجانبى، ما زال العجوز يجلس على بلكونته. فى العصارى يتشمس، أثناء ذلك غالبا ما يستمع إلى موسيقى موتسارت أو فاجنر، وأيضًا إلى موسيقيين آخرين تبدو أعمالهم مألوفة لدى، لكننى لا أستطيع تحديدها بالضبط. عندما يفتح العجوز باب البلكونة تظهر أولاً أصابع يده اليسرى المرتعشة التى تستند إلى إطار الباب. باليمنى يتكئ على عصا. قدماه والجزء السفلى من فخذيه لونها أزرق محمر من الورم. يسير وكأن قدميه محشورتان فى حذاء ثقيل رهيب، لذا يختبر فى كل خطوة إذا كانت الأرض ستتحمله. يستغرق الأمر وقتًا طويلاً إلى أن يجلس العجوز واضعًا كلتا يديه على رأس العصا، أو يدًا على كل فخذ. كل نصف ساعة تقريبًا يزحزح كرسيه وفق اتجاه أشعة الشمس، حوالى الساعة الرابعة يكون قد استدار كليةً إلىّ. يرتدى كلسونًا أبيض تحت برنس الحمام ونظارة داكنة. خصلات شعره التى تحيط بصلعته تصل إلى الياقة. لقد استغرق فى النوم، على ما يبدو، أثناء كونشيرتو الأبوا. تقترب الساعة الآن من السادسة مساءً.

بسبب هذا الحر أشعر بالتعب طوال اليوم. فى الليل أرقد على سريرى مستيقظة، ولا حتى النسيم الرقيق يساعدنى على النوم.

صباح اليوم كان رجلان يركلان علبة معدنية فيما بينهما، وأمام بيتنا تحديدًا، حوالى الساعة الخامسة. بعد ذلك الغربان التى بدأت تتسامر. أقسم بربى أنها كانت فعلاً تتسامر. ومسك الختام كان رنين جرس التليفون، فى مكان ما مجاور، فالشبابيك كلها مفتوحة. عندما

استغرقت فى النوم أخيراً دق يان الجرس. كان آتيا من "تريزور". أراد الجرس والنادلات هناك أن يذهبوا إلى بيوتهم فى الصباح. ليس هناك وردية صباحية بسبب موسم الإجازات؛ لذلك كان لابد أن يغلقوا. أراد يان أن يفرجنى على المصباح الذى سرقه هو وألكس من ورشة البناء فى شارع بوتسوف. طوال الليل كانا ينطان ويقفزان فى المرقص الشبيه بالخندق حاملين مصباح الإشارات التحذيرية. لا أعرف ما حدث بعد ذلك. لم يقل يان سوى أن كل شىء انتهى مع ألكس وأنه لا يريد سماع اسمه، ثم سألنى إذا كان من الممكن أن يسكن عندى، فقط لبضعة أيام. ولكننى لا أريد أن أخوض فى هذا الموضوع من أصله.

حوالى الحادية عشرة كانت جينى ومعها مايك يقفان أمام الباب، لم يكن قد مر أسبوع على سفرهما إلى فرنسا. يد مايك اليسرى مربوطة وتستند على رباط مشدود حول العنق. مفتاحهما لدى. يتقاسمان مع ألكس ويان شقة ذات غرفتين ونصف فى الطابق الأسفل.

فى العصر جاءت جينى وحدها، كانت قد اختفت قبل نصف ساعة، ولا أعرف هل ينبغى علىّ أن أكون غاضبة أو زعلانة، أم أعتبر ذلك علامة على حيرتها، أو ربما على ثقتها بى. فيما مضى كنت أضحك على شىء كهذا.

طبعًا تسرنى زيارتهما. نظريًّا من الممكن أن أكون أمهما. على نحو ما نكوّن أحيانًا عائلة، لكنهما لا يلاحظان متى يبدآن فى إرهاقى. يعتقدان أن عليهما أن يعتنيا بأمرى لأننى أعيش وحيدة؛ لهذا طبعوا إعلانًا باسمى فى صحيفة "تسيتى" فى باب "البحث عن أصدقاء". منذ

أن رأوا صورة لباتريك عندى يلحون علىّ كى أكتب له. شرحت لهم مراراً أن باتريك كان من الأسباب التى جعلتنى لا أطيق ألتنبورج. فاض بى الكيل وطفح بعد الأمسية التى قضيتها مع هوليتشك. هى وسرها المفضوح. كما أن هروبى – كما أقول دائماً – هو الخطوة الأولى لإدخال النظام فى حياتى؛ هذا النظام لن أتخلى عنه هكذا برعونة، حتى لو كانت جينى والأولاد الثلاثة يتصرفون معى وكأن الوحدة هى أسوأ شىء فى الحياة. كنت أعتقد أن الشباب يفكر بطريقة أخرى، بالإضافة إلى ذلك فإن باتريك لديه الآن زوجة أخرى، كما أنه عثر على عمل جديد ، ولكن ليس لكل هذا وزن عندهم.

على كل حال كانت جينى جائعة. فتحت الثلاجة وصاحت: "متى ستأكلين كل هذا؟" راحت تتفحص محتويات الرف واضعةً يدها عليه.

"أسخن لك المكرونة، لازانيا بالخضار، من الغداء؟"

من الفريزر أخرجَت كيساً به خضار على طريقة ناسى-جورنج، وراحت تقلبه عدة مرات إلى أن عثرت على طريقة التحضير. البلوزة الزرقاء الفاتحة الخالية من الأكمام – التى لم تعد تصلح لى – كانت واسعة عليها. "يمكن إعدادها فى الطاسة أيضاً"، قالت جينى. "هل تأكلين معى؟"

فسألتها: "ولماذا لا تريدين اللازانيا بالخضار؟"

كانت جينى قد رفعت علبة، وصاحت: "يوسف أفندى! تسمحين لى؟ ما زالت هناك علبة". حشرت كيس الناسى-جورنج فى الفريزر مرة

أخرى. "لا تضع أمى معلبات فى الثلاجة لأنها تستهلك كهرباء كثيرة"، قالت وانحنت، ثم أخرجت برطمان المربى لترى ما وراءه. "الله، رز بلبن!" بكلتا يديها رفعت علبة أرز بلبن قائلة: "من فضلك، من فضلك، من فضلك يا ليبيديا!" كان رف الخضار بارزًا لذلك لم يغلق الباب جيداً.

"عندك قرفة، سكر وقرفة؟"

"جينى"، قلت محذرة، "الثلاجة". ضغطت ببساطة على الباب حتى انغلق، ثم سحبَت سكينة صغيرة من درج أدوات المائدة، وقطعَت الطرف المخطط من علبة الأرز باللبن وفتحتها. "أين صفيحة الزبالة؟"، سألتنى. أشرت إلى الكيس الذى أجمع فيه العلب تحت الحوض.

بعد ذلك صرخت: "يع! شوفى التفاحة!" بقعة كبيرة بنية اللون عليها. راحت جينى تقلب فى الليمون الهندى وبقية التفاح فى السلة المصنوعة من القش. "هذه وحدها"، قالت وهى تشطر التفاحة بسكينة الخبز. "وبقايا الطعام؟" أشرت لها إلى صفيحة فضلات الطعام، ثم حكيت لها عن يان وألكس ومصباح الإشارات.

"إذا كان لا يزال لديك رغبة، ثم تنتهى الموسيقى، فإنك تشعرين وكأنك بالونة أفرغوها من الهواء"، شرحت لى جينى، كانت تقصد الموسيقى وهذه الأشياء التى يبلعونها حتى يصبح المزاج عاليًا. "المصباح ينرفز، فعلاً"، قالت "شىء سخيف جداً. حتى لو لم أره، أشعر به. لماذا يأتيان بشىء كهذا إلى البيت؟ هذا هو ما يجننى".

"هذا هو طفل يان، على الأقل طالما ظل وحيداً".

"رائع! طفل! ليس طفلي على أية حال". ثم صاحت: "أولاً، لقد عاد ينام مع ألكس. ثانيًا، هما أيضًا لم يسمحا لي بالاحتفاظ بالقطة. طفل!". واستطردت قائلة: "ينقصنا طفل! عندما تظلم الدنيا يبدأ هذا الشيء في الوميض. أعصابي!" قطعت التفاحة إلى قطع صغيرة. على كتفها الأيسر الذي انزلقت عنه البلوزة رأيت شريطًا أبيض على بشرتها السمراء.

سألتها عن يد مايك. زفرت جيني بصوت مسموع. "يلم الآن حاجاته. أنا قلت له أن يجمع حاجاته. تسمحين لي بأن أشغله؟" راحت تدير مؤشر الراديو. "في البداية يقول لي: ليس عليك أن تهتمي بالفلوس، وبعد خمسة أيام يصبح مفلساً. كنت ثائرة، على الدوام مطاعم وبارات. أية محطة هذه؟ كنت أريد التفرج على باريس! تصعلكنا يومين في ريم، في المدافن، والآن يتصرف وكأنني أنا التي بذرت كل فلوسه". تطفئ الراديو مرة أخرى. "مايك حشر نفسه بين اثنين يتشاجران، ورط نفسه وهو سكران، الأستاذ مهم!" أخرجت جيني الطاسات. "كان الرجل لطيفًا جداً ... الرجل الذي أخذنا معه"، قالت جيني. "كان مايك يريد السفر إلى شتوتجارت، إلى والديه. قلت له، ما فيش مشكلة، سافر، ولكن من غيري. قلت له: لم أسافر في سيارة نقل، ومع ذلك سأل السائق. كان مكتوباً على السيارة شيء يشبه برلين، ولكنه كان يقصد ميران، إذا كان هناك مدينة اسمها هكذا. سيارة فولفو مشحونة ببرتقال إسباني من فرنسا. تحدث إدي طوال الوقت. إذا توقف عن الكلام ينعس على الفور، هكذا قال. علينا أن نسليه. حوالي خمسين نكتة إلى أن وصلنا إلى

تقاطع هرمسدورف. كان مايك وقحاً، وقال له إن عليه أن يشغل الراديو"، قالت جيني، ووضعت الطاسة المتوسطة فوق الموقد. "عند مثلث كيرشهايم دعانا إدى إلى تناول الطعام والمبيت في موتيل على حسابه. لم أجد في الأمر شيئاً، أن يعزم شخصين مفلسين. قبل ذلك كنت حكيت له حكاية المشرفة في حمام السباحة. كان بيننا تفاهم".

لم أفهم عما تتحدث.

"أنت تعرفين طبعاً حكاية حمام السباحة".

"لا".

"الآن يعرف المرء كيف تصغين!"، قالت جيني وهي تقرب الولاعة من عين الموقد. "كان ذلك في اليوم السابق لحصولي على أول بطاقة شخصية، أبريل ٨٩، كنت مع صديقة في حمام السباحة. كنا على وشك النزول إلى الماء عندما جاءت مشرفة وقالت لنا إن علينا أن نرتدي ملابسنا ونمشي من هنا، لأن التمرين سيبدأ الآن، أخرجت ساعتي، كان لا يزال أمامنا عشرون دقيقة على الأقل". وضعت جيني زبدة في الطاسة، ثم انحنت وأدارت مفتاح الموقد لتحصل على شعلة أكبر.

"ضيعتما وقتكما في اللعب؟"

"دفعنا ثمن التذكرة، وكان لا يزال هناك وقت. حتى غطاء الشعر كنا قد ارتديناه، وفجأة اقتحمت الحمام مجموعة كبيرة من السباحات المحترفات ذوات القدرات الخاصة، هكذا كان يطلق عليهن آنذاك، أليس

كذلك؟ أحطن بنا فى دائرة، ولعبن بنا كرة اليد. شبعنا ضرباً. كنت أكرر لنفسى: لا تبكى، لا تبكى. ولا حيوان اهتم بأمرنا، ومع ذلك نزلنا إلى الماء، بركب مجروحة. عند بوابة الخروج، عندما أردنا تسليم مفتاح الأمانات، كانت المشرفة تجلس خلف المائدة، ولم تتردد فى أن تقول لنا: شكراً". أخذت جينى تحرك الطاسة بالزبدة السائلة. "كانت تلك أول مرة أعرف كيف يتصرف الكبار، وكيف هو الوضع عندما لا يريد شخص أن يتعب نفسه ويوسخ يديه من أجلك. أردت أن أحكى القصة فى المساء لأمى. عندما وقفت أمام سريرى كنت أعرف أننى لا يمكن أن أحكى لها عن ذلك شيئاً، لن تتحمل ذلك. الأمر بالنسبة لها أسوأ بكثير منه بالنسبة لى، أسوأ بكثير، لم أستطع أن أحكى لها شيئاً فظيعاً كهذا".

ألقت جينى قطع التفاح فى الطاسة، وخلعت وهى تسير صندلها المثنى عن الخلف، ثم سحبت بأصابع قدمها الميزان من تحت الأرفف. وقفت فوقه، ثم نزلت، وحاولت مرة أخرى.

"شوفى"، صاحت. "مش ممكن. ٥٠.٥ وزنى قنطار؟" برزت عظام كتفيها إلى الأمام وكأنها جناحان صغيران. "٥١، شوفى!" تركتنى أعتلى الميزان وهى تمعن النظر فى المؤشر.

قلت لها: "٦٨، الميزان يعمل جيداً".

"ماذا؟ أنت تزنين ٦٨؟" رمقتنى جينى من أعلى لأسفل. أزحتُ الميزان وأعدتُه إلى مكانه تحت الرف، ثم سألتها مرة ثانية عن يد مايك.

"لم أستطع أن أواصل الحكي على راحتي لأن مايك كان دائمًا يقاطعني"، قالت جيني وارتدت صندلها، ثم وضعت على المائدة طبق الفواكة المحفوظة وعلبة القرفة، وأزاحت السكرية في اتجاهي.

"دائما كان يحشر نفسه في الكلام"، قالت، "إلى أن رجاه إدي أن يتركني أحكي في هدوء. وعندما لم ينفع الرجاء زعق فيه، وطلب منه أن يخرس. وكان معه حق يا ليديا، فعلاً". نظرت جيني تجاهي نظرة قصيرة. رجوتها أن تأخذ ملعقة خشبية للتقليب بدلاً من الشوكة حتى لا تخدش الطاسة، وأن تقلل من درجة الشعلة.

"لما أصبحنا – مايك وأنا – وحدنا في غرفة الموتيل، كان إدي ما زال يجلس في المطعم، وعندئذ انهال على بالاتهامات – لماذا أحكي هذه الحكاية لإدي ولم أحكها له من قبل؟ هذه الأفكار لا تخطر إلا على باله، هذا هو مايك. كما أنه يتبول وهو يأخذ دشاً".

"كل الرجال يفعلون ذلك".

"مايك لا يتحدث إلا كلامًا فارغًا: لن يمنعني إذا كنت أريد أن أكسب بعض المال هذه الليلة، هكذا تحدث. هذه كانت النهاية بالنسبة إلي"، صاحت جيني. "مرة حكيت له شيئًا عن رجل كنت أقابله بين الحين والآخر، قبل أن أبدأ علاقتي بمايك، كان الرجل أكبر مني كثيراً في السن، لكنه كان على ما يرام، مهذبًا جداً وكريمًا وغرقان في حبه لي. كان يجد كل ما أفعله رائعًا. بدلاً من الهدايا كان يعطيني نقوداً، ولسبب ما لم يكن قادراً على فعل شيء ... اعتقدت أنه ربما يشعر تجاهي

بمشاعر أبوية، أو أن غريزة الحماية استيقظت لديه، أو شيئًا من هذا القبيل. وفجأة قرأ على حكاية قذرة، تقريبًا سادية مازوخية. ربما كنت سأضحك عليها لو لم يكن هو الذي قرأها، في تلك اللحظة انهار كل شيء، وضاعت الصورة التي كونتها عنه، هذه الحكاية حكيتها لمايك، بدون داع. منذ ذلك وهو يعتقد أنني أخبئ سرًا ... ألعابًا سادية مازوخية أو شيئًا من هذا القبيل مما يخترعه في جنون البقر الذي لديه. فقط لأن الرجل كان يعطيني نقودًا. ولكن هذا هو مايك. لم ألاحظ أن الغرفة مغلقة بالمفتاح إلا عندما صعدوا به. أوصلتنا إحدى النادلات بسيارتها إلى المستشفى، ثم أرجعتنا، والأخرى كانت قد وجدت شخصًا يأخذنا معه إلى برلين. هذا السائق لم ينطق طوال الرحلة بحرف، وأنزلنا عند محطة فانزيه.

أقول لها إن عليها أن تلبس شيئًا تحت البلوزة، وإلا فإن المرء يرى كل شيء عندما تحرك يديها أثناء الكلام.

"ليس هنا"، أقول عندما وضعت جبيني ذقنها على صدرها. "هنا، عند الإبط"

"منظرهما منفر؟"، تسألني. "يتدليان هكذا، شكلهما بشع، أليس كذلك؟" وفجأة عانقتني. بالكاد نهضت. ضممتها بقوة ومسحت على شعرها. تبلل كتفي الأيسر، عندئذ فقط عرفت أنها تبكي، وكما عانقتني فجأة، ابتعدت عني فجأة أيضًا.

خلطتُ السكر بالقرفة، وفرشتُ المائدة لشخصين، وسألتها عما تريد أن تشرب.

"مثلك"، أجابت جيني وهي تقلب الأرز مع قطع التفاح. فتحت العلبة عن آخرها. "يُقدم بارداً، مع موزلي"، قرأت بصوت عال، ورفعت درجة الشعلة مرة أخرى. أخذت تبحث عن الفتاحة وعلبة اليوسفي في يدها. بدأ الأرز يغلي في الطاسة. "تسمحي؟" وأعطتني العلبة والفتاحة ثم قلبت في الطاسة.

بدون مقدمات قالت جيني: "لعلك على حق. ربما من الأفضل أن يعيش الإنسان وحده".

عندما فتحت العلبة، رن جرس الباب. "لك"، قلت لها، ولم أنهض إلا عند الرنة الثانية، عندئذ خرجت جيني. سمعتها تفتح الباب. لكنها لم تقل شيئًا. ثم انغلق الباب. انتظرت. ناديت على جيني، ثم بحثت عنها. ليس في الشقة غيري.

أنزلت الأرز من على الموقد، وقفت بجانب باب الشقة وانتظرت. لم يكن هناك على الدرج أيضًا. أطفأت الموقد وتركت الماء ينساب في البانيو. هذا يساعدني دائمًا. في البانيو ألعب بعلبة الشامبو الفارغة. آخذها بين قدمي، ثم أضعها على حافة البانيو، وأركز تفكيري ثم أضربها بأصابع قدمي، شريطة ألا تسقط في الماء. هذه هي طريقتي في لعب البلياردو، وهي مفيدة لعضلات البطن.

عندما رن الجرس مرة أخرى، جريت ببرنس الحمام إلى الباب. على مساحة الأقدام أمام الباب وجدت مصباح الإشارات يومض. انحنيت على الدرابزين، لا شيء. حملت المصباح إلى المطبخ، ووضعته على حافة النافذة حيث توقف على الفور عن الوميض.

ها أنا الآن قد انتهيت من الطبق كله، وما زلت لا أفهم ما حدث. أضع ما تبقى من أرز دافئ في الطبق. الطاسة - التي لا تدخل الحوض إلا مائلة - أغسلها على الفور، عندئذ أملأ علبة الأرز الفارغة بالماء ليسهل غسلها فيما بعد. بعد ذلك أكمل الأكل.

لا أسمع صوتًا، لا في الحوش الداخلي ولا في الشقة تحتي. لو كان الأربعة أبنائي كنت أنبّت نفسي، وقلت إن الخطأ خطئي، وإنني لا أهتم بأمرهم، وإنني فوضوية، أو كنت سأقنع نفسي أن السبب هي المنطقة السكنية أو الزمن الصعب أو الحرارة.

ما زال العجوز نائمًا. عندما يستيقظ سيتعجب كيف انقضى النهار. عذر رائع، لكنه ربما لم يعد بحاجة إلى أعذار. في الربيع يضع دائمًا شجيرة موز على البلكونة. بالمقبض المقوس لعصاه يجذبها ناحيته، ويتحسسها ثم يعيدها، يتطاير طرف حزام برنسه الآن في الهواء. ستؤلمه الربطة. لا أستطيع النوم حتى في السرير، وهو يأخذ تعسيلة على كرسي كهذا، لكنه سيلاحظ أثر ذلك في الرقبة والأكتاف، وسيرقد مثلي صاحيًا في الليل، يستمع إلى الموسيقى، ويتعجب من الضوء الذي يومض، ويتساءل عن معناه. ربما يكون له تأثير مهدئ، مثل تكات المنبه في الماضي. كنت آنذاك في الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة، ولم أقل لأمي شيئًا، ليس فقط لأنني كنت خائفة، ولكن لأنني اعتقدت أن وقع الأمر بالنسبة إليها أسوأ، وأنني لا يمكن أن أحكي لها شيئًا كهذا، ثم طلَبت هي الطلاق من الشخص الذي أنجبني لأسباب أخرى تمامًا.

عندما أنتهى من الطعام سأغسل الطبق والعلبة الفارغة. ربما أضع المصباح فى الدولاب بين الملابس الشتوية، أو فى الحمام وأترك الضوء مشتعلاً فى الصباح الباكر لابد أن أنزل المعلبات الفارغة. عمال القمامة يأتون لجمعها يوم الاثنين. سأضع صندل جينى على المشاية خارج الباب، والمصباح أيضًا. إذا لم يكن يان يريد طفله، لأن ألكس عاد إليه، فعليه أن يعيده إلى ورشة البناء فى شارع بوتسوف، هذا هو الحل حتى يعود كل شىء إلى مكانه.

الفصل السابع والعشرون

الرجل الخطأ

باتريك يهجر داني. مشهد في غرفة المعيشة. رسالة ليديا والأرطال الزائدة. تينو وتيري والوحش.

باتريك يجلس على فوتيه كبير رمادي أمام التليفزيون العطلان. إلى يساره نافذة، وإلى يمينه المائدة وأمامه داني على كرسي وظهرها إلى باتريك. ما زالت أطباق العشاء لثلاثة أشخاص في مكانها. كريتان من الأربع كريات الزجاجية الصفراء يرسلان ضوءهما الباهت فوق المائدة، وتحت الكريات شمعة تحترق. من الشقق المجاورة يسمع المرء الأصوات الصادرة عن أجهزة التليفزيون.

تقرب داني سيجارة من الشمعة. تستدير وساعدها الأيسر فوق المسند وترفع ساقها، الكعبان على حافة الكرسي.

يدس باتريك قدميه في حذائه نصف الرقبة، ويفك الرباط الأيمن قليلاً، ثم يشده حتى يتساوى الطرفان، ويعقده عقدتين. يكرر الشيء نفسه مع الأيسر. يسألها باتريك: "أتنامين؟"

تهز داني كتفيها. باليد اليمنى تحيط بأصابع قدميها الاثنتين وكأنها تشعر بالبرد. "أتعرف ماذا قال لي بيلي؟ إنه فقد عمله ويبحث عن آخر. هربت زوجته منه، ووجد أخرى. ماذا يريد أكثر من ذلك؟ هكذا تساءل بيلي". تنفخ داني الدخان في اتجاه باب الشقة المغلق أمامها. "كانت أياماً جميلة في كورن-ساليس، أليس كذلك؟"

"جميلة جداً"، رد باتريك.

"لابد أن يرغم المرء تينو أحياناً لكي يكون سعيداً. الأطفال يحتاجون إلى طريق واضح يسيرون فيه".

"كان حظنا طيباً مع الجو".

"أن يصعد تينو على أكتافك يا بات. هذا أول الغيث، ألا ترى ذلك؟ وتجديفكما معاً، وكيف كان يسمع كلامك ويبذل كل جهده ... هذه معجزة حقيقية". تهرش قصبة رجلها وتلمس لبرهة بذقنها ركبتها. "سيكون الأمر فظيعاً بالنسبة إليه".

يفرد باتريك راحتيه على بطنه، وبعد ذلك يضعها على مسند الذراع.

"عليك أن تتصل بصديقك إنريكو"، قالت داني. "الآن بالذات، في الوقت الذي بدأت أتعود عليه. كيسان مليئان بالغسيل القذر التعارف، فعلاً شيء فريد من نوعه! حتى اليوم لا أعرف ماذا كان ذلك الشيء الأخضر، وكأنه ملأ الشنطتين بأوراق شجر البتولا أو فتات القرنبيط.

وكيف وقف هناك بالتى - شيرت المبقع، فاغراً فمه وكأنه على وشك أن يتقيأ. اعتقدت أننى لا أسمع جيداً عندما بدأ مرة عاشرة يتحدث عن سرطان معدته. خياله محدود جداً ككاتب، محدود بطريقة مفزعة. هل قلت له مرة ذلك؟ وإذا كان بالفعل خبيراً بالصين وشوبنهاور كما يدعى... الواحد منا يعرف أقل من اللازم، هذه هى المشكلة. على الأقل أعفانى من سماع حكاية البرازيل مرة أخرى". تضع دانى قدميها أمام الكرسى على الشبشب الكبير المخطط بالبنى. "الواحد لا يستطيع حتى أن يطلب منه فرش المائدة. سيتلف شيئًا بالتأكيد، أما أدوات المائدة فسيبعثرها على المائدة بأى شكل. أتعجب من صبرك معه. أتعجب فعلاً. كل ما قاله إن لا شىء يربطه مع تلك المجنونة؟ وإذا كان يكذب عليك؟ وإذا كانت هناك شىء؟ ربما كانت تريد هى أن تنام معه؟"

"لا"، قال باتريك ساحباً شفتيه إلى الداخل. "بالتأكيد لا".

"من أين تعرف ؟".. تدعك دانى بقدمها اليمنى كعبها الأيسر ثم ترتدى الشبشب. "تيرى جاءت له براغيث مرة ثانية". تضع ساقًا فوق الأخرى. الشبشب الأيمن متعلق فقط بأطراف أصابعها. "كنت أسأل نفسى دائمًا كيف تهرب امرأة منك - دعنى أكمل كلامى - لتذهب إلى واحد مثله. أنا مندهشة فقط. كل مرة يظهر هنا أسأل نفسى كيف ؟"..

"ليديا ؟"..

"لا تكمل، من فضلك يا بات. لا تنطق اسمها هنا".

"أردت أن أقول إن لديها أسبابها". يتطلع برهة إلى دانى.

"بات". تدهس السيجارة في طبق فنجان. "عندنا واحد يقول بعد كل جملتين إنه خلاص زهق. هذا هو السيد إنريكو فريدريش الذى يعتقد أنه كاتب، وهناك آخر يجلس أمامه ويمسك بيده ويشرح له لماذا لا ينبغى أن يفعل ذلك. هذا حضرتك. أسبوعًا بعد أسبوع ترفع من روحه المعنوية، وتقول له إن الحياة مليئة بالأشياء الجميلة، وتحاول أن تنزع عنه الخوف. يمكنه أن يقدم طلبًا ويحصل على نقود للسكن، لديه تأمين، بل إنه يستطيع أن يقدم طلبًا ويحصل مجانًا على غسالة". تُبقى دانى أصابعها الثلاثة مرفوعة. "لكنه ينبسط عندما يفسد عليك كل الاقتراحات التى تقدمها له. هذه هى مهنته وهوايته. لا أحد، لا عمل، لا أصدقاء، لا شىء، لا شىء، لا شىء. أنا أعتبر ذلك مهينًا، على الأقل للموجودين أمامه. وفوق البيعة يملأ سرير غيره بالقىء، ويبكى وينوح لأنه وحيد. لو يقول له أحد: لعل أفضل شىء أن تفعل أخيراً ما تتحدث عنه طوال الوقت . يا إلهى، هل هذه معجزة؟ كما أنك لم تقل ذلك له. أنت ائتمنتها على ذلك، وبعدين؟ أنت لم تدّع أنك سعيد بالأمر. هذه سخافة! وفوق ذلك: إن أولئك الذين يتحدثون طوال الوقت عن فعل شىء، لا يفعلون أى شىء، الذين يريدون فعل شىء لا يتحدثون عنه. أم أنا مخطئة؟ أليس هذا صحيحًا يا بات؟"

"فى الغالب"، قال دون أن ينظر إليها.

"والآن ما زلت ترى أن لديها أسبابها؟ هل هذا سبب؟ أن يهجر الإنسان شخصاً عاش معه سنوات، فقط لأنه قال عن شخص يعرفه: إنه لن يفلح؟ بسبب ثلاث كلمات لها ما يبررها؟ ولا حتى عنده الشجاعة أن

ينظر فى وجهك. يكتب لها على ورقة "وداعًا"، وخلاص؟ كان عندك حق! اليوم أكثر من آنذاك! لن يفلح هذا البنى آدم فى شىء!" تمسك بخصلات شعرها عدة مرات وتشدها خلف أذنيها. "أنا فقط أوجه أسئلة يا بات، ليس أكثر، وما أعرفه، أعرفه منك. كل هذا حكيته أنت لى. أنا لا أخترع شيئًا! أو الفيلم الذى عملته بسبب التشيكية التى تنظف البيت، ومن أجل ذلك لم تستطع الآنسة شوماخر أن تنام طيلة عطلة نهاية الأسبوع - حلقات سوداء حول العين، وكأنك كسرت أصص زهور البنفسج التى تملكها. هل هى جريمة أن يكلف المرء شخصًا لينظف له البيت؟ لا أخترع كل ذلك يا بات، والناس لا تتغير". تمر دانى بأصابعها فى شعرها. "ماذا كنت ستفعل آنذاك إذا ضبطتها عند إنريكو، إذا كانت لم تزل هناك؟ لم أسألك أبداً عن ذلك، ولماذا اعتقدت أن الطفل سيحل كل المشاكل؟ أتريد من كل امرأة طفلاً؟ مثل قرود المعبد فى بانكوك؟ لا تريد سوى أن تفرض جيناتها".

يندفع باتريك فى الفوتيه إلى الأمام.

"أنا آسفة! آسفة. لا تريد أن تأكل شيئًا آخر؟ أنا عملت السلطة من غير لزوم".

يبقى باتريك جالسًا على حافة الفوتيه. يقول: "سأتصل غداً بالكهربائى".

"لماذا؟"

"لأن التليفزيون عطلان".

"ولماذا تريد أن تتصل أنت بالكهربائى؟"

"دانى ."..

"أنا أسألك: لماذا تريد أن تتصل أنت بالكهربائى؟ لماذا لا أفعل أنا ذلك؟"

"لأننى قلت إننى سأفعل ذلك. لقد وعدت تينو".

"وماذا ستقول للكهربائى؟ عليه أن يتصل بى؟ أم ماذا ستقول له؟ لا أفهمك. أنت لا تفكر فيما يحدث، لا أطلب منك أن تفكر فينا، ولكن على المرء أن يفكر ويتأمل فيما يحدث. هذا هو كل شىء".

تقرب دانى سيجارة جديدة من الشمعة. "أنت لا تقول أى شىء؟ فجأة انفجرت ينابيع التسامح عندك؟"

"وماذا ينبغى أن أقول؟"

"مثلاً، ما تقوله دائماً: إن بحاراً يموت عندما يشعل المرء شيئاً من شمعة ."..

"كنت أعتقد أنك لا تطيقين هذه العبارة؟"

"هناك ما هو أسوأ"، ترد. أثناء الكلام يتصاعد الدخان من فيها. "هل تعرف لماذا أحببتك من أول لقاء؟ لأنك قلت لى فى أول يوم فى غرفة التحرير: أنت تحبين أن تقفى هكذا".

تضع دانى طرف قدمها الأيمن على الأرض خلف كعبها الأيسر، والسيجارة فى فمها تنهض مرتكزة على المائدة ومسند الكرسى.

"أو هكذا". تضع طرف القدم الأمامية على الكعب. "صحيح؟ أنا في كل الصور تقريباً على هذا الوضع".

باتريك يومئ. تترك جسدها يتهاوى على الكرسي.

"قلت لنفسي، أخيراً وجدت رجلاً يدقق النظر. رجل يعرف أن المرأة تود أن تُعامل كامرأة، رجل لا أحتاج معه أن أعلق شهادة الليسانس في المطبخ حتى يفهم أنني أستطيع فعل أشياء أخرى". تحك داني إظفر إبهامها الطويل بفلتر السيجارة. "هل تعرف متى خيبت أملي فيك لأول مرة؟ عندما قال باير إن اسمينا لن يظهرا في الصحيفة، عندما كان الفاشيون والبانكس لا يتوقفون عن المشاجرات".

"وما زالوا".

"ولكنني أقصد آنذاك، عندما لم تكن تعترض على ذلك. عندئذ شعرت أنك خنتني. لستَ وحدك الذي فعل ذلك. آنذاك كنت على وشك أن أفقد كل أبراج عقلي، أنت تتذكر، بسبب عيون التماسيح؟ أما أنت فقد شلك الخوف".

"لم أكن خائفة على نفسي".

"أعرف، كانت قد انتقلت قبلها بقليل لتسكن معك. لو أنا مكانها، كنت طلبت أن يظهر اسمك. ألم تتعجب هي من الأمر؟"

"لا".

"فى رأيى علاقتنا جيدة لأننا نعرف بعضنا. الإنسان يكون عندئذ أكثر واقعية، التوقعات ليست ١٠٠٪، ربما ليس الحب الكبير جداً، ومع ذلك. يترك الإنسان الفرصة للحب كى ينمو. ثم تعاملك مع تينو، وأن كلينا لسنا كمعظم الناس الذين يفكرون أن عليهم تحقيق النجاح فى العمل حتى لا يكونوا وحدهم فى رأس سنة ٩٩" .

"دانى، أنا أريد مساعدتكما، سأرسل نقوداً، لتينو".

"ماذا تقول؟"

"فلوسك قليلة، وحدك مع الولد. مارتين لا يبعث شيئًا، أو ليس كثيراً على أية حال".

"أنت غير معقول يا بات، فعلاً غير معقول. هل أعطى تينو ١٠٠ مارك عندما يسأل عنك، أم ٢٠٠؟ كان ينبغى علىّ أن أقول مزق الجواب وارمه، أو فلنحرقه فى منفضة السجائر، فى هذه، أو فى ذلك الشىء هناك". تشير إلى جهاز التليفزيون. "ماذا كنت ستفعل إذا كنت طلبت منك ذلك؟ ماذا كنت ستفعل إذا كنت طلبت منك أن تمزق الجواب قبل أن تقرأه وأن تحرقه؟" بعد فترة صمت تضيف: "هه؟"

"دانى".

"أقصد أنه كان بإمكانى أن أتخلص منه، وألا أعطيه لك على الإطلاق، أو يضيع، فى أى دهليز من دهاليز البريد؟ رأيت اسم المرسل. لا تخجل من شىء. هل فكرت يومًا فى عواقب ذلك لو كان حدث؟ هل

أقول لك؟ لا ينبغى علىّ، أليس كذلك؟ عندما أطلب منك أن تفكر وتتأمل، أقصد مثل هذه الأشياء أيضًا. أنت نفسك قلت إن هذه المرأة مريضة - إلا أنك أردت أن تبرهن وبأى ثمن أنه يمكنك أن تعيش معها، أن توقظها، كما قلت أنت فى صياغة جميلة، أن تنجب أطفالاً منها، وأن تحيا معها حياة رائعة. هذا كان طموحك. أنت قلت إنك كنت تعرف أنها ليست سهلة. لقد شبهتَ علاقتك بها بأشجار سيبيريا، أشجار سيبيريا تنمو ببطء، ولكن إذا حاول المرء أن يقطعها بمنشار عادى فإنه ينكسر. أم أننى أخلط الأمور؟ طوال الوقت كنت أسأل نفسى: لماذا يحكى لى هذا؟ ربما يفكر الرجال على هذا النحو، ولكن لماذا ينبغى على أن أسمع ذلك؟ لا أريد أن أعرف شيئًا عن كل ذلك!" تنقر دانى بضعة مرات بأصابعها على رأسها. "أنا أحتفظ جيداً بكل ما أسمعه. كل شىء هنا، كل شىء. هل تعرف أنك حب ريفى؟ هل تريد أن تعرف معنى ذلك؟ لقد فكرت فى الأمر. هذا معناه ببساطة: فى ألتنبورج لم يكن هناك أفضل منك. أنت كنت الحل الاضطرارى بالنسبة إليها، طوق النجاة. الواحد يعيش مع شخص آخر لأنه إن لم يفعل لن يجد أحداً، هذا هو الأمر ببساطة، أما فى برلين الكبيرة، عندما تكون كل الاختيارات مفتوحة أمام ليديا شوماخر، فإنك مستبعد منذ البداية. هذا ما أرادت أن تقوله لك. أحتفظ بكل شىء فى ذاكرتى. لقد قضت على كل طموحاتك لأنها أظهرت لك من أنت. خطوة خطوة فككت الصورة، وكانت دائمًا لديها الحق، أطلقت عليك "الفشّار"، لم تقل هذا بلهجة حادة، وإنما عَرَضًا، وكأنها لا تنتظر منك شيئًا آخر، هكذا قلت. إلى أن فهمت أنتَ أيضًا أخيراً أنها

مريضة. امرأة تعاني من الصداع منذ خمس سنوات ... ماذا أقول أكثر من ذلك؟ ولكن هكذا هن المدللات الغربيات لا يتحملن شيئًا ..".

"لكنها ليست من ألمانيا [الغربية] ..".

"وإيه يعنى؟ إنها تتصرف مثلهن. إنها مريضة. حتى إنريكو أدرك هذا. منذ أن ألمحت له تلك المرأة، زوجة نائب البرلمان المحترم، هوليتشك هذه، منذ أن ألمحت له أن صواميل الآنسة ليديا شوماخر ليست كلها فى مكانها، حتى إنريكو أدرك عندئذ حقيقة الأمر. لأى سبب تعتقد أنها هربت منك؟ فقط لأنها خافت من هوليتشك، لأنها لا تستطيع أن تمثل أمامها. اسأل صديقك إنريكو، فهو قد فهم الأمر. لها نظرة ثاقبة، هوليتشك هذه، فهى محللة نفسية. هل نسيت كل هذا؟" تصب دانى شايًا فى فنجانها. "وأنتَ؟"

يهز باتريك رأسه نافيًا. تشرب دانى ثم تضع فنجانها.

"ومع كل ذلك كنت أحسدها. ما كنت تحكيه، قصائد غزل فيها، ببساطة. والله على رِجليها!"

"دانى!"

"لا تعجبك؟ فخذها أطول ثلاثة أو أربعة سنتيمترات، وحجمها أقل اثنين إلى ثلاثة سنتيمترات. هذا هو! كنت من اللياقة والكياسة لدرجة أن تقول لى: الله على رِجليها! شكرًا، على الأقل أعرف قيمتى عندك!"

"أنا آسف يا دانى".

"لماذا تعتذر؟"

"لأن الأمر يؤسفني".

"وما معنى هذا؟"

"أن الأمر يؤسفني".

"لا أفهم ماذا تقصد! أنا أسألك فقط: ما معنى هذا؟" تجذب داني طبق الفنجان إلى حافة المائدة ثم تدهس السيجارة. "هل تشرح لي ذلك من فضلك؟ هل يعني أنك كنت تحبني حتى ظهر أمس؟ ولكن منذ ظهر الأمس لم تعد تتحمل، لم تعد تتحمل تينو وتتحملني؟ هل هذا هو ما تقصده؟"

"ما أقصده هو أن الأمر يؤسفني"، قال باتريك. "كما أن وزنها زاد".

"إيه؟"

"كتبت أن وزنها زاد، حوالي عشرة كيلو ..".

"عشرة؟"

"... زيادة".

"آخ، عشرين رطلاً؟ ومنذ متى تحب السمينات؟ كان عليّ إذن أن آكل ما أشتهي بدلاً من الرياضة والساونا؟ سيان ما يفعل الإنسان، فإن ما يفعله خطأ – أيضاً ليس بالشيء الجديد".

"لم تفعلى شيئًا خطأ. ليس لهذا أيّة علاقة بك ..".

"ولا كلمة ثانية يا بات، من فضلك ..".

"ربما هو القدر. ربما هى ببساطة قدرى".

يسود الصمت إلى أن تهمس دانى: "أنا غبية". تضغط بكلوة يديها على عينيها وتقول: "ومثل هذا الرجل أحبه".

ينظر باتريك إلى شاشة التليفزيون التى انعكست عليها الغرفة كلها "الآن سينام"، يقول باتريك.

يقف على كعبى حذائه، ثم يقرب عدة مرات بين طرفيه. "سأتصل بك، ماشى؟"، قال ونهض. سار حول الفوتيه وأمسك بالحقيبة وشنطة السفر.

"مع السلامة يا دانى". نظر إلى الشبشب الكبير، إلى قرصة البرغوث عند كاحلها، ثم إلى ظهر يديها وأصابعها ذات الأظفار المطلية التى تخلو من الخواتم. عند خروجه احتكت سوستة شنطته بزجاج الباب المصنفر. ثم سمعت تكة القفل.

بقيت دانى جالسة. فجأة نادى طفل يؤكد على مخارج الحروف: "مو-ما، مو-ما". بعد برهة انفتح الباب. بللت دانى طرف الإبهام والسبابة بلعابها وأطفأت الشمعة. "مو-ما"، نادى تينو وهو يدخل متلفتًا حوله. يرتدى بيجاما بيضاء بدوائر زرقاء.

"فى إيه؟"، سألته دانى ومسحت أطراف أصابعها فى كمها، ثم نهضت. مد تينو ذراعيه. ترفعه دانى وتخرج به من الغرفة صافقةً الباب خلفها. باستثناء ضجيج التليفزيون من عند الجيران خيَّم السكون، وفجأةً يظهر كلب – لا أحد يعلم من أين أتى – كلب من فصيلة الثعلب، يجلس على كرسى دانى، ومنه يصعد على المائدة.

بنهم يفترس بقايا العشاء. يسمع المرء أصوات المضغ. لا يتوقف الصوت إلا عندما يبلع وهو يمد رأسه إلى الأمام. قبل أن يواصل الافتراس يلحس خطمه ناظراً إلى الباب. بين الحين والآخر يهرش فى عنقه بأصابع رجله الخلفية، بعد عدة دقائق يترك المائدة قافزاً على الفوتيه الرمادى الضخم، وفيه يختفى.

الفصل الثامن والعشرون

ثلوج وأنقاض

رافائيل، صاحب شركة التاكسي، يحكي عن متاعب يعانيها مع كاتب وموقد. إنريكو فريدريش يغير اسمه الأول ويريد كسر ساقه. جيران أشرار. حيثما يكون المرء سعيداً.

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة عندما عدتُ مع بِترا من لايبتسج حيث احتفلنا بعيد ميلاد أخيها. بحثنا عن ثغرة لركن السيارة. سرت على طول طريق شبرلينجسبرج حيث نسكن منذ أقل من نصف عام. بين الشجيرات التي تحيط بباب البيت اعتقدت أنني رأيت هيئة ترتدي معطفًا طويلاً – في منتصف أغسطس. عندما وجدنا مكاناً للسيارة ورجعنا للبيت رأيت الشبح مرة أخرى – هيئته توحي بأنه رجل.

"لا تفزعي"، قلت وجذبت ذراع بِترا، "مجنون يستعرض عضوه". لم تفهم. "مجنون يستعرض عضوه"، كررتُ مُخرجاً سلسلة المفاتيح. لم يكن هناك أي ضوء في مدخل بيتنا، ولا في مدخل البيوت الأخرى.

"مساء الخير"، يصيح صوت رجل. "لا يريد. لا يعجبه شيء". اقترب الشكل منا خطوة ورفع رأسه. ظل أحد ذراعيه ممدوداً وكأنه يشير إلى شيء أمام قدميه.

"السيد فريدريش؟"، سألت بترا.

"أحيانًا يمشي الحال .. واحد، اثنان"، قال الصوت. "ثم تقضي حاجتها. ولكن اليوم ... ستمطر قريباً".

"لا!"، صاحت بترا. "انظر. لم أر في حياتي شيئًا مثل هذا. قطة برباط". انكمش الحيوان أمامنا واختبأ في العشب، بينما لمع رباط رقبتها.

"الرباط عملي"، قال فريدريش. "لا تريد الخروج أبداً. إنها تفزع سريعًا. لكنني أحتاج إلى بعض الهواء النقي".

حتى على بعد مترين كنت أشم رائحة الخمر المنبعثة من فمه، ربما فودكا. برنس الحمام، بني في لون الصدأ وبه زهور، كان ينشر في الهواء رائحة طبية.

قرفصت بترا وحركت أصابعها. استدارت القطة أمامها ووقفت بالجانب. "ما اسمها؟"

"كيتي"، أجاب. "هي في الحقيقة قط، أو كانت قطًا".

"نعم؟"، نظرت بترا إليه ثم ثبتت نظرها على قدمه الأمامية. "ماذا فعلت في قدمك؟"

"كسر مضاعف"، قال مزيحًا البرنس وناقرًا على الجبس. "عظام هشة، كان الأمر جحيمًا!" خرجت من فمه أصوات ارتطام: "كلاك، كلاك". سرواله الداخلي الطويل كان مقصوصًا قبل الجبس.

"يا إلهي!"، صاحت بترا.

"فرن التدفئة"، قال شارحًا. "أردت أن أتخلص منه، هذا الفرن الأصيل، على عربة يد حاولت ذلك، ثم انزلقت قدمي و ..". أشار فريدريش بيده مقلدًا حركة الوقوع ثم ضرب بحافة يده على الساق المجبسة، وأصدر صوت فرقعه. "هكذا كما وقع ما زال الفرن في الممر".

"نحن احتفظنا بالفرن القديم"، قالت بترا.

ابتسم فريدريش. "ماحدش يعرف ..".

"نعم، ماحدش يعرف"، أجبته. "هذا هو الشيء الوحيد الذي سيعمل في حالة الطوارئ". رفع فريدريش زاوية فمه إلى أعلى وعض على شفته السفلى.

""نعم، هذا صحيح"، قال.

"لافتة اسمك على الجرس"، سألت بترا وكأنها تتكلم مع القط. "اعتقدت..".

"هاينريش ليس إلا الصيغة الألمانية لإنريكو. أردت أن أغير اسمي الآن. من الأفضل أن يفعل المرء هذا الآن، قبل أن تجيء".

"قبل أن تجيء؟"، سألت.

تفحصنى بنظرته. "الشهرة"، قال متردداً.

"ولكن إنريكو اسم جميل"، قالت بترا ناظرة مرة أخرى إليه.

"لقد اعتقدت أن أحد أقربائك انتقل ليسكن عندك".

لم يعد القط يهتم بذراع بترا الممدود وأصابعها المُداعبة.

"الصيغة الألمانية، ليس إلا"، كرر فريدريش مواصلاً العض على شفته السفلى. راح يحك الجبس فوق الرصيف وكأنه يريد أن يسوى شيئًا فى نعل الحذاء.

"هل تشعر بألم؟"، سألته.

"أما الأسماء الموضة فإنها لا تشى بأصلها اللغوى"، قال فريدريش. "ما يهمنى هو اللغة، ولا شىء غير اللغة".

"آه"، قالت بترا.

"لا"، أردف، "ليس لأسباب قومية، إطلاقًا".

"وفى أى شىء تعمل الآن ؟ فى شىء مثل آل بودنبروك (*) أم هاملت؟"

"من الأفضل أن تتركى كيتى فى سلام. ستمطر قريبًا". نهضت بترا على الفور.

(*) رواية "آل بودنبروك" من أشهر روايات الأديب الألمانى توماس مان [١٨٧٥ – ١٩٥٥]، وعنها نال جائزة نوبل عام ١٩٢٩. (المترجم)

"أتتبع عدة أهداف فى وقت واحد"، قال فريدريش مفسراً. "هذا يدفع بالأمور إلى الأمام. لكنهم لا يحبون أن يصر المرء على مبادئه. الناشرون لا يحبون ذلك".

بترا تومئ. "لقد جربت الكتابة أنا أيضاً".

لبرهة أخذنا نراقب القط وهو يخطو فوق العشب.

"تصبح على خير"، قالت بترا مادةً يدها إلى فريدريش.

"تصبح على خير!"، قلت أنا أيضاً.

فأجاب: "وأنتم من أهله".

عندما استلقينا لننام بدأت بالفعل تمطر. سألت نفسى إذا كان مازال فريدريش بالخارج مع قطه لأننى لم أسمع أى صوت على الدرج.

قالت بترا إن علينا نحن أيضاً أن نتخلص من فرن التدفئة الصغير وأن نرتب قبو الفحم. قبل أن ننتقل لنسكن هنا قمتُ بترميم الشقة كلها وتجديدها، وأردت أن أحتفظ بالفرن على أية حال لأن الفحم انتقل إلى حيازتنا أيضاً.

قلت لها: "فريدريش مزود العيار حبتين".

"كعادته"، قالت بترا. "ولكنه الآن يغتسل أيضاً بالكحول الطبى".

"بالضبط. الكحووول الطبييى"، قلت محاولا تقليد طريقة كلامه.

بدأت المتاعب مع فريدريش - الذى لم يعد يسمى إنريكو - نهاية سبتمبر، فى يوم أربعاء. فى العصر اتصلت بى بترا فى مقر شركة

التاكسى. طلبت منى المجىء فوراً. كنت وحدى فى المكتب فسألتها كيف تتخيل أن أترك المكتب وكل التليفونات من غير أحد يرد عليها، أجابت أن كل شىء بالنسبة لها سيان وأنها لن تضع قدمها خارج باب الشقة، ثم ألقت السماعة بغضب. منذ تحسن الأوضاع فى الشركة وبخاصة منذ انتقالنا من شمال المدينة للسكن فى شبرلينجسبرج أصبحت مثل هذه الشجارات بيننا نادرة، أيضاً لم نعد نذكر كلمة الطلاق.

عندما عدت فى الساعة السادسة إلى البيت كانت بترا راقدة بالعرض على سريرنا فى غرفة النوم. كل ما فهمته أن أحداً كان ينتظرها على الدرج وسألها عما إذا كان بمقدورها أن تكسر قدمه، لم أعرف عن أى شخص تتحدث.

"فريدريش"، صرخت بترا، "فريدريش، مَن غيره؟"

فى مثل هذه الحالات تبرز عظام وجنتيها ويصبح بإمكان المرء أن يرى عروق صدغها، لوهلة كانت تشبه تلك البوسنية التى طبعوا صورتها فى صفحة المحليات لأنها قفزت من نافذة بيت اللاجئين.

حاولتُ ضمَّ بترا أو على الأقل الإمساك بيدها. فى تلك اللحظة ظهر دافيد فى الممر فى طريقه إلى المطبخ. كان آنذاك فى السادسة عشرة. سمعت باب الثلاجة ينغلق، ثم عاد إلى غرفته دون أن ينظر إلينا نظرة واحدة. بكوعه سحب الباب خلفه. على الأقل خفَّض من صوت الموسيقى.

"فريدريش كان سكران على الآخر"، قالت بترا. "كنا نقف متواجهين عند الباب وسألنى هذا السؤال! باعتبارى مدرسة أحياء فأنا

بالتأكيد أعرف ..". وأجهشت بالبكاء فقبلت يدها المرتعشة. "بالتأكيد أعرف. على أن أشير له على الموضع الذى يسهل فيه الكسر، لكنه لم يقل الكسر، بل عمل بلسانه صوتًا يشبه: طق. شىء مقرف!"

"هكذا"، وقلدت الصوت.

"آه"، صاحت بترا وتقوقعت على نفسها من الاشمئزاز. فى غرفة المعيشة قدتها إلى فوتيه متناولاً يدها بين كفى.

"إنه يعتقد أننى أفكر فى الأمر ..".

"ولماذ يريد ذلك؟"، سألتها محاولاً أن أمنح صوتى نبرة هادئة وعميقة.

"هذا ما سألته أيضاً"؛ أجابت وتعلقت بعنقى، فمها على أذنى. "لكنه بدأ ثانية يقول إن من الصعب على الواحد أن يفعل هذا بنفسه، وأنه لا يفهم فى علم وظائف الأعضاء، تخيل هذا!"

أمسدُ ظهر بترا. "ربما يريد أن يسجل نفسه مريضاً فترة أخرى"، قلت لها. "يريد أن يقبض تعويضاً عن المرض، ويستفيد بالوقت فى كتابة الروايات".

حاولت التخلص من عناق بترا، لكنها تشبثت بى. كان كتفاها يضغطان على نقنى ويرفعانه إلى أعلى، "وعلى ألا أتحدث مع أحد، ولا حتى معك"، أضافت. ثم بعد فترة صمت قالت هامسة: "غداً يأتى ..". رفعت أنفها عاليًا، وحبست أنفاسها. صاحت: "يا إلهى!" كان وقع كلماتها كأنها مصابة بزكام.

قالت بترا إن فريدريش قد أطلق لحيته الآن، وجهه انتفخ أكثر، ولكن بدون جبس، إلا أنه لا يُرى سوى بالبرنس، "وهذه العفونة!"

"كحول طبى؟"

أومأت. "وخمرة".

"لا تحملى همًا"، قلت لها عندما استطعت تحريك الرأس مرة أخرى. احتسينا كأسًا من الكونياك ثم ذهبت إلى الطابق الثالث.

"هاينريش فريدريش" كان مكتوبًا بحروف مطبوعة تحت جرسه. بعد الرنة الأولى - كلينج كلونج - لم يحدث شىء. بعد الثانية بدأت مكنسة كهربائية تشفط الغبار فى الشقة المجاورة مصطدمة عدة مرات من الداخل بباب الشقة، بعد نصف ساعة صعدت مرة أخرى ودققت الباب. لم أكن متأكدًا: هل لم تكن المشاية أمام الباب موجودة أيضًا فى المرة الأولى؟ خلفى فتحت السيدة بودين بابها ومسحت العتبة، فحيينا بعضنا البعض بإيماءة رأس.

حوالى العاشرة مساءً جلست بجوار باب الشقة حتى أشعر بفريدريش إذا نزل هو وقطه.

سألنى دافيد إذا كنت أحتاج إلى مساعدة. "شهادة عجز - هذا هو بالطبع ما يريدونه!"، قال لى. "هم فاكرين نفسهم إيه؟"

سألته من يقصد بـ"هم". أشار بإبهامه إلى أعلى: "كل المخرفين، فريدريش وأمثاله".

استلقت بترا على الفراش وانهمكت فى القراءة. كنت أسمع الصفحات وهى تُقلب. فجأة وقفت كطفل أمامى وقالت: "أنا خائفة". أحطت خصرها بذراعى وجذبتها إلى حجرى. أبقيتها حتى شعرت بالخدر يسرى فى قدمى.

فى عصر اليوم التالى ذهبت لاصطحابها من المدرسة وأوصلتها بالسيارة إلى المنزل. شباك التواليت لدى فريدريش كان مفتوحًا قليلاً، إلا أنه لم يفتح الباب. فى الأسابيع التالية أيضًا لم يظهر. من السيدة هارتونج التى تسكن فوقنا عرفت أن فريدريش يذهب للتسوق كل ثلاثاء وجمعة وهو يجر أمامه عربة صغيرة، فى كل مرة يجد صعوبة بالغة فى حمل أكياسه المليئة بالزجاجات على السلم.

فى أحد أيام السبت فى منتصف نوفمبر فككت فرن التدفئة الصغير إلى أجزاء ، القيشانى وبلاطات الفخار وماسورة التهوية والدواسات والقصدير والباب والشبكة الحديد، كل هذا كومته فى الجزء المخصص لنا فى القبو، ثم ألقيت بالباقى فى حاوية القمامة. لم أكد أنتهى من الدش حتى سمعت جرس الباب.

وجه فريدريش كان متورمًا . التصق شعره على رأسه ولمع وكأنه عائد لتوه من المطر. من خلال لحيته السوداء لمحت ذقنه يبرق فى شحوب. حول عنقه شال أحمر وفى كلتا يديه مظروف سميك.

"زوجتك تريد قراءة هذا"، قال. شكرته. من تحت البدلة الرياضية برز صدره وبطنه. أومأ برأسه واستدار. قدماه فى شبشب وبدون

جورب. النعل الأزرق المخطط بالبرتقالى - الذى كان يصطدم بكعبه ثم بدرجات السلم - كان يبدو مثل الخطوط التحذيرية المعلقة خلف الشاحنات.

"فريدريش"، قالت بترا دون أن تنظر. كانت تجلس فى الفوتيه وبين ركبتيها المكنسة الكهربائية.

سحبت المخطوطة من المظروف. "صمت"، كان مكتوبًا على الصفحة الأولى، وتحتها، بخط أصغر قليلاً: رواية. ثم، بخط أكبر مرة أخرى، هاينريش فريدريش.

ياله من كلام فارغ! لم أفهم حرفًا. فتحت مخطوطته فى عدة مواضع مختلفة، لم أدرك معنى جملة واحدة. أقصد لم أكد أجد جملاً، فقط كلمات مرصوصة بجوار بعضها البعض، وبينها تصحيحات بخط اليد. فى بعض الأحيان أعاد فريدريش كتابة فقرة بأكملها بخطه الردىء على الهامش. أعطيتها لبترا. على المظروف كان اسمه مشطوبًا. فى الأسفل يسارًا كانت هناك آثار ملصق أزاله فريدريش.

"إنه يقضى وقته الآن فى مثل هذه الأشياء"، قالت بترا.

نظرت مرة أخرى داخل المظروف. لم تفتنى رؤية شىء.

"لا أعرف"، أجابت بترا عندما سألتها عما قرأته للتو. "لا أستطيع أن أقول لك، مهما حاولت!"

هذا بالضبط ما حدث معى.

"ما قرأته يفسد المزاج الجيد"، قالت. "لابد أن نشرح له أن هذا لا ينفع".

"هل تعتقدين أن لا موهبة لديه؟ ربما يستطيع أن يكتب شيئًا جميلاً؟"

"لا أعتقد"، قالت. "ليتنى لم أرم ما كتبته. لم تكن أشياءً سيئة، على الأقل لم تنقصنى الموهبة، هكذا قالوا لى. كانت ستعجبك بالتأكيد".

سألتها ماذا تعنى بذلك.

"كانت شيقة مثيرة. القارئ كان يود دائمًا أن يعرف بقية الحكاية".

فى الأيام التالية كان المرء يسمع دائمًا صوت فريدريش على الدرج. يتخلص فيما يبدو من الكراكيب. مساء الثلاثاء لم أستطع إغلاق حاوية القمامة المخصصة للورق والكارتون مع أنها أُفرغت يوم الاثنين. على السطح كان هناك ملف فارغ قرأت عليه: إنريكو فريدريش – القصائد. على آخر: إنريكو فريدريش – الرسائل. بالإضافة إلى ذلك صحف ممزقة، كتيبات، نسخ وأوراق مكتوبة بخط اليد – "القطة لا تفارق النور"، استطعت بعد لأى أن أقرأ العنوان. كان يفك مدفأته أيضًا. من خلال عين الباب السحرية كانت بترا تراقبه وهو ينقل جرادل مليئة بالردم ومخلفات البناء ما بين التاسعة والعاشرة مساءً. قالت لى إنه يهيئ مكانا لبداية جديدة، وأن مخطوطته حاليًا فى الحفظ والصون عندنا وسط الفوضى السائدة لديه فوق. "إذا احتاج إليها فسيأتى".

ظهر يوم السبت الرابع قبل عيد الميلاد، عندما حدثت الحادثة، كانت السيدة هارتونج تمسح السلم. ادعت فيما بعد أن فريدريش نظر فى عينيها أثناء سقوطه. كنت جالساً فى المطبخ أقرأ الصحيفة. أفزعتنى صرخة هارتونج وصدى الدرابزين. برونج - برونج - برونج، هكذا دوى صوت الدرابزين، لكى يكون المرء فكرة عن الصوت لابد أن يخبط بقبضته عليه عدة مرات.

كان فريدريش راقداً تحت النافذة على آخر درجات المدخل، وجهه إلى أسفل، ساقه اليمنى مقوسة فى وضع غير طبيعى، لم ألحظ الدم إلا بعد برهة. كان يسيل من الفم والأنف. عينه اليسرى كانت مفتوحة، أما اليمنى فلا تُرى. لم يرد أحد أن يلمس فريدريش.

اتصلت بالإسعاف. كانوا يعرفون بالموضوع وبعد قليل وصلوا بصفارتهم المميزة وضوئهم الأزرق، بعد عشرين دقيقة انطلقت السيارة مرة أخرى، بدون فريدريش. كيف فعل ذلك - أن يقع ويهبط طابقًا ونصف طابق - كان ومازال بالنسبة إلى لغزًا. الدرج صغير جداً، وبالتالى لا يكاد يوجد بئر السلم. بالإضافة إلى ذلك لابد أن رأس فريدريش قد شُجت على نحو تعيس تماماً.

الشرطة الجنائية أغلقت شقته بالشمع الأحمر. سألوا كل سكان العمارة. فى هذه المناسبة تخلصنا من المخطوطة والمظروف.

لأول وهلة اعتقدت أن فريدريش لاحظ ولاشك أنه لا أحد يريد أن يقرأ التخاريف التى يكتبها، ولهذا رمى نفسه من على السلم ورأسه

لأسفل. إلا أن بترا قالت إن هذا ليس سببًا كافيًا للانتحار، لقد توقفت هى الأخرى عن الكتابة وبحثت عن شىء آخر. "لابد أنه كان يريد أن يكسر فقط إحدى ساقيه"، قالت. "على حسابنا جميعًا، ولكن مَن يتصرف على هذا النحو السيئ ..".

عندما جاءت سيارة القمامة لم تفرغ الحاوية التى وضع فيها فريدريش مخلفات مدفأته القديمة، ولا فى الأسبوع التالى أيضًا. قالت السيدة هارتونج إن الحاوية ثقيلة جداً، حتى الرافعة الهيدروليكية لم تفلح فى رفعها.

بعد عدة أيام وجدت رسالة بلا طابع بريد فى صندوقنا. السكان كلهم وقعوا.

"لا أصدق"، صاحت بترا. "لا أستطيع أن أصدق". كان علينا أن نقوم بنفسنا بإفراغ الحاوية لأن الشركة التابعة لها عمارتنا لا ترى سببًا يدعوها لدفع تكاليف التخلص من مدفأتنا القديمة. ليس هذا معتاداً هنا. هذه الجملة كانت إسقاطًا واضحًا علينا لأننا انتقلنا للسكن هنا قبل عام فقط.

""فرجهم على بلاطات القيشانى فى القبو. فرجهم!"، صاحت بترا. "الوضع هنا يزداد سوءًا يوما بعد يوم، يوما بعد يوم!" جلست على الفور وشرعت تكتب رسالة. كان رأيى أن أمر بهم شقة شقة وأشرح لهم أن البلاط فى الحاوية ليس بلاطنا، إننى ربما أكون قد ألقيت بين الحين والآخر عدة بلاطات، ولكن كل البلاط تقريبًا مرصوص فى قبونا. ثم

رحت أفكر كيف كتبوا تلك الرسالة ، هل جلسوا معًا ؟ أو مر شخص من شقة إلى أخرى؟ ومن الذى قام بالمبادرة؟ وكيف كانوا يتكلمون عنا؟ وفكرت أن كل ما سيفعلونه الآن - بعد أن وقعوا جميعًا دون أن يفكروا فى الأمر - أن يجمعوا الحجج ضدنا حتى يبرروا تصرفهم. تناهى إلى سمعي كيف كانت بترا تمزق الورقة تلو الأخرى، لم يكن هناك جدوى.

فى اليوم التالى كانت حاويات القمامة جميعها - باستثناء تلك التى تحوى بلاط فريدريش - مربوطة بسلسلة وعليها قفل. كما يبدو، لديهم جميعا مفتاح، ما عدانا. أيقظتنى بترا يوم الأربعاء التالى قبل السادسة بقليل. ارتديت الحذاء الرياضى والأفرول الذى كنت استخدمه أثناء ترميم الشقة. الثلج يهبط لأول مرة هذا العام. من الخارج أتى السيد بوبين حاملاً سلاسل وأقفالا في يديه. من الواضح أنه يتولى شؤون البلوك كله. تبادلنا النظرات دون تحية.

انتظرت تحت سقف مدخل البيت ورحت أتفرج على العاملين كيف يدفعان حاوية بعد الأخرى إلى ذراع السيارة الشبية بالشوكة، ثم ينزلان ذراعا أخرى تحكم القبض على الحاوية. فى البداية تُرفع الحاوية رأسياً بعض الشيء، ثم تُرفع لأعلي بنصف استدارة، بينما تكون عجلات الحاوية تجاه السماء ينفتح الباب تلقائيًا فوق فوهة العربة وتفرغ محتواها.

تخيلت الحاوية التى تضم مخلفات فريدريش فى الهواء وكأن الرافعة الهيدروليكية تعجز فعلاً عن رفعها، لم يستطيعا أن يرفعا الحاوية

سنتيمترًا واحدًا عن الأرض. حاولا مرة ثانية، فى النهاية دحرجاها إلى مكانها ورفعا الأخيرة على الشوكة.

توجب علىّ الصراخ حتى يسمعانى وسط هدير السيارة. أخرجتُ ورقة بخمسين ماركًا من المحفظة، لكنهما هزا الرأس نفيًا. ظللت أرفع الورقة وقلت إن عليهما أن يأخذا النقود. لابد أن نفكر فى فعل شىء. كانا يرتديان طاقية صوفية وأفرولاً أصفر ذا "كبوت". قالا إن عليهما أن يكملا العمل. أعطيتهما ورقة أخرى بخمسين.

ساعدانى على الصعود وناولانى فأسًا وجاروفًا. كان البلاط قد بدأ يتجمد. رحت أنهال عليه بالفأس. أما البلاط الهش فقد جمعته بيدى وألقيت به فى حاوية فارغة دفعاها بالقرب منى. حاولت بالجاروف، ولكن معظم المخلفات كانت تنزلق إلى أسفل أو تذروها الريح. صرخت فى الرجلين أن يرفعا "الكبوت" فوق الطاقية، بسبب الوساخة، لم يتحركا وظلا يقفان بظهرهما إلىّ ويدخنان. هبط الثلج فى "الكبوت" المتدلى.

أخذت أكسر وأقلب وأحمِّل بالجاروف. فكرت أننى لو وجدت تحت المخلفات جيفة القط، فإن هذا ربما يدعم نظرية الانتحار، أو أن فريدريش أعطاه لأحد قبل ذلك. من المحتمل أيضًا أن تكون الشرطة لم تره فى الشقة وحبسته ببساطة. سقطت بلاطة من الجاروف وانكسرت فوق أسفلت الشارع. التفت الرجلان حولهما. جمع كل منهما بعض البقايا وألقيا بها فى الحاوية الفارغة، ثم استدارا ثانية وواصلا التدخين ونظرت مرة أخرى فى "الكبوت". هدير العربة كان يصم الآذان. ليس من

المعقول أن يكون المحرك وحده هو السبب، ربما هناك ماكينة تضغط على القمامة وتهرسها. نويت أن أسأل عن ذلك عندما أنتهى.

بجهد جهيد كنت أنجز شيئًا، لكننى كنت أتقدم. يمكننى القول إننى أصبحت أمسك بزمام الأمر، مما منحنى شعوراً بالهدوء. نعم، بل لقد انتابنى شعور طيب وأنا واقف هنا فى الأعلى، ربما لأننى أتخلص من إحدى المشاكل فى العالم. المسألة مسألة وقت فحسب. فجأة بدا لى كل شىء سهلاً وقابلاً للحل. كاد يتملكنى شعور بالزهو، وكأن شركة التاكسى ليس لها وجود، لا هى ولا الديون، لم أفكر فى بترا التى وقفت خلف ستارة غرفة المعيشة، ولم أفكر فى دافيد النائم، ولا فى فريدريش التعس، ولا فى الجيران السخفاء. كانت لحظة من لحظات السعادة التى يعتقد فيها الإنسان أنه قادر على إنجاز كل شىء، وأن بإمكانه أن يجمع أشياءه ببساطة، ويرحل ، وحده ، أو مع أورلاندو ، أو مع امرأة تبدو كتلك البوسنية. مصمصت بلسانى مُصدراً أعلى طقطقة فى حياتى، حتى إن أحد الرجلين التفت إلىّ. قهقهت وزأرت أن عليه أن يرفع كبوته أخيراً. أشاح بوجهه بعيداً، وواصلت أنا التجريف، ثم انهلت على المخلفات بالفأس. ولكن حالما أرفع رأسى كنت أنظر مباشرة فى كبوت جامعى القمامة. كنت أستطيع رؤية الثلج وهو يتجمع ويتكاثر، ويتكاثر، ويتكاثر.

الفصل التاسع والعشرون

أسماك

جينى تحكى عن وظيفة جديدة وعن مارتن مويرر. الرئيس فى العمل يعطى تعليماته. أين بحر الشمال؟ كل شىء يسير فى البداية على ما يرام. جينى تبذل جهدها كى تكون مقنعة. ماذا حدث للأسماك أثناء الطوفان؟ فى النهاية تتصاعد أنغام آلات النفخ.

وقف بين كرسيين مرتدياً سروالاً رياضيًّا، وراح يحاول أن يحشر نفسه فى بدلة الغوص، البدلة ذات الخطوط الحمراء التى حاولتُ بالأمس أن أقيسها؛ أما تلك ذات الخطوط الزرقاء فكانت ملقاة على المنضدة. تصافحنا. قال: "مارتن مويرر"، وقلت: "جينى".

قال: "الأخرى أصغر مقاسًا"، ثم أضاف "ولكن الزعانف جيدة". أعطيت له ظهرى وخلعت ملابسى. أثناء ذلك انحل زر من جاكتتى. دخلتُ فى بدلة الغوص وسحبت القلنسوة على رأسى. لم يعد يظهر

لا شعرى ولا أننى ولا رقبتى؛ أما وجهى فيبدو منتفخًا. جمعت أشيائى وانتظرته حتى ينتهى أخيراً من ارتداء الزعانف.

فى يده اليمنى حمل كيسه البلاستيكى، وفى اليسرى نظارة الغوص وأنبوب التنفس، ثم أخذ يمشى على الممر بحذر كطائر اللقلق متوجهًا إلى مكتب كِرندل. خبّط على الباب مرتين، فقلت له أن يفتح الباب. جلسنا على الكرسيين إلى يسار الحائط وانتظرنا.

"أبدو كراهبة"، قلت له.

رد قائلا: "لا. بل مثل مقدمة البرامج التى ترتدى بدلة رواد الفضاء. هل لديك خبرة فى ذلك؟"

أتساءل: "فى ماذا؟"

– "هذا. لقد انتهيت بسرعة".

– "كنت بالأمس هنا. لكنهم لا يتركون المرء فى حاله أبداً".

– "الجو دافئ جداً".

– "قدماى باردتان".

– "قدماى باردتان أيضًا، ولكن عدا ذلك

"أهلا جينى" يصيح كرندل، "كيف حالك؟"

ننهض. "مويرر"، يقول معرفا بنفسه وهو يدس كيس البلاستيك بين ركبتيه. "مارتن مويرر".

يصافحه كرندل. ونجلس ثانية. يتكئ كرندل على المكتب، ويتناول ورقة ويقلبها. يحكي ما حكاه بالأمس.

- "ثم تسألون: أين يقع بحر الشمال (*) ؟ أو: هل يمكن أن تقول لنا أين بحر الشمال؟ أو: كيف أصل إلى بحر الشمال؟ لكم حرية الاختيار، ولكن لابد من بحر الشمال، واضح؟"

"نعم"، أقول، "ليس هناك مشكلة".

يتطلع كرندل ناحيته. "واضح؟"

"واضح"، يجيب مارتن وهو يلعب بالزعنفة اليمنى فوق البساط.

أقول: "وعلينا دائمًا أن ننشر جوًا لطيفًا مرحًا".

"وباستمرار!" رد كرندل، "وإلا فالأحسن أن تبقوا في بيوتكم".

يقترب أكثر من حافة المكتب ويتأمل يده الشاحبة التي تحرك الورقة على فخذه إلى أعلى وأسفل، وكأنها اسفنجة استحمام. كانت الورقة على شكل تذكرة دخول كبيرة. على جزء منها مقسم بخط منقط "اقطع هنا واحتفظ بالتذكرة" طُبع جزء من خريطة المدينة. السمكة الحمراء تشير إلى موقع الفرعين. على الجزء الأكبر من الورقة صورة لصحراء لونها بني فاتح موّج الريح رملها، وفوق الصورة بالخط الأبيض على خلفية

(*) "بحر الشمال" سلسلة من المطاعم المتخصصة في تقديم وجبات وسندوتشات من الأسماك. (المترجم)

سماء بسحب تختلط زرقتها باللون البنفسجي الفاتح: "أين بحر الشمال؟"

"وإذا كان الرد: لا؟"

فأجبت: "نقول: نحن نعرف. رقم ١٠ أ ورقم ١٥ في شارع المدرسة!"

– "هل تسمحون أن ندعوكم إلى سمك؟ وجبة شهر مايو! ثم نوزع الورقة".

"الإعلان"، قال كرندل مصححًا. "وإذا كانت الإجابة بنعم؟" ونظر كرندل إلى مارتن.

"كيف نذهب إلى هناك؟"، أجاب وهو يلعب بزعانفه من جديد.

"جيني؟" قال كرندل "ما ردك على 'نعم'؟"

أجيب: "رائع! هل تصحبنا إلى هناك؟"

"هل فهمتم الآن؟" يحملق كرندل في مارتن إلى أن يجيب بنعم. عندئذ يسأله أن يتلو مكونات وجبة مايو: "سمك موسى مقلي، وبطاطس مسلوقة عليها بقدونس، وسلطة مشكلة، وصلصة المايونيز، وثلث لتر كوكاكولا. بدلاً من ٤٠ . ١٥، الآن بـ ٩٥ . ١٢ فقط!"

"كل شيء مكتوب هنا"، قال كرندل. "ولكن لا تقرأوا من الورقة. هذا لا يليق. لا قراءة. مرة أخرى!"

أقول: "سمك موسى مقلى، وبطاطس مسلوقة مرشوش عليها بقدونس، وسلطة خضراء، وصلصة المايونيز. ومع الوجبة كوب كبير من الكولا، فقط ٩٥ . ١٢".

"بدلاً من ٤٠ . ١٥"، يكمل كرندل. "سلطة مشكلة، وثلث لتر كوكاكولا. البسوا النظارة، والآن تكلموا. تكلموا، تكلموا، تكلموا .."..

سألت: "كيف أصل إلى بحر الشمال؟ هل تعرف أين بحر الشمال؟"

أشار كرندل ناحيته.

"أى شارع يقود إلى بحر الشمال؟ أريد بحر الشمال! يا جمال البحر! هل يمكن أن تساعدنى؟"

"الكلام طالع من الأنف، كلاكما أخنف، فلنجرب بدون نظارة"، قال "لا، لا تخلعا النظارة. على الجبين! ارفعا النظارة!" دق التليفون ثم خرس بعد الرنة الثانية. "وهذا تمسك به هكذا، هكذا". نهض كرندل وشد أنبوب مارتن إلى أسفل. "إلى أسفل أكثر! هكذا! الإعلانات يجب أن تكون قليلة فى اليد، دائماً. أربعة أو خمسة على الأكثر، لا نريد تضخماً، مفهوم؟"

تومئ بالموافقة.

"وماذا حدث للأسماك أثناء الطوفان؟"، تساءل كرندل مصفقًا بيديه، ثم أحاط كتفى بذراعه وجذبنى إليه. "إذن، فلتبدأ". وذهب إلى مكتبه ورفع سماعة التليفون. ثم هتف خلفنا: "بالتوفيق!"

تركنا أكياسنا فى الدولاب عند السكرتيرة، واستلمنا شنطة تعلق على الكتف وبداخلها الأوراق.

"كل شيء تمام؟"، سألتني. "في كل شنطة ألف". وفتحت الباب لنا قائلة: "من هنا، تفضلوا".

أمام المدخل الجانبي ظل مارتن واقفًا يتطلع إليّ، ثم قال:

– "لابد أن نبادر بالحديث مع كل شخص، كل امرأة وكل رجل، منذ البداية، وإلا كان الفشل من نصيبنا. إذا تهاونا مرة ..".

أقول لنفسي، لعله عمل مدرسًا في السابق، لم أكد أغلق الباب حتى يبدأ في إلقاء دروسه. نظر صبيان إليه، لا يتجاوز عمر كل منهما الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة على أقصى تقدير. "إيه إنتم مش عارفين؟" يتفحصان زعانفنا، ثم الشنطتين. "عاوزين نروح بحر الشمال"، أقول لهما. يهزان الرأس بالنفي. "آه، يا جمال بحر الشمال!"، يقول مارتن، ثم يضيف: "هيا، قولوا لنا". أخيراً يتناول كل منهما الورقة.

نسير في اتجاه منطقة المشاة. أقول له: "ليس من الضروري أن نخاطب مثل هؤلاء الأطفال". "مراهقون"، يرد وهو يومئ برأسه.

بعد ذلك يكون التوفيق فعلاً من نصيبنا. ننسجم بسرعة. في معظم الأحيان أبدأ أنا، ثم يواصل هو إلقاء الأسئلة: "نعم، إلى بحر الشمال!" "بالضبط، بحر الشمال"، أقول، أو: "فعلا لا تعرف؟" ثم يقول: "إذن تريد أن نكشف لك السر!" وبعد فترة صمت قصيرة ننطق معا بالعنوان. ويضحك الناس وبلا تردد يأخذون الورقة.

فجأة يقول مارتن: "أنا آسف. كانت هذه سخافة مني". لا أعرف ماذا يقصد. "إننى تمنيت لهم شهية طيبة". أجيبه بأننى لا أجد فى ذلك شيئًا سيئًا، وأردد أنا أيضًا "شهية طيبة" إذا جاء علىّ الدور لتوزيع الأوراق. أحيانًا يرد البعض: "لكم أيضًا" أو "نفس الشىء".

يقول: "عندما نتحدث إلى الناس يستيقظ فضولهم بحق. بل إنهم يفرحون تقريبا". ثم يضيف: "إنهم يشعرون بالألفة معنا".

بمجرد أن يلتف حولنا عدة أفراد فإن الآخرين يجيئون من تلقاء أنفسهم. أحيانًا يتزاحمون حولنا، عندئذ نوزع الأوراق على الأيدى الممتدة.

"هل أرسلَ مَن يراقبنا؟"، يسألنى بصوت خافت.

"بالتأكيد". أجيبه.

– "لقد حاولت أن أبدو حيويًا مثلك. لكن ذلك لم يقنعه".

– "أنت لم تتوقف عن تحريك زعانفك".

– "ماذا؟"

– "أنت لم تتوقف عن اللعب بزعانفك، هكذا"

وبينت له ما كان يفعل.

– "ألم تلاحظ ذلك؟"

هزّ رأسه نافيًا، ثم قال:

– "ربما لذلك كان يتصرف هكذا!"

– "إنه هكذا. وهو أمر لا يمكن تغييره".

في المكان الذي تتلاقى فيه منطقة المشاة بميدان القصر كانت فرقة لآلات النفخ تقف أمام خيمة بيضاء ذات قمة عالية. بدا المنظر شرقيًا. إلى جانب الخيمة كان عاملون في التليفزيون يجرون حوارًا مع رجل يرتدي جاكتة زرقاء وعليها ملصق دائري أصفر اللون، مكتوب عليه: "اللحم البقري الألماني: نحن نضمن الجودة". كان العازفون يحملون أيضًا الملصق نفسه، وكذلك النساء اللاتي كن يحمّرن قطع اللحم والسجق. في كل مكان أرى الآن أشخاصًا بملصقات اللحم البقري. كانوا يوزعون أوراقًا أكبر من تلك التي نوزعها.

سألني: "هل لديك استعداد للعمل مع هؤلاء؟"

– "نعم. أم أنك ترى ما نقدمه رائعًا؟"

– "لا أعرف. قطعة السمكة تبدو على الصورة ميتة، ربما كالصخر، ثم فقط ١.٤٥ أرخص. هل هذا الفارق يحمس الناس؟"

عندما سألته من أي مدينة هو، أجاب باقتضاب:

– "من الشرق. من تورينجن". وقال إنه يزور أمه هنا، ثم أضاف: "كرندل لم يعد يتحدث عن الدفع، عن الـ ١٢٠ في اليوم".

– "لابد أن يلتزموا بما قالوه. هذا ما كان مكتوبًا في الإعلان".

أومأ برأسه. ثم فجأة قال:

- "ورقة واحدة تكفى لكل عائلة".

فى البداية ظننت أنه يمزح، ثم قلت له: "لأصدقائهم ومعارفهم".

- "عندك حق. إذا سارت الأمور على هذا النحو فسننتهى عند العصر".

علينا أيضًا أن ندخل المحلات فى منطقة المشاة، ولكن حتى إذا لم نبادر الناس بالكلام، فإنهم كانوا يظلون واقفين ويمدون أياديهم. دون استراحة واصلت الفرقة الموسيقية العزف.

قال: "أنت ذكرت من قبل حكاية الزعانف".

- "نعم".

- "هل تعرفين أنك تبتسمين دائمًا؟"

- "أنت أيضًا".

بعد حوالى ساعة بدأت السماء تمطر رذاذًا. معظم الناس كانوا يسيرون بحذاء نوافذ العرض، تحت المظلات، من سقف إلى آخر.

بينما واصلَ التوزيع فى الخارج، كنت أدخل المحلات. أخذت امرأة تلوح لى وتصيح: "أيتها الضفدعة الصغيرة".

لا أقطع أى حديث، ولكن عندما يتطلعون إلىَّ، أو يديرون الرأس ناحيتى، فإننى أسأل بصوت خافت وكأننى ضللت الطريق: "معذرة، ربما

تعرفون كيف أصل إلى بحر الشمال؟" يُصدمون لمدة دقيقة، وبعد أن يبدأوا الضحك أناولهم الورقة.

عندما ألاحظ أن مارتن لم يعد واقفًا أمام نافذة العرض، أخرج من المحل. أرجع بضع خطوات، لكننى لا أعثر عليه، إلا أننى أرى أوراق "بحر الشمال" متناثرة هنا وهناك. كان مارتن يجلس متكئًا بظهره إلى صارية علم، ولا يجيب. عينه اليسرى متورمة. نظر إلى أعلى قليلاً ثم سألنى إذا كنت رأيت أنبوب التنفس الذى كان يحمله. أحاول لملمة بعض إعلانات "بحر الشمال" الملتصقة بالبلاط، لكننى أدوس بزعانفى على الأوراق التى انحنى لالتقاطها.

"هل مررت أنتِ أيضًا بتجربة سيئة؟ يسألنى مارتن عندما وقفت أمامه مرة أخرى.

- "لا، لماذا؟"

- "نظراتك تقول ذلك".

- "أنتَ أخذت لكمة حلوة".

- "هل عثرت على الأنبوب؟"

أواصل البحث. أجد عدة إعلانات وأعود إليه.

"أنا آسف"، يقول لى وهو يرفع أنبوب التنفس من على الأرض، خابطًا بالمبسم على زعنفته اليسرى.

- "كان مُلقى هنا، لكننى لم أره".

– "هل أحضر لك مكعبات ثلج؟"

– "أتعرفين فى أى شىء فكرت؟ لقد فكرت فى تلك الجملة عن الأسماك والطوفان. لقد كنت مشلولاً، بالفعل مشلولاً. فى البداية نظر الرجل إلى أسفل، ثم حملق فىَّ، وسأل زوجته إذا كانت تعرفنى. كنت أقف على حذائه، بأطراف زعانفى، فقط بالأطراف. لم أشعر بذلك، ولا يمكن أن يكون هو قد شعر بذلك. قالت زوجته إنها لا تعرفنى. أعتقد أننى طرت لمسافة قصيرة".

– "هل تشعر بغثيان؟"

– "تلك الجملة عن الطوفان، كم هى عبيطة! لم أقل شيئًا سوى العبارات المعتادة. نفس الجمل كالمعتاد".

– "لابد أن نذهب إلى كرندل. هذه حادثة".

– "لن أذهب إلى هناك بعد اليوم". وأخذ يحرك زعانفه.

– "أنا أعرف السبب"، قلت له، وانتظرت حتى يتطلع ناحيتى.

– "لم تعجبه لهجتى".

– "ولكنه سأل زوجته إذا كانت تعرفك. وعندما قالت 'لا' ضربك؟"

– "وكيف يمكن أن تعرفنى؟ إننى هنا لأول مرة فى حياتى!"

– "كان فقط يريد أن يعرف إذا كنتَ شخصية مشهورة".

– "فقط لذلك!"

– "المشاهير فقط يفعلون هذا، مع كاميرا خفية، أو بسبب رهان خسروه"، قلت له موضحةً. ثم أضفت:

– "ولكن غير المشاهير لا يفعل أحد مثل هذا، لا أحد في عمرك. الرجل أحس أنك تستغفله. هذا هو كل شيء".

ينظر إليّ وكأنني صفعته. أقول له:

– "هذا طبعًا غير معقول. أعني أن هذا الأبله ظن شيئًا كهذا. لقد أديتَ عملك فعلاً بطريقة جيدة. لديك كاريزما كانت تدخل الفرحة على قلوب الناس. أنت نشرت من حولك المرح. ليس فقط فيما يتعلق بتوزيع الأوراق. ما فعلتَه لم يفعله أحد من قبلك، وفوق هذا فإن لك قوامًا متناسقًا".

بصقَ بين الزعانف. أواصلُ التحدث:

– "كل الناس انبسطوا. من المفروض أن نحصل على فلوس أكثر بكثير مما سنحصل عليه. ليس فقط من كرندل، بل أيضًا من عمدة المدينة، ومن صناديق التأمين الصحي؛ بسبب جو المرح واللطف الذي نشرناه".

أخذ مارتن يرسل نظراته ناحيتي. كاد الورم يغلق عينه اليسرى. أقول له:

– "شيء مقرف. إنه يعتبر اللطف أمرًا مستحيلاً".

– "لم يهتم أى إنسان بالأمر"، قال وبصق من جديد. "لم يتحرك أحد".

– "لم يستوعبوا الموقف. الناس لم يعرفوا كيف يتصرفون. لم يستطيعوا أن يفهموا أى شيء مما حدث. لم يمروا فى حياتهم بموقف كهذا. فى قلب منطقة المشاة ينال ضفدع بشرى علقة ساخنة. ربما ظنوا أن الضربات لا تؤلم إذا كان المرء كله داخل المطاط، أو أن هذا جزء من اللعبة. لم يرد أحد أن يتعرض للإحراج إذا تبين فيما بعد أن هذا عرض فنى أو مسرحى فى الهواء الطلق".

أحكى لمارتن عن رجل مسن مات أثناء جلوسه فى بلكونته فى الحوش الخلفى لبيتنا. كان يمسك بإصبع موز، بينما كانت الموسيقى الصاخبة تصدح. اعتقدنا كلنا أنه نائم. ظل جالسًا هناك تحت المطر، طيلة الليل.

– "طيلة الليل؟"

– "نعم. الدنيا كانت ظلامًا. وفى الصباح عندما كان لا يزال جالسًا ... سنذهب الآن إلى كرندل".

أغلق مارتن عينيه مثلما فعلت امرأة رأيتها فى مترو الأنفاق. بهدوء تام أغلقت عينيها دون أن تحرك ساكنًا، إلى أن انفتحت الأبواب. هز مارتن رأسه نافيًا.

– "بلى. لابد".

فيما هو ينهض أمسكت بنظارته وأنبوبه. الشنطة اتسخت. يسحب بحذر القلنسوة فوق رأسه.

"لن أذهب إلى كرندل"، قال مارتن. احتاجَ إلى وقت طويل حتى استطاع أن يرتدى نظارة الغوص. سألته:

- "إلى أين إذن؟"

- "بعيداً. إلى أبعد ما يمكن".

ويصق مرة أخرى، ثم وضع أنبوب التنفس في فمه، وثبته تحت سير النظارة، ثم علق الشنطة على كتفه.

فعلت مثله، وانطلقنا. كان الناس يقفون تحت مظلات المحلات وفي مداخل البيوت، ينتظرون أن يتوقف المطر. فيما عدا راكب دراجة كانت منطقة المشاة لنا وحدنا. مشينا بين الحفر المليئة بماء المطر. رأيت شخصًا يلوح لنا ويهتف بشيء فيه كلمة "بحر الشمال" بالطبع. من الممكن أن يعتقد المرء أن الناس يقفون طابوراً لتحيتنا. كل منا يمسك بيد الآخر لأن النظارة تحد من مجال الرؤية حتى إن المرء لا يعرف إذا كان الآخر يسير فعلاً بجانبه. ما زالت الفرقة في الخيمة البيضاء تعزف الموسيقى التى أصبحت الآن أسرع وأعلى. أعتقد أنها رقصة بولكا، لكننى لا أعرف ما هى البولكا. ربما مارش أو شيء مشابه. سيان. كنت أسير مع مارتن بالخطوة نفسها. حتى عندما خرجنا من منطقة المشاة، ظللنا نسير بخطى واحدة.

المؤلف فى سطور :

إنجو شولسته

ولد عام ١٩٦٢ فى دريسدن بألمانيا الشرقية . درس اللغات القديمة وعمل معدا مسرحيا ثم محرراً فى صحيفة إقليمية . يعيش فى برلين متفرغًا للكتابة منذ عام ١٩٩٣ ، حصل عن كتابه الأول « ٣٣ لحظة من السعادة » عام ١٩٥٥ على عدد من الجوائز ، منها جائزة ألفريد دوبلين وجائزة إنجبورج باخمان .

فى عام ١٩٩٨ أصدر شولسته رواية «قصص بسيطة» التى لاقت احتفاء بالغًا من النقاد والقراء على السواء ، وترجمت فى غضون سنوات قليلة إلى ما يزيد على عشرين لغة .

المترجم فى سطور :

سمير جريس

من مواليد القاهرة عام ١٩٦٢ . حصل على الليسانس فى اللغة الألمانية وآدابها من كلية الألسن جامعة عين شمس ، ودبلوم الترجمة من جامعة القاهرة ، وحصل على درجة الماجستير فى الترجمة من جامعة ماينتس (ألمانيا) ، وكانت أطروحته عن «إشكاليات ترجمة الأدب الألمانى إلى العربية – هاينريش بُل نموذجًا» .

ترجم عدداً من الأعمال الأدبية عن الألمانية ، منها : فولفجانج بورشرت : «شدو البلبل» (سلسلة آفاق الترجمة ، هيئة قصوتر الثقافة) ، وماكس فريش : «مونتاوك» (دار الجمل بألمانيا) ، وهاينريش : «وكان مساء ...» (سلسلة نوبل بدار المدى ، دمشق) ويصدر له عن المجلس الأعلى للثقافة : إيريش كستنر : « مدرسة الطغاة» ضمن المشروع القومى للترجمة .

وقد نال الجائزة الأولى فى ترجمة القصة من المجلس الأعلى للثقافة فى مصر عام ١٩٩٦ .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١	اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣	التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	ت: بإشراف أحمد عثمان
١٧	مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨	رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنة
٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢	الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤	الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم

٣٨	نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠	قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢	عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢	لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧	مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
٧٢	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣	نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٧٥	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش

٧٦	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣	مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦	طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠	وسم السيف	ميجل دي ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣	محدثات العولمة	مايك فيدرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد عبد اللطيف
٩٦	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧	هوية فرنسا (مج١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعي
٩٨	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٩٩	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١	النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣	قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤	أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرا متي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣	راية التمرد	سادي بلانت	ت : أحمد حسان

١١٤	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧	المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨	النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت بإشراف: رءوف عباس
١٢٠	الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي وإيزابيل كمال
١٢٢	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل ألكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤	الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	ت : سمحة الخولى
١٢٦	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧	إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣	الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦	فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧	مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩	پارسيڤال	ريشارد ڤاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣	قضايا التنظير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان
١٤٥	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرءوف البمبى
١٤٧	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم منوفى
١٤٩	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى

١٥٣	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦	المدارس الجمالية الكبرى	جى أتيال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩	الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠	آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت. صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليقمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠	الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١	وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢	حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩	حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣	جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت: فتحى العشرى
١٨٤	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧	الأرضة	بُزرج علوى	ت:محمد علاء الدين منصور
١٨٨	موت الأدب	ألفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩	العمى والبصيرة	بول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد

١٩٢	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦	المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
٢٠١	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا
٢٠٨	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١	فردينان دوسوسير	جوناثان كالر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	ت: نادية البنهاوى
٢١٨	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم منوفى
٢١٩	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠	الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام
٢٢٢	فرانز كافكا	رونالد جراى	ت: نسيم مجلى
٢٢٣	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت: السيد محمد نفادى
٢٢٤	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت: منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت: السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت: طاهر محمد على البربرى
٢٢٧	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركى	ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت:مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	ت: أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣١	الرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت: جمال عبدالرحمن
٢٣٢	ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت: مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣	فكرة الاضمحلال	آرثر هومان	ت: طلعت الشايب
٢٣٤	الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت: فؤاد محمد عكود
٢٣٥	ديوان شمس تبريزي (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومي	ت: إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦	الولاية	ميشيل تود	ت. أحمد الطيب
٢٣٧	مصر أرض الوادي	روبين فيدين	ت. عنايات حسين طلعت
٢٣٨	العولمة والتحرير	الانكتاد	ت: ياسر محمد جادالله وعربي مدبولي أحمد
٢٣٩	العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلارافر – رابوخ	ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١	في انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت: ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت: صبري محمد حسن عبدالنبي
٢٤٣	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفي بروفنسال	ت: علي عبدالروف البمبي
٢٤٤	الغليان	لاورا إسكيبيل	ت: نادية جمال الدين محمد
٢٤٥	نساء مقاتلات	إليزابيتا آديس	ت: توفيق علي منصور
٢٤٦	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	ت: علي إبراهيم منوفي
٢٤٧	الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر	والتر إرمبريست	ت: محمد طارق الشرقاوي
٢٤٨	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت: رفعت سلام
٢٥٠	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت: ماجدة محسن أباظة
٢٥١	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	ت: بإشراف: محمد الجوهري
٢٥٢	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت: علي بدران
٢٥٣	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت: حسن بيومي
٢٥٤	الفلسفة	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥	أفلاطون	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦	ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	ت: محمود سيد أحمد
٢٥٨	الغجر	سير أنجوس فريزر	ت: عُبادة كُحيلة
٢٥٩	مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	أقلام مختلفة	ت: فاروجان كازانجيان
٢٦٠	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهري
٢٦١	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت: محمد أبو العطا
٢٦٣	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	ت: علي يوسف علي
٢٦٤	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلي	ت: لويس عوض
٢٦٥	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	ت: لويس عوض
٢٦٦	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت: عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧	فن الرواية	ميلان كونديرا	ت: بدر الدين عرودكي
٢٦٨	ديوان شمس تبريزي (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومي	ت: إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	ت: صبري محمد حسن

٢٧٠ وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ٢) وليم جيفور بالجريف ت: صبرى محمد حسن

٢٧١ الحضارة الغربية توماس سى. باترسون ت: شوقى جلال

٢٧٢ الأديرة الأثرية فى مصر س. س والترز ت: إبراهيم سلامة

٢٧٣ الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط جوان أر. لوك ت: عنان الشهاوى

٢٧٤ السيدة باربارا رومولو جلاجوس ت: محمود على مكى

٢٧٥ ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً أقلام مختلفة ت: ماهر شفيق فريد

٢٧٦ فنون السينما فرانك جوتيران ت: عبد القادر التلمسانى

٢٧٧ الچينات: الصراع من أجل الحياة بريان فورد ت: أحمد فوزى

٢٧٨ البدايات إسحق عظيموف ت: ظريف عبدالله

٢٧٩ الحرب الباردة الثقافية ف.س. سوندرز ت: طلعت الشايب

٢٨٠ من الأدب الهندى الحديث والمعاصر بريم شند وآخرون ت: سمير عبدالحميد

٢٨١ الفردوس الأعلى مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى ت: جلال الحفناوى

٢٨٢ طبيعة العلم غير الطبيعية لويس وابيرت ت: سمير حنا صادق

٢٨٣ السهل يحترق خوان رولفو ت: على البمبى

٢٨٤ هرقل مجنوناً يوريبيدس ت: أحمد عتمان

٢٨٥ رحلة الخواجة حسن نظامى حسن نظامى ت: سمير عبد الحميد

٢٨٦ سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢) زين العابدين المراغى ت: محمود سلامة علاوى

٢٨٧ الثقافة والعولمة والنظام العالمى انتونى كنج ت: محمد يحيى وآخرون

٢٨٨ الفن الروائى ديفيد لودج ت: ماهر البطوطى

٢٨٩ ديوان منجوهرى الدامغانى أبو نجم أحمد بن قوص ت: محمد نور الدين عبدالمنعم

٢٩٠ علم اللغة والترجمة جورج مونان ت: أحمد زكريا إبراهيم

٢٩١ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١) فرانشسكو رويس رامون ت: السيد عبد الظاهر

٢٩٢ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢) فرانشسكو رويس رامون ت: السيد عبد الظاهر

٢٩٣ مقدمة للأدب العربى روجر آلن ت: نخبة من المترجمين

٢٩٤ فن الشعر بوالو ت: رجاء ياقوت صالح

٢٩٥ سلطان الأسطورة جوزيف كامبل ت: بدر الدين حب الله الديب

٢٩٦ مكبث وليم شكسبير ت: محمد مصطفى بدوى

٢٩٧ فن النحو بين اليونانية والسريانية ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى ت: ماجدة محمد أنور

٢٩٨ مأساة العبيد أبو بكر تفاوابليوه ت: مصطفى حجازى السيد

٢٩٩ ثورة فى التكنولوجيا الحيوية جين ل. ماركس ت: هاشم أحمد فؤاد

٣٠٠ أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١) لويس عوض ت: جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال

٣٠١ أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢) لويس عوض ت: جمال الجزيرى و محمد الجندى

٣٠٢ فتجنشتين جون هيتون وجودى جروفز ت: إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣ بوذا جين هوب وبورن فان لون ت: إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٤ ماركس ريوس ت: إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٥ الجلد كروزيو مالابارته ت: صلاح عبد الصبور

٣٠٦ الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ جان فرانسوا ليوتار ت: نبيل سعد

٣٠٧ الشعور ديفيد بابينو ت: محمود محمد أحمد

٣٠٨ علم الوراثة ستيف جونز ت: ممدوح عبد المنعم أحمد

٣٠٩ الذهن والمخ — أنجوس جيلاتى — ت: جمال الجزيرى
٣١٠ يونج — ناجى هيد — ت: محيى الدين محمد حسن
٣١١ مقال فى المنهج الفلسفى — كولنجوود — ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢ روح الشعب الأسود — وليم دى بويز — ت:أسعد حليم
٣١٣ أمثال فلسطينية — خايير بيان — ت: عبدالله الجعيدى
٣١٤ الفن كعدم — جينس مينيك — ت: هويدا السباعى
٣١٥ جرامشى فى العالم العربى — ميشيل بروندينو — ت: كاميليا صبحى
٣١٦ محاكمة سقراط — أ.ف. ستون — ت: نسيم مجلى
٣١٧ بلا غد — شير لايموفا- زنيكين — ت: أشرف الصباغ
٣١٨ الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة — نخبة — ت: أشرف الصباغ
٣١٩ صور دريدا — جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس — ت: حسام نايل
٣٢٠ لمعة السراج فى حضرة التاج — مؤلف مجهول — ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١ تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١) — ليفى برو فنسال — ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢ وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن — ديليو يوجين كليينباور — ت: خالد مفلح حمزة
٣٢٣ فن الساتورا — تراث يونانى قديم — ت: هانم سليمان
٣٢٤ اللعب بالنار — أشرف أسدى — ت: محمود سلامة علاوى
٣٢٥ عالم الآثار — فيليب بوسان — ت: كرستين يوسف
٣٢٦ المعرفة والمصلحة — جورجين هابرماس — ت: حسن صقر
٣٢٧ مختارات شعرية مترجمة (جـ١) — نخبة — ت: توفيق على منصور
٣٢٨ يوسف وزليخا — نور الدين عبد الرحمن بن أحمد — ت: عبد العزيز بقوش
٣٢٩ رسائل عيد الميلاد — تد هيوز — ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠ كل شىء عن التمثيل الصامت — مارفن شبرد — ت: سامى صلاح
٣٣١ عندما جاء السردين — ستيفن جراى — ت: سامية دياب
٣٣٢ القصة القصيرة فى إسبانيا — نخبة — ت: على إبراهيم منوفى
٣٣٣ الإسلام فى بريطانيا — نبيل مطر — ت: بكر عباس
٣٣٤ لقطات من المستقبل — آرثر س كلارك — ت: مصطفى فهمى
٣٣٥ عصر الشك — ناتالى ساروت — ت: فتحى العشرى
٣٣٦ متون الأهرام — نصوص قديمة — ت: حسن صابر
٣٣٧ فلسفة الولاء — جوزايا رويس — ت: أحمد الأنصارى
٣٣٨ نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند) — نخبة — ت: جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣) — على أصغر حكمت — ت: محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ اضطراب فى الشرق الأوسط — بيرش بيربيروجلو — ت: فخرى لبيب
٣٤١ قصائد من رلكه — راينر ماريا رلكه — ت: حسن حلمى
٣٤٢ سلامان وأبسال — نور الدين عبدالرحمن بن أحمد — ت: عبد العزيز بقوش
٣٤٣ العالم البرجوازى الزائل — نادين جورديمر — ت: سمير عبد ربه
٣٤٤ الموت فى الشمس — بيتر بلانجوه — ت: سمير عبد ربه
٣٤٥ الركض خلف الزمن — بونه ندائى — ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ سحر مصر — رشاد رشدى — ت: جمال الجزيرى
٣٤٧ الصبية الطائشون — جان كوكتو — ت: بكر الحلو

٢٤٨	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	ت: أحمد عمر شاهين
٢٥٠	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت: عطية شحاتة
٢٥١	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصارى
٢٥٢	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت: نعيم عطية
٢٥٣	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت: على إبراهيم منوفى
٢٥٤	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت: على إبراهيم منوفى
٢٥٥	التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت: محمود سلامة علاوى
٢٥٦	الميراث المر	بول سالم	ت: بدر الرفاعى
٢٥٧	متون هيرميس	نصوص قديمة	ت: عمر الفاروق عمر
٢٥٨	أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت: مصطفى حجازى السيد
٢٥٩	محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت: حبيب الشارونى
٣٦٠	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت: ليلى الشربينى
٣٦١	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت: عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢	تلميذ بابنبيرج	هاينرش شبورال	ت: سيد أحمد فتح الله
٣٦٣	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	ت: صبرى محمد حسن
٣٦٤	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت: نجلاء أبو عجاج
٣٦٥	سأم باريس	شارل بودلير	ت: محمد أحمد حمد
٣٦٦	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت: مصطفى محمود محمد
٣٦٧	القلم الجرىء	نخبة	ت: البراق عبدالهادى رضا
٣٦٨	المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت: عابد خزندار
٣٦٩	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت: فوزية العشماوى
٣٧٠	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت: فاطمة عبدالله محمود
٣٧١	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢	عاش الشباب	وانغ مينغ	ت: وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت: على إبراهيم منوفى
٣٧٤	اليوم السادس	أندريه شديد	ت: حمادة إبراهيم
٣٧٥	الخلود	ميلان كونديرا	ت: خالد أبو اليزيد
٣٧٦	الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت: إدوار الخراط
٣٧٧	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٧٨	المسافر	محمد إقبال	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩	ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت: جمال عبدالرحمن
٣٨٠	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت: شيرين عبدالسلام
٣٨١	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت: رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت: أحمد محمد نادى
٣٨٣	هدية الحجاز	محمد إقبال	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت: إيزابيل كمال
٣٨٥	مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦	*دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى*	جانيت تود	ت: *ريهام حسين إبراهيم*

٢٨٧	أغنيات وسوناتات	چون دن	ت: بهاء چاهين
٢٨٨	مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت: محمد علاء الدين منصور
٢٨٩	من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٩٠	الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت: عثمان مصطفى عثمان
٢٩١	الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت: منى الدروبى
٢٩٢	مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٢٩٣	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت: زينب محمود الخضيرى
٢٩٤	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت: هاشم أحمد محمد
٢٩٥	آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت: سليم حمدان
٢٩٦	السافاك	تقى نجارى راد	ت: محمود سلامة علاوى
٢٩٧	نيتشه	لورانس جين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٨	سارتر	فيليب تودى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٩	كامى	ديفيد ميروفتس	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠	مومو	مشيائيل إنده	ت: باهر الجوهرى
٤٠١	الرياضيات	زيادون ساردر	ت: ممدوح عبد المنعم
٤٠٢	هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣	ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت: عماد حسن بكر
٤٠٤	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت: ظبية خميس
٤٠٥	إيزابيل	أندريه جيد	ت: حمادة إبراهيم
٤٠٦	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت: جمال عبد الرحمن
٤٠٧	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت: طلعت شاهين
٤٠٨	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت: عنان الشهاوى
٤٠٩	انتصار السعادة	برتراند راسل	ت: إلهامى عمارة
٤١٠	خلاصة القرن	كارل بوبر	ت: الزواوى بغورة
٤١١	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت: أحمد مستجير
٤١٢	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	ت: نخبة
٤١٣	أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت: محمد البخارى
٤١٤	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت: أمل الصبان
٤١٥	صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت: أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت: مصطفى بدوى
٤١٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت: عبد الرحمن الشيخ
٤١٩	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	ت: نسيم مجلى
٤٢٠	مكرو ميجاس	فولتير	ت: الطيب بن رجب
٤٢١	الولاء والقيادة	رؤى متحدة	ت: أشرف محمد كيلانى
٤٢٢	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت: وحيد النقاش
٤٢٤	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	ت: محمد علاء الدين منصور
٤٢٥	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	ت: محمود سلامة علاوى

٤٢٦	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧	بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت: ثريا شلبى
٤٢٨	الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت: محمد أمان صافى
٤٢٩	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠	كانط	كرستوفر وانت وأندرزجى كليموفسكى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢	ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت: حمدى الجابرى
٤٣٤	الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	ت: عصام حجازى
٤٣٥	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت: ناجى رشوان
٤٣٦	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت: عايدة سيف الدولة
٤٣٩	موت المرابى	صدر الدين عينى	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤١	رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتى روى	ت: فخرى لبيب
٤٤٢	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت: ماهر جويجاتى
٤٤٣	اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت: صالح علمانى
٤٤٥	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت: محمد محمد يونس
٤٤٦	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت: أحمد محمود
٤٤٧	نظرية الكم	ج. ب. ماك إيڤوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨	علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩	الحركة النسائية	نخبة	ت: جمال الجزيرى
٤٥٠	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	ت: جمال الجزيرى
٤٥١	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	ت: محيى الدين مزيد
٤٥٣	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت: حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت: سوزان خليل
٤٥٥	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	ت: محمود سيد أحمد
٤٥٦	لا تنسنى	مريم جعفرى	ت: هويدا عزت محمد
٤٥٧	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨	الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت: جمال عبد الرحمن
٤٥٩	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
٤٦٠	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	ت: عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣	الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت: كمال السيد
٤٦٤	ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت: حصة إبراهيم المنيف

٤٦٥	قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت: جمال الرفاعى
٤٦٦	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت: فاطمة محمود
٤٦٧	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت: ربيع وهبة
٤٦٨	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٤٦٩	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت: مجدى عبدالرازق
٤٧٠	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت: محمد السيد النتة
٤٧١	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	ت: عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٣	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٤	الأدب والنسوية	بام موريس	ت: سهام عبدالسلام
٤٧٥	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت: عادل هلال عنانى
٤٧٦	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت: سحر توفيق
٤٧٧	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت: أشرف كيلانى
٤٧٨	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	ت: عبد العزيز حمدى
٤٧٩	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨٠	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨١	عباءة النبى	روى متحدة	ت: رضوان السيد
٤٨٢	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت: فاطمة محمود
٤٨٣	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت: أحمد الشامى
٤٨٤	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	ت: رشيد بنحدو
٤٨٥	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت: عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسِّرل	ت: محمود رجب
٤٩٠	أسمار الببغاء	محمد قادرى	ت: عبد الوهاب علوب
٤٩١	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت: سمير عبد ربه
٤٩٢	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت: محمد رفعت عواد
٤٩٣	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت: محمد صالح الضالع
٤٩٤	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت: شريف الصيفى
٤٩٥	اللوبى	إدوارد تيفان	ت: حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوانو بانولى	ت: نخبة
٤٩٧	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت: مصطفى رياض
٤٩٨	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت: أحمد على بدوى
٤٩٩	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت: فيصل بن خضراء
٥٠٠	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت: طلعت الشايب
٥٠١	تاريخ النساء فى الغرب	آرثر جولد هامر	ت: سحر فراج
٥٠٢	أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت: هالة كمال
٥٠٣	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم

٥٠٤	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٥	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٦	ربما كان قديساً	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمي الجمال
٥٠٧	سيدة الماضي الجميل	بيتر شيفر	ت: شوقي فهيم
٥٠٨	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبدالباقي جلبنارلي	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩	الفقر والإحسان في عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	ت: قاسم عبده قاسم
٥١٠	الأرملة الماكرة	كارلو جولدوني	ت: عبدالرازق عيد
٥١١	كوكب مرقَّع	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمي الجمال
٥١٢	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريجان	ت: جمال عبد الناصر
٥١٣	العلم الجسور	تيد أنتون	ت: مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	ت: مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطي دوجلاس	ت: فدوى مالطي دوجلاس
٥١٦	إرادة الإنسان في شفاء الإدمان	آرنولد واشنطون ودونا باوندي	ت: صبري محمد حسن
٥١٧	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت: سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت: هاشم أحمد محمد
٥١٩	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصاري
٥٢٠	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت: أمل الصبان
٥٢١	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	ت: عبدالوهاب بكر
٥٢٢	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	ت: علي إبراهيم منوفي
٥٢٣	الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	ت: علي إبراهيم منوفي
٥٢٤	الملك لير	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوي
٥٢٥	موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت: نادية رفعت
٥٢٦	علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	ت: محيي الدين مزيد
٥٢٧	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	ت: جمال الجزيري
٥٢٨	تروتسكي والماركسية	طارق علي وفِلّ إيفانز	ت: جمال الجزيري
٥٢٩	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي	محمد إقبال	ت: حازم محفوظ وحسين نجيب المصري
٥٣٠	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت: عمر الفاروق عمر
٥٣١	ما الذي حَدَثَ في «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	ت: صفاء فتحي
٥٣٢	المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	ت: بشير السباعي
٥٣٣	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	ت: محمد الشرقاوي
٥٣٤	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	ت: حمادة إبراهيم
٥٣٥	مخزن الأسرار	نظامي الكنجوي	ت: عبدالعزيز بقوش
٥٣٦	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	ت: شوقي جلال
٥٣٧	الحب والحرية	نخبة	ت: عبدالغفار مكاوي
٥٣٨	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	ت: محمد الحديدي
٥٣٩	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	ت: محسن مصيلحي
٥٤٠	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	ت: رءوف عباس
٥٤١	هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	ت: مروة رزق
٥٤٢	قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	ت: نعيم عطية

٥٤٣	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	ت: وفاء عبدالقادر
٥٤٤	ميلانى كلاين	نخبة	ت: حمدى الجابرى
٥٤٥	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	ت: عزت عامر
٥٤٦	ريموس	ت. ب. وايزمان	ت: توفيق على منصور
٥٤٧	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	ت: جمال الجزيرى
٥٤٨	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	ت: حمدى الجابرى
٥٤٩	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	ت: جمال الجزيرى
٥٥٠	شكسبير	نيك جروم وبيرو	ت: حمدى الجابرى
٥٥١	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	ت: سمحة الخولى
٥٥٢	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	ت: على عبد الروف البمبى
٥٥٣	مدخل الشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	ت: رجاء ياقوت
٥٥٤	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	ت: عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	ت: أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦	چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	ت: حمدى الجابرى
٥٥٧	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨	الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين ڤان لون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩	الماس الزائف	تشا تشاجى	ت: عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠	صلصلة الجرس	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦١	جناح جبريل	محمد إقبال	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢	بلايين وبلايين	كارل ساجان	ت: عزت عامر
٥٦٣	ورود الخريف	خاثينتو بينابيتى	ت: صبرى محمدى التهامى
٥٦٤	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	ت: صبرى محمدى التهامى
٥٦٥	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا. ج. جيرنر	ت: أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦	تاريخ أوربا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	ت: على السيد على
٥٦٧	الوطن المغتصب	مايكل رايس	ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	ت: عبد السلام حيدر
٥٦٩	موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ت: ثائر ديب
٥٧٠	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	ت: يوسف الشارونى
٥٧١	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	ت: السيد عبد الظاهر
٥٧٢	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	ت: كمال السيد
٥٧٣	فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	ت: جمال الجزيرى
٥٧٤	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	ت: علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	ت: أحمد محمود
٥٧٦	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ت: ناهد العشرى محمد
٥٧٧	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	ت: محمد قدرى عمارة
٥٧٨	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	ت: محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩	تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	ت: محى الدين مزيد
٥٨٠	دائرة المعارف الدولية	جون فيزر وبول سيترجز	ت: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١	الحمقى يموتون	ماريو بوزو	ت: سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٢ مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣ الجيران	أحمد محمود	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤ سفر	محمود دولت آبادى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥ الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦ السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	ت: سهام عبد السلام
٥٨٧ تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	ت: عبدالعزيز حمدى
٥٨٨ أمنحوتب الثالث	آنييس كابرول	ت: ماهر جويجاتى
٥٨٩ تمبكت العجيبة	فيلكس ديبواه	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠ أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	ت: محمود مهدى عبدالله
٥٩١ الشاعر والمفكر	هوراتيوس	ت: على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢ الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	ت: مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣ قصائد ساحرة	بول فاليرى	ت: بكر الحلو
٥٩٤ القلب السمين	سوزانا تامارو	ت: أمانى فوزى
٥٩٥ الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	ت: نخبة
٥٩٦ الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجاريليه وآخرون	ت: إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧ مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	ت: جمال عبدالرحمن
٥٩٨ مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	ت: بيومى على قنديل
٥٩٩ فلسفة الشرق	هرداد مهرين	ت: محمود سلامة علاوى
٦٠٠ الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	ت: مدحت طه
٦٠١ النسوية والمواطنة	ريان فوت	ت: أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢ ليوتار.نحو فلسفة ما بعد حداثية	جيمس وليامز	ت: إيمان عبدالعزيز
٦٠٣ النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	ت: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤ الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. أبوت	ت: توفيق على منصور
٦٠٥ مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦ قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	ت: محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧ قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	ت: صبرى محمد حسن
٦٠٨ قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هاردى سينت فيلبى	ت:صبرى محمد حسن
٦٠٩ الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	ت: شوقى جلال
٦١٠ العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	ت: على إبراهيم منوفى
٦١١ النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	ت: فخرى صالح
٦١٢ رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	ت: محمد محمد يونس
٦١٣ السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	ت: محمد فريد حجاب
٦١٤ بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	ت: منى قطان
٦١٥ عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	ت: محمد رفعت عواد
٦١٦ أساطير بيضاء	روبرت يانج	ت: أحمد محمود
٦١٧ الفولكلور والبحر	هوراس بيك	ت: أحمد محمود
٦١٨ نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	ت: جلال البنا
٦١٩ مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	ت: عايدة الباجورى
٦٢٠ السلام الصليبى	توماش ماستناك	ت: بشير السباعى

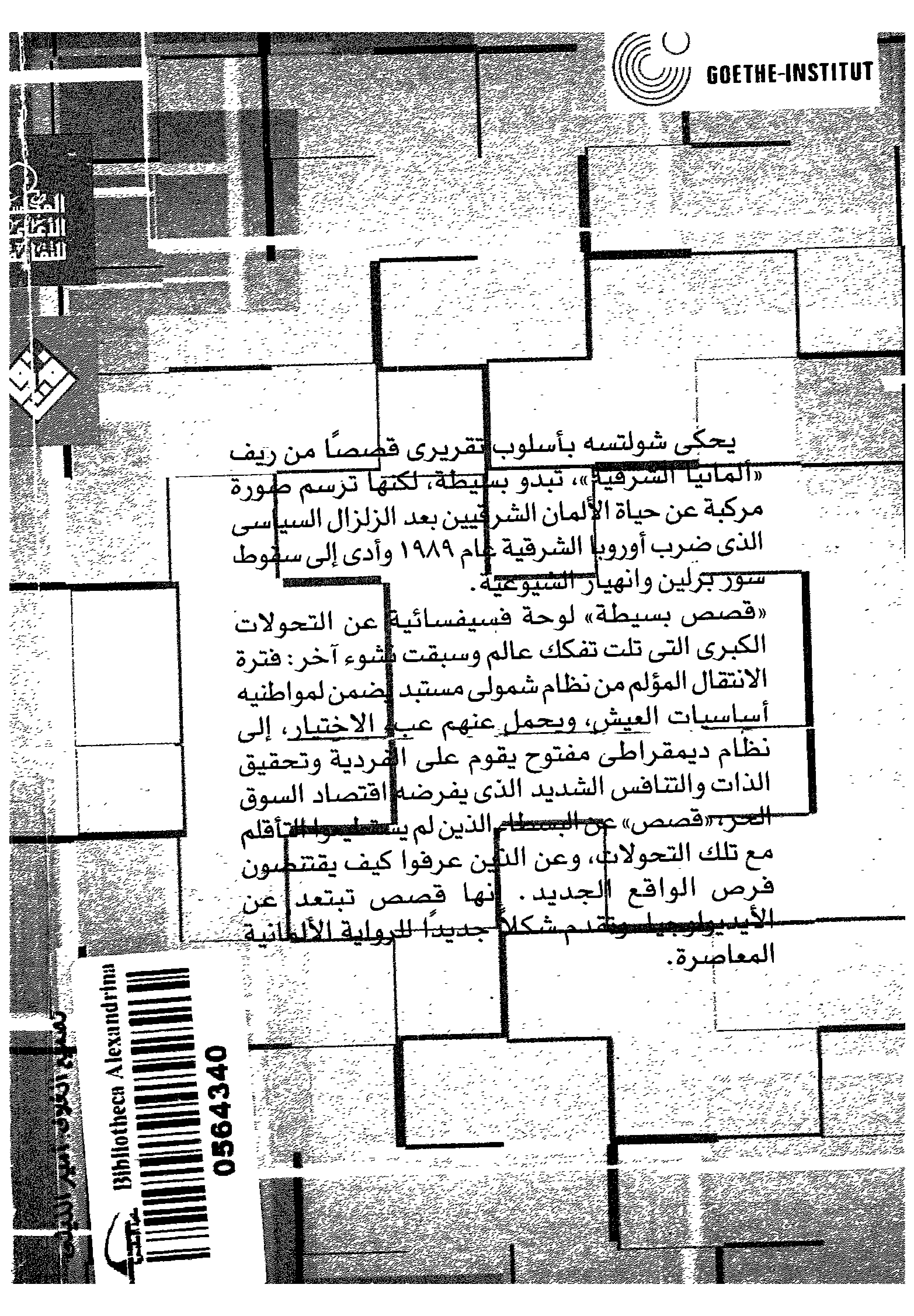
٦٢١ النوبة المعبر الحضاري — وليم. ي. آدمز — ت: فؤاد عكود
٦٢٢ أشعار من عالم اسمه الصين — أي تشينغ — ت: أمير نبيه وعبدالرحمن حجازي
٦٢٣ نوادر جحا الإيراني — سعيد قانعي — ت: يوسف عبدالفتاح
٦٢٤ أزمة العالم الحديث — رينيه جينو — ت: عمر الفاروق
٦٢٥ الجرح السري — جان جينيه — ت: محمد برادة
٦٢٦ مختارات شعرية مترجمة (جـ٢) — نخبة — ت: توفيق علي منصور
٦٢٧ حكايات إيرانية — نخبة — ت: عبدالوهاب علوب
٦٢٨ أصل الأنواع — تشارلس داروين — ت: مجدي محمود المليجي
٦٢٩ قرن آخر من الهيمنة الأمريكية — نيقولاس جويات — ت: عزة الخميسي
٦٣٠ سيرتي الذاتية — أحمد بللو — ت: صبري محمد حسن
٦٣١ مختارات من الشعر الأفريقي المعاصر — نخبة — ت بإشراف: حسن طلب
٦٣٢ المسلمون واليهود في مملكة فالنسيا — دولورس برامون — ت: رانيا محمد
٦٣٣ الحب وفنونه — نخبة — ت: حمادة إبراهيم
٦٣٤ مكتبة الإسكندرية — روي ماكلويد وإسماعيل سراج الدين — ت: مصطفى البهنساوي
٦٣٥ التثبيت والتكيف في مصر — جودة عبد الخالق — ت: سمير كريم
٦٣٦ حج يولندة — جناب شهاب الدين — ت: سامية محمد جلال
٦٣٧ مصر الخديوية — ف. روبرت هنتر — ت: بدر الرفاعي
٦٣٨ الديمقراطية والشعر — روبرت بن ورين — ت: فؤاد عبد المطلب
٦٣٩ فندق الأرق — تشارلز سيميك — ت: أحمد شافعي
٦٤٠ الكسياد — الأميرة أنّاكومنينا — ت: حسن حبشي
٦٤١ برتراندرسل (مختارات) — برتراند رسل — ت: محمد قدري عماره
٦٤٢ داروين والتطور — جوناثان ميلر وبورين فان لون — ت: ممدوح عبد المنعم
٦٤٣ سفرنامه حجاز — عبد الماجد الدريابادي — ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤ العلوم عند المسلمين — هوارد د. تيرنر — ت: فتح الله الشيخ
٦٤٥ السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية — تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف — ت: عبد الوهاب علوب
٦٤٦ قصة الثورة الإيرانية — سپهر ذبيح — ت: عبد الوهاب علوب
٦٤٧ رسائل من مصر — جون نينيه — ت: فتحي العشري
٦٤٨ بورخيس — بياتريث سارلو — ت: خليل كلفت
٦٤٩ الخوف وقصص خرافية أخرى — نخبة — ت: سلوى لطفي
٦٥٠ الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط — روجر أوين — ت: عبد الوهاب علوب
٦٥١ ديليسبس الذي لا نعرفه — وثائق قديمة — ت: أمل الصبان
٦٥٢ آلهة مصر القديمة — كلود تروينكر — ت: حسن نصر الدين
٦٥٣ مدرسة الطغاة — إيريش كستنر — ت: سمير جريس
٦٥٤ أساطير شعبية من أوزبكستان — نصوص قديمة — ت: عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥ أساطير وآلهة — إيزابيل فرانكو — ت: حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦ خبز الشعب والأرض الحمراء — ألفونسو ساستري — ت: ممدوح البستاوي
٦٥٧ محاكم التفتيش والموريسكيون — مرثيديس غارثيا- أرينال — ت: خالد عباس
٦٥٨ حوارات مع خوان رامون خيمينيث — خوان رامون خيمينيث — ت: صبري التهامي
٦٥٩ قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية — نخبة — ت: عبداللطيف عبدالحليم

٦٦٠ نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	ت: هاشم أحمد محمد
٦٦١ روائع أندلسية إسلامية	نخبة	ت: صبرى التهامى
٦٦٢ رحلة إلى الجذور	داسو سالدييار	ت: صبرى التهامى
٦٦٣ امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	ت: أحمد شافعى
٦٦٤ الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان - إنا راى هارك	ت: عصام زكريا
٦٦٥ عوالم أخرى	بول دافيز	ت: هاشم أحمد محمد
٦٦٦ تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	ت: مدحت الجيار
٦٦٧ الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	ت: على ليلة
٦٦٨ ثقافات العولمة	فريدريك جيمسون - ماساو ميوشى	ت: ليلى الجبالى
٦٦٩ ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	ت: نسيم مجلى
٦٧٠ أشعار جوستاف أودلفو	جوستاف أودلفو	ت: ماهر البطوطى
٦٧١ قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	ت: على عبدالأمير صالح
٦٧٢ مختارات قصائد فرنسية للأطفال	نخبة	ت: إبتهال سالم
٦٧٣ ضرب الكليم	محمد إقبال	ت: جلال السعيد الحفناوى
٦٧٤ ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	ت: محمد علاء الدين منصور
٦٧٥ أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	ت بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦ أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	ت بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧ تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	ت: أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨ تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	ت: أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩ مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	ويليام شكسبير	ت: توفيق على منصور
٦٨٠ سنوات الطفولة	وول سوينكا	ت: سمير عبد ربه
٦٨١ هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	ت: أحمد الشيمى
٦٨٢ نجوم حظر التجول الجديد	بن أوكرى	ت: صبرى محمد حسن
٦٨٣ سكين واحد لكل رجل	تى. م. ألوكو	ت: صبرى محمد حسن
٦٨٤ الأعمال القصصية (جـ١)	أوراثيو كيروجا	ت: رزق أحمد بهنسى
٦٨٥ الأعمال القصصية (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	ت: رزق أحمد بهنسى
٦٨٦ امرأة محاربة	ماكسين هونج كنجستون	ت: سحر توفيق
٦٨٧ محبوبة	فتانة حاج سيد جوادى	ت: ماجدة العنانى
٦٨٨ الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	ت: فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩ الملف	تادووش روجيفيتش	ت: هناء عبد الفتاح
٦٩٠ محاكم التفتيش فى فرنسا	چوزيف ر. سترايير	ت: رمسيس عوض
٦٩١ ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	دنيس براين	ت: رمسيس عوض
٦٩٢ الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	ت: حمدى الجابرى
٦٩٣ القتل الجماعى: المحرقة	حاييم برشيت وآخران	ت: جمال الجزيرى
٦٩٤ دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	ت: حمدى الجابرى
٦٩٥ رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦ روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧ أرسطو	روبرت وبنفين وجودى جروفس	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨ عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	ت: إمام عبدالفتاح إمام

٦٩٩	التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زاراتى	ت: جمال الجزيرى
٧٠٠	حقيقة كاتب	ماريو فرجاش	ت: بسمة عبدالرحمن
٧٠١	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	ت: منى البرنس
٧٠٢	الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	ت: محمود علاوى
٧٠٣	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	ت: أمين الشواربى
٧٠٤	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	ت: محمد علاء الدين منصور وآخران
٧٠٥	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	ت: عبدالحميد مدكور
٧٠٦	الشفرة الوراثية وكتاب التحويلات	جونسون ف. يان	ت: عزت عامر
٧٠٧	فالتر بنيامين	نخبة	ت: وفاء عبدالقادر
٧٠٨	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	ت: رءوف عباس
٧٠٩	معنى الحياة	ألفريد آدلر	ت: عادل نجيب بشرى
٧١٠	الأطفال، التكنولوجيا والثقافة	يان هاتشباى وجومووران - إليس	ت: دعاء محمد الخطيب
٧١١	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	ت: هناء عبد الفتاح
٧١٢	الإلياذة (جـ١)	هوميروس	ت. سليمان البستانى
٧١٣	الإلياذة (جـ٢)	هوميروس	ت: سليمان البستانى
٧١٤	حديث القلوب	لامنيه	ت: حنا صاوه
٧١٥	جامعة كل المعارف (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	ت: نخبة من المترجمين
٧١٦	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	ت: نخبة من المترجمين
٧١٧	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	ت: نخبة من المترجمين
٧١٨	جامعة كل المعارف (جـ٤)	مجموعة من المؤلفين	ت: نخبة من المترجمين
٧١٩	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	ت: نخبة من المترجمين
٧٢٠	جامعة كل المعارف (جـ٦)	مجموعة من المؤلفين	ت: نخبة من المترجمين
٧٢١	فلسفة المتكلمين فى الإسلام	هـ. أ. ولفسون	ت: مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	ت: الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	ت: أحمد ثابت
٧٢٤	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	ت: عبده الريس
٧٢٥	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	ت: مى مقلد
٧٢٦	الموريسكيون فى الغرب	غيرمو غوثاليبس بوستو	ت: مروة محمد إبراهيم
٧٢٧	حلم البحر	باچين	ت: وحيد السعيد
٧٢٨	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	ت: أميرة جمعة
٧٢٩	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	ت: هويدا عزت
٧٣٠	حكايات من السهول الأفريقية	آن جات	ت: عزت عامر
٧٣١	النوع: الذكر والأنثى بين التمييز والاختلاف	نخبة	ت: محمد قدرى عمارة
٧٣٢	قصص بسيطة	إنجو شولتسه	ت: سمير جريس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٦٣٠ / ٢٠٠٤



GOETHE-INSTITUT

يحكى شولتسه بأسلوب تقريرى قصصًا من ريف «ألمانيا الشرقية»، تبدو بسيطة، لكنها ترسم صورة مركبة عن حياة الألمان الشرقيين بعد الزلزال السياسى الذى ضرب أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩ وأدى إلى سقوط سور برلين وانهيار الشيوعية.

«قصص بسيطة» لوحة فسيفسائية عن التحولات الكبرى التى تلت تفكك عالم وسبقت نشوء آخر: فترة الانتقال المؤلم من نظام شمولى مستبد يضمن لمواطنيه أساسيات العيش، ويحمل عنهم عبء الاختيار، إلى نظام ديمقراطى مفتوح يقوم على الفردية وتحقيق الذات والتنافس الشديد الذى يفرضه اقتصاد السوق الحر. «قصص» عن البسطاء الذين لم يستطيعوا التأقلم مع تلك التحولات، وعن الذين عرفوا كيف يقتنصون فرص الواقع الجديد. إنها قصص تبتعد عن الأيديولوجيا وتقدم شكلاً جديداً للرواية الألمانية المعاصرة.